خضير فليح الزيدي

ملك في بجامته

رواية

الملك في بيجامته

The King in His Pyjama

خضير فليح الزيدي

الطبعة الأولى: بيروت لبنان، 2018

First Edition: Beirut Lebanon, 2018

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

لبنان بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 07830070045 / 07810001005

daralrafidain@yahoo.com

info@daralrafidain.com

www.daralrafidain.com

dar alrafidain

Dar.alrafidain

دارالرافدين@daralrafidain_1

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 508 - 1

رواية

الملك في بيجامته

خضير فليح الزيدي

www.daralrafidain.com

ما يشبه الحكمة

قلتُ له:

- لم ينطق الملك بالشهادتين، كما لم يكبّر قاتله في أثناء القتل. فيا شيخي الجليل حفظكم اللّه، ما حكمهما؟؟

بَسْمَلَ ثم حَوْقَلَ واعتدلَ في جلسته ليقول:

- النار ثم النار تحت أقدام القاتل والمقتول.

كبير جلّاس

مقهى المعتزلة الثقافي

الإهداء

إلى من يهمّها أمري. ضابط إيقاع الحب والمودة والحنان. أقول:

ـ آه... لكم كنتُ مهملاً للحياة معكِ.

ثلاثة تقارير فقط

ت1

تحققت النبوءة. وصدَق القول:

أشار «جميل قره تبي» علانية في أقواله المدوَّنة بسجلات المحاكم آنذاك، إلى اليوم الذي ستعلن الجرذان فيه الثورة على أهالي الرصافة عامة. ثورة ناعمة لكنها سوداء، ستلتهم كل شيء في يوم ما، ليس هذا فقط بل سيعمّ الوباء الأسود صوبي الرصافة والكرخ معاً.

جاء كلام الأفندي «قره تبي» عن الجرذان في معرض دفاعه عن نفسه في قاعة محكمة الشعب، قبل أن ينفّذ به الشنق فجراً. في ساحة الإعدام غصَّ بالكلمات في أثناء تلقينه، فغضب شيخ التلقين منه، حتى قيل إنه بصق عليه، ثم استغفر ونكث زِيقَهُ ثلاثاً، عندما نسيَ جميل اسم الذات الإلهية. أربكه مشهد وضع الحبل في رقبته، المسكين قره تبي تلعثم لأكثر من مرة في نص الشهادتين، حتى شهق لمرتين متتاليتين في إتمامهما، قبل أن تُفتح بوابة النزول، ويهبط بقوة الحبل المحيط برقبته إلى الأرض. ليس سوى صوت طقطقة فقراته العنقية، أخرجت صوتاً كصوت قطع الدومينو المتساقطة على الطاولة. استطالت رقبته وغدت كرقبة زرافة فتية، وجحظت عيناه ككرتي منضدة، مكشراً عن ابتسامة ماكرة للقدر.

حين وجّه له القاضي الأول سؤالاً محدَّداً عن سبب خيانة الوطن، عن تسرّب البرقيّات من وإلى قصر الرحاب أثناء الهجوم عليه، عن حنثه باليمين، وفشل الخطة المسبقة بقطع سَير البرقيات المرسلة أو تلك المستلمة إلى ثلاثي المجزرة: الملك فيصل الثاني، وخاله عبد الإله، والباشا السعيد رئيس الحكومة آنذاك. «سيدي القاضي: إن المشكلة ليست بي، أو بتقنية رصد البرقيات، فقد جربتها لأكثر من مرة حتى دخلَت الخدمة بسلاسة، إنما المشكلة في الجرذ الأسود اللعين الذي قضم عازل السلك الرابط وقطعَ الاتصال، الجرذ هو الخائن سيدي ولست أنا. إذا لم يُدَنْ من قِبلكم ويُعدم فوراً، سيأتي اليوم الذي تثور فيه الجرذان على البشر. صدقني سيادة القاضي».

ضحك القاضي بعد أن خلع نظارة القراءة ومسح وجهه. قهقه مساعداه الأيمن والأيسر وكاتبهم ومحامي الدفاع والمدعي العام، حتى دَبَّ الهرج في القاعة الرخامية ذات السقف الشاهق.

ـ سؤال: هل أنت ناصري يا جميل؟

ـ جواب: لا. أنا من قره تبه سيدي القاضي.

ـ قصدت، ما هي علاقتك السرية بالناصرية؟

ـ لم أزرها في حياتي. علاقتي الوحيدة بالراقصة رحلو فقط. أحب الرقص هذه جريمتي، حاكموني عليها فقط. أنا لا أرقص، لكني أحب المرأة الراقصة التي تتفنن في الهز، عندما ترقص الأنثى على الواحدة والنصف يتحرر جسدها من قيوده فأطير. لم يأتِ في الشرائع ما يحرمه، الزوجة الصالحة يحق لها الرقص لزوجها حتى يرتوي من حركات جسدها. هذه جريمتي فقط، من أجلها ضاع عمري سيدي القاضي.

ثم رفعت الجلسة للمداولة، وعادت للانعقاد مرة أخرى للنطق بالحكم.

ـ باسم الشعب حكمت المحكمة الموقرة بالإعدام شنقاً حتى الموت على المُدان جميل قره تبي لارتكابه جريمة الخيانة العظمى.

ـ يحيا الشعب. يحيا الرقص. تحيا رحلو. قال القره تبي من مكانه غير مبالٍ بوقار المحكمة. كررها لأكثر من مرة.

لم يذرف أحد ما عليه دمعة، لم تبكه الأخت أو الزوجة أو الأم، كان القره تبي مقطوعاً من شجرة، لكن الوحيدة التي ذرفت الدمع عليه هي الراقصة اللعوب «رحلو». بعد سماعها بخبر شنقه كخائن، لبست أثناء وصلتها الليلية بدلة رقص محتشمة من «جورسيه» أسود ضيق على روحه لكنه مفتوح من الجانبين. فكّت عقدة الإيشارب الأسود من خصرها الضيق ووضعته على رأسها. لم ترتجف مؤخرتها المزمومة، ولم تضع «الجنبارات» بأصابعها كما كانت تفعل كل ليلة بتناوب الردفين اهتزازاً ميكانيكياً مذهلاً بدقة التحكم والمناوبة.

اكتفت تلك الليلة بتمايل جسدها كقطعة واحدة ويدها على ثدييها اللدنيين، وهما يهمّان بالانفلات من محجريهما. استغرب الزبائن مما فعلته بهذا النوع المتحفظ من الرقص الرتيب، أحدثوا ضجة كبيرة في فضاء المرقص بالتراشق في الكعوب، محتجين على وصلتها المحتشمة، لكنها كشفت لهم عن تقبُّلها التعازي على روح زبونها الدائم المرحوم جميل القره تبي.

بعد الوصلة جلست على مائدة منفردة في ركن المرقص قريباً من البار، أشعلت الشموع وكرعت الكأس الذهبي دفعة واحدة، لتتقبّل التعازي الحارة على روح الفقيد عاشق الرقص. تذكَّرت وقفته معها، حينما كان يضع الكأس الممتلئ على رأسه ويرافقها في حركات الهز. قالت لصديقه موسى الشعّار الذي جاء لتعزيتها: «مَنْ بعد المرحوم يبعثر الدنانير فوق رأسي؟ لم يخن الوطن، وطنه كان خشبة المرقص والحياة عنده مؤخرة راقصة».

تحققت النبوءة بعد أكثر من نصف قرن تقريباً، في هذا الوقت الذي تفاقمت الجرذان بعد إدانة «قره تبي» وشَنقه بحبل لم تمسّه الجرذان. منذ ذلك الحين وضعت النسبة وتم الاتفاق عليها. «لكل فرد من البغادة جرذ واحد لا غير». هكذا هي النسبة المقررة في القوانين والشرائع والتقاليد. إذا كان سبعة ملايين من الأفراد يعيشون في صوبي بغداد، سيكون لهم بالمقابل سبعة ملايين من الجرذان السود بالتمام، هي الحصة العادلة. على أن يعيش الأفراد فوق الأرض، وتعيش الجرذان تحتها في الأنفاق الخاصة للعيش في مجاري المياه الثقيلة.

يواصل الصحفي المخضرم نجم العتابي تقريره عن الوباء ونبوءة الأفندي لصحيفة الأمس البغدادية:

خمسون سنة مرّت على نبوءة المرحوم قره تبي، تكاثرت فيها الجرذان بشكل مريب، ضاقت بها المجاري وانسدت فتحاتها، ثم صعدت إلى سطح الأرض نحو الخرائب وتلول القمامات والبيوتات القديمة في بغداد العتيقة. حدثت مشاجرات عدة بين الطرفين، حتى أن القطط ولّت مذعورة مما يحدث أمامها مع كل حيادها، غير مصدقة من تغوّل الجرذان.

خرجت الجرذان دفعة واحدة من ساحة الميدان حتى الباب الشرقي العتيد، تهتف للوباء وتنذر بالثورة. نعم، كانت جرذان سود، كل واحد يزن ما يقارب «5 كغم» صعوداً، فكيف للقطط أن تصمد أمامها؟ إنها الثورة الكبرى، والعلامة لانهيار الهدنة المعلنة بين الأفراد والجرذان لخرق البشر الحدود المخصصة لهم.

غدت الشوارع سوداء قاتمة في يوم ثورتها. كأنها تموج وهي ترفع رايات سود تدثّر فيها الشوارع والأرصفة وواجهات البيوت. الجرذان بدت متحمسة وهي تمرح وتسرح والنشوة على أبوازها. تدخل إلى البيوت الواطئة وتعبث في المطابخ وتنام على الأفرشة وتلعب جر الحبل في الأحواش والساحات كما

في الشوارع. ترجَّلَت البراغيث من جلود الجرذان وراحت تمتص دماء الفقراء من دون رحمة. تزرع في دماء الناس بذوراً بكتيرية مدمرة. حلّت الكارثة وأُعلن الوباء الأسود وعمّ الحزن والخوف والقلق من شدة الهلع على أهالي الرصافة.

ت2

خالد الشيخ يكتب شهادته عن الوباء بتقرير وافٍ ما نصّه:

رسالة إلى صديقي الصحفي البارع نجم العتابي:

حضرة الأستاذ الصحفي، دمت بخير. سبق وطلبت شهادة عن مشاهداتي ليوم وباء بغداد لصحيفة الأمس البغدادية. سأكتب لك ما دونته في دفتري يوماً ما. تقبّل محبتي:

كل الحكاية وما فيها.

كانت فعلاً بداية ليوم مرعب. تأتي أهميته بعد يوم «النبأ العظيم» الذي حدث ولم تصدّقه، وضحكتَ أنت على أصل الفكرة في مقهى المعتزلة. هل تذكر؟

فجر ذلك اليوم الخريفي البارد، وصلتني رسالة SMS موجزة، بل اعتبرتها صادمة عندما رنّ هاتفي الذكي بنغمة كنائسية. الهاتف المحمول «كلاكسي» الأكثر ذكاءً من قرد غابة الموز، القرد الذي عُثِر عليه مؤخراً يقلّب صحيفة صفراء، هل تذكره؟ نعم كان يقضم موزة كاملة بقشورها. هل يعقل أن في داخل كل رأس واحد منا قرد صغير؟ انقرض القرد بوباء ضربَ الغابة بظروف غامضة، ومشابهة لما حدث هنا أيضاً. فركت عيني لأطرد شبح بقايا نثيث النوم العالق على الأجفان حين رنَّ الهاتف، تطلعت في الشاشة:

«إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، انتقل إلى رحمة الباري الروائي المغمور عماد

الآغا. سينطلق التشييع من بيته في حي القاهرة قطاع 324 في زقاق 52 حتى جامع النداء، لكم الأجر والثواب».

يا ستار يا عليم، تُفٍّ على شريط هذا الحلم المزعج، تُفٍّ على القرد المنحوس. إشارة سيئة مرور القرد على فضاء الحلم، تُفٍّ مزدوجة على التقنيات الحديثة التي تزعجني أكثر من السهر على راحتي، يرنُّ في الأوقات الحرجة ليتحول إلى «غراب البين»، غراب كحلي اللون وأعور دجال، لا يجلب إلا الأخبار السيئة.

فطرت على عجل وشربت الشاي مع حبة سكّرين وتبوّلت وقوفاً، وارتديت بدلة ونظارة سوداوين، وتوجهت بعد ساعة تقريباً إلى دار «الآغا» لغرض المشاركة في موكب التشييع.

هذه الأيام تتردد شائعات الرسائل المجهولة التي تصل من أرقام غريبة، تنصُّ على موت أحد كُتّاب بغداد في الوباء المتفشي، ثم سرعان ما يُكذِّب الناطق الرسمي لوزارة الصحة الخبر في اتضاح نهار اليوم نفسه.

في حين تطالعنا أخبار المقاهي والأسواق والمراقص: «إن قضية الوباء الذي ضرب أهالي الرصافة القديمة، لم يأخذ مساحته من الاهتمام العالمي/ العربي»، سوى ما تناولته وسائل الإعلام المرئية والمسموعة المحلية فقط، وبجرأة أكثر من الحكومة الخجولة.

لم أكترث لمتابعة كل ما قيل، لقد وردتني للأسف بعض الأخبار بأنها مسرحية مُفبركة. قالوا إنها فيلم هندي، كما قالوا عني: (خالد الشيخ أبو درب) في نفخ روح الحكاية. قالوا أيضاً: «يشتغل على تسريح الغشماء بالقنافذ»، وقالوا أيضاً «هذه لعبة وليست باقِلاء جديدة»، كذلك قالوا «إنها قضية سياسية خلفها أمريكا وإسرائيل». لكن الحقيقة كما عشت تفاصيلها سأرويها بطريقتي ودعك مما يقال.

ـ ففي تمام الساعة العاشرة والربع من صباح ذلك اليوم المشهود، أصبح

وجه الدنيا أصفر كجبنة شيدر متروكة تحت الشمس، ظنّ كبار السن وحكماء الرصافة أنها بادرة شؤم لانقلابها. نعم أقول لك بصريح العبارة «اصفرّ وجه الدنيا» أولاً حتى أصبح فاقعاً مثل مح البيضة، بعد لحظات من ذلك الاصفرار كبَّرَت كل الجوامع بعيدها وقريبها بتكبيرة واحدة موحَّدَة هذه المرة.

جاء الصوت مجلجلاً: اللّه أكبر، اللّه أكببببررررررر... ثم تلاها شهقات متتالية من أنفاس متعاقبة ثم اللّه أكبر كبيرااااا والحمد للّه كثيراًاااا... هكذا «أي واللّه».

إنهم فرحون، يجرجون ذيول الكلمات ويتفنّنون بالتطويح والكلكلة. الأمر الجلل قد حدث أو سيحدث لاحقاً. اللّه لا يكذّبني.

في هذا الوقت تداخلت وتقاطعت أصوات مختلفة مع بعضها. نعم علت فيها كلمة اللّه العليا ولكنها مقلوبة كما فعلها القره تبي في لحظة إعدامه. في تلك اللحظة عاد الناس إلى بيوتهم مسرعين خائفين تاركين أعمالهم ومحالهم مفتوحة ولم تُسمع سيمفونية «الكبنكات» في ساعة الإغلاق. أول مرة أرى المصارف مفتوحة من دون حرّاس مدجَّجين، بينما بقيت الأموال العراقية والعملات الأجنبية على المكاتب الزجاجية الأنيقة وأخرى منضدّة برزمها خلف الزجاج، ولا من حراس أو موظفين أصلاً، لا يوجد من يطمع بالسرقة مطلقاً في هذا الموقف. هذا المشهد المخيف في تلك اللحظة دلّ بوضوح على شيء ما. يقال إنه قيامة أو تمرين عنها.

خرج القوّادون الظرفاء في أول موكب للهروب المشروع، وحالة من فزع الوباء جعلتهم يهرولون بدشاديشهم البيض من دون «لبسان» تحتها، خلفهم ثلة الولدان المخنثين بشعورهم الطويلة المزيتة. ثم تأتي بعدهم في ذلك المشهد الرهيب كتيبة من عازفي «الزنبورات» والصنوج والطبول بزي ولون موحدين.

يتبعهم بالرهط الرجل البدين عازف الكمنجة البصير. يقال إنهم كانوا يمهِّدون الطريق لظهور جوقة الراقصات بالجلاجل والخراخيش، ثم آخر ما ظهر للشارع جوقة المهمَّشات من الوصيفات الزنجيات بأسنان من ذهب مزيف، وراقصات عجائز متكرّشات يحملنَ صرر بدلات الرقص وحاجيات التجميل على رؤوسهن.

فيلق الطرب هذا يقتحم باب جامع الرحمة الكبير ليلوذ جميع أفراده في رحابه، كآخر مكان آمن لهم. الجموع خائفة من استحقاق يوم القيامة الذي حطّ على رؤوسهم في غفلة من الزمن والطيش، يبحثون عن توبة نصوحة من خادم الجامع الفرح. قال أحدهم: «تطلَّع يا مولانا إنه شيء عادي وبسيط ومحتمل يوم قيامتكم هذا، بالَغوا في وصفه كثيراً بشرفي».

إنه وباء بغداد الأسود، إذا قلت لك ملايين الجرذان السود خرجت تتنزه في الشوارع، كل جرذ أكبر من قطٍّ أيٍّ مطبخٍ على وجه الأرض، ربما لم تصدق إلاّ ما تشاهده عينك، لكن اللّه شاهدناه بالعقل وليس بالعين حبيبي.

هذا الوباء الذي نزل على بغداد، ما هو إلَّا إشارة البداية للفناء وانقلاب الدنيا. المدارس أفرغت محتواها من الطلبة وأغلقت أبوابها، وبقيت الكتب المدرسية والأقلام على مقاعد الدراسة يعبث بها نسيم الوباء. الحواجز الأمنية غادرها رجالها والسيارات متوقفة فيها ومشرَّعة الأبواب، والكل يركض ما سُمّي بركضة الوباء تاريخياً. في البيوت أقفلوا الأبواب ووضعوا اللواصق على النوافذ وتكمّموا بالخاوليات والمناشف المبللة.

يودّعون بعضهم ويطلب بعضهم براء ما في الذمة لإطفاء ديون عالقة أو شبه ميّتة. بعضهم انشغل في صلاة الخوف والدعاء وغفران الذنوب وقراءة القرآن. آخرون تصالحوا مع زوجاتهم، على قاعدة دنيا فانية ولو بعد حين منظور، الأكثر من ذلك عمَدَ بعض المذعورين إلى وضع اللاصق السائل لاصطياد الجرذان، أو

نحر الحمائم البريئة وذبح البلابل أو حرقها خوفاً من انتشار الوباء في داخل بيوتهم أو حرق القمامات أمام بيوتهم، وفق حكمة باليَة. وجدتهم مكبرين مفزوعين خائفين من الموت الزؤام. إنه النبأ العظيم سيدي، ألم تسمع به؟

عشت الحالة بكل تفاصيلها، الخوف من الموت أكثر وحشية من الموت نفسه. أحدهم أطلق العبارة قائلاً «وباء، وباء يا عراقيين، يا بغداديين، جاءكم الوباء» فاستلمتها الجوامع جاهزة، وعلى الفور أطلقت تكبيراتها.

يفتح مؤذنو الجوامع أجهزة مكبرات الصوت، أما البقية الذين انقطع التيار الكهربائي عنهم، فقد عمدوا على تشغيل ماكينات التوليد الصغيرة. إنها صيحة عظيمة لا تشبه صيحة الأعور الدجال ودورانه في شوارع بغداد بقدر ما كانت صرخة كائن عملاق بوجه ما وصلت له الحياة في الأرض.

ما لفت نظري خادم جامع الرحمة، الرجل الكبير ينزع يشماغ وقاره ويرتقي المنبر وبأعلى صوته يطوّح بالتكبيرات، كان أكثر فرحاً من فرحه بيوم عرسه. ثم عدتُ للبيت بأقصى سرعة تاركاً السوق وفرن الصمُّون خلفي راكضاً مع الجموع الراكضة.

هل شاهدت يوماً ما «ركضة طويريج» العظيمة؟ كان المشهد آنذاك أكثر هولاً منها في التدافع بالطرقات المكتظَّة بالحشود المذعورة. تصيح صيحة واحدة «يا اللّه يا اللّه ». تصور يا سيدي حتى أن ملحدي الأمة الجدد انغمسوا في الدعاء، ولو كان مختلفاً قليلاً عن أدعية الجماعات المتشددة. دعاء هؤلاء الجدد مغمّس بلغة العصر من دون توسل أو بكاء، من غير حتى رفع الأيادي، كانوا متوحدين مع خالقهم في لحظة خارجة عن المفاهيم التي ردّدوها عن الوجود والعدم.

في الطريق رأيت جاري يحدق في وجه السماء ويقول: «الدنيا صارت صفراء بشرفي»، وهذه آثار الوباء واضحة في الشوارع. صرخ آخر: «هذه النخلة

(الشويثية) كانت خضراء وتيبّست يا سبحان اللّه. قادر على كل شيء. حكمتك يا رب العالمين». الكذاب الآخر قال: «بأم عيني وجدت العشرات «ممطولين» في الشوارع، هذا وباء مو لعبة عمي».

في الحقيقة كنت متصوراً، أنه يوم قيامة وليس فيلماً سينمائياً، سينتهي الأمر بسرعة البرق مثلما يقولون كزرقة إبرة. بصراحة صدقت عيني في لحظة غش حقيقية، ندمت على ما فاتني من حياة عشتها مع الكافرين أمثالي في المراقص والملاهي. شغلتني الملذات ونسيت نفسي، فلا تعبّد ولا صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا حج ولا هم يحزنون. لم يسعفني الوقت المتبقي لطلب العفو والمغفرة. ربما اللّه وحده سيكتشف خِسَّتي ونجاستي من عفتي وسهوي. تذكر شيوخ المقاهي مقولة قديمة للمرحوم جميل قره تبي في قاعة المحكمة عن الجرذان والوباء عندما قال: «يأتي اليوم الذي تعلن الجرذان فيه الثورة على أهالي الرصافة عامة. ثورة ناعمة وسوداء، تلتهم كل شيء في يوم ما، سيعمّ الوباء الأسود صوبي الكرخ والرصافة معاً».

كيف لي أن أقابل اللّه؟ بأي وجه وأنا السادر في غيي. يوم القيامة مخيف يا سيدي بالنسبة لأمثالي. جارنا الخمّار «حياوي دوخة» هو الوحيد الذي لم يتأثر ويطلب المغفرة أو يدخل إلى بيته، واحدة من اثنتين؛ إما كان تحت تأثير الخمرة، أو أنه اكتشف لعبة الحياة أو الموت.

حياوي هذا خمّار العاقولية عاشق الكسل المثالي وحبيب اللذة بشكل عجيب. فلسفة هذا السكير قائمة على إحياء مبدأ «التفاهة العظيم» القائم على نظرية، «التفاهة هي طريق السعادة». يقتل سقم الحياة بسحر التفاهة وغوايتها، يجدها الحل الأمثل لمصاعبها.

ففي يوم «النبأ العظيم» بصيغته العراقية بقي «دوخة» جالساً على دكّة

اسمنتية في باب بيته يمزمز بخيارة ماء ناعمة ويهز يده غير مبالٍ بما يحدث من هرج ومرج، من ثورة الجرذان العارمة واصطباغ الشوارع بلونها الأسود، فكان ينشّها مثلما ينشّ الذباب. ينفخ دخان سيجارته إلى السماء بعَمد وقصدية، يهمس بأذن كلبه الكسول المنبطح بقربه بكلام غامض فيضحكان معاً، أثناء صيحة الوباء العظيمة.

لمت نفسي كثيراً وقرّعت رأسي، وقد تبخرت كل فلسفتي وآرائي الحرة عندما صاح المنادي وكبّر المؤذن الفرح بأن الوباء قادم. ركضت حالي كحال الراكضين. أصيح «يا روح ما بعدك روح».

كعش الدبابير، انطلقت الجرذان بكل قوتها إلى شوارع بغداد بعد توفير البيئة المناسبة من رطوبة وظلام مناسبين للانتعاش، حاملة على ظهورها ملايين البراغيث. تحمل فايروسات الوباء كما قيل ساعتها. نعم انقلبت الدنيا، بعدما أطلقت صريرها الذي أخاف الجميع. لقد كذب المؤذنون وصدق القره تبي.

لم أجد فرِحاً بتلك اللحظة، إلا فرحة المؤذن وهو يُطوِّح بصوته، نبرة إنشاديه طربية بـ «لا اله إلا اللّه واللّه أكبر». هذا المؤذن غالباً ما تفرحه أنباء دنو الأجل وقيام القيامة. معتقده قائم على إشاعة فوضى جماهيرية عظمى لتنقلب الدنيا ويستريح من تكرار الآذان كل وقت والنهوض للصلاة في لبّة الفجر.

ـ وبعدين!؟ قال الكلب لسيده دوخة.

ـ كل شيء انتهى بعد ساعة. وعادت الحياة إلى طبيعتها.

أي في الساعة الحادية عشر والربع بالضبط. انتهى كل شيء. كانت لذة حقيقية لرعشة الخوف وقشعريرة الجلد ويقظة الحواس الكسولة، جعلتني أنقلب على معتقداتي كلها، قريباً من أجواء الورع والإيمان. ففي تلك اللحظة كذّبت فيها الحكومة على لسان ناطقها الرسمي: إنها محض إشاعة بشعة، بل هي مؤامرة أطلقها أعداء العراق.

ـ منهم أعداء العراق؟

ـ لا أعرف. لم أكن منشغلاً بأعداء العراق بقدر انشغالي بتفاصيل واقعة الجرذان سيدي

ـ ها!

بعد انتهاء الإشاعة قالت لي زوجتي: «اخرج هات لنا الخبز يا رجل. كل شيء عاد لوضعه الطبيعي. اخرجْ من القمقم وأزحْ اللّحاف المبلَّل. انتهى كل شيء، وتبخرت الجرذان. الناس خرجت من منازلها وعاد الطلبة إلى مدارسهم وذهب المؤذِّن إلى النوم، وأخضرَّت النخلة من جديد. جاري حياوي دوخة قام مترنِّحاً وذهب إلى فراشه غير عابئ بخوفنا. وعندما سأله الصغار ماذا حدث؟

«ما كوشي يمكن تمرين بسيط ليوم القيامة. هذا أخ القحبة المؤذن هو الذي حاول قلب الدنيا. ما عندكم جكارة إخوان؟»

تزامن تفشي الوباء مع موت الروائي المغمور «عماد الآغا». هذا ما حصل في ذلك الصباح، وللقصة بقية أخرى عن موته. «اذهب الليلة وفتّش في محرك البحث كوكول عن تقرير منظمة الصحة العالمية عن وباء بغداد».

ت3

ثم جاء تقرير منظمة الصحة العالمية World Health Organization بسبع نقاط.

أولاً: الوباء H2S2 حدثٌ محدودٌ، أثبت الكشف العلمي أنه الطاعون الرئوي وليس كما ادَّعت وزارة الصحة العراقية بكونه الطاعون النَّملي، سببته أنثروبيكتريا تنتشر في الهواء، وقع في نطاق ضيق من مدينة بغداد العاصمة الساخنة، وموطن الأزمات التقليدية. سجَّلَته منظمَّتنا المعروفة عالمياً بالرمز (WHO) بسجلَّاتها كونه من الأوبئة الغامضة ويعرف تقليدياً بـ(Plague) أو الوباء الأسود، حيث عاود نشاطه بعد مرور قرن من تلاشيه.

لم تتوصل منظمَّتنا بمختبراتها وتقانتها الفائقة مع تحرِّيها الميداني في الرقعة الجغرافية المرسومة «تنقيطاً/تسقيطاً» من شمال بغداد عند (خط طول 44 وعرض 33) حتى جنوبها، لتفشي رقعته فعلياً لسخونة رقعة الوباء المستوطن.

ثانياً: عملت كوادرنا بالرصد العلمي الدقيق عبر أنظمة الإنذار المبكر للأوبئة، حيث نصبت كاميرات المراقبة على الأرض والبالونات في السماء، وفعلت كل ما في وسعها لحصره، بينما التقطت منظومة إنذارات الاستشعار المبكر مؤشرات على زوال الخطر، بعد ستين يوماً من تعاظمه، وباحتمالات مهاجمته مجدداً للأحياء المحصورة سلفاً. تأخذ بنظر الاعتبار الظروف التاريخية والبيئية بخاصية التنبؤ بما سيحصل من كارثة وبائية في انقراض البغادة الذين سيفتك بهم في بغداد مستقبلاً في حالة عودته واستفحاله.

ثالثا: تسجل المنظمة حرجها المتعاظم أمام الإنسانية جمعاء في تقريرها هذا، في اللحظة التي تفقد القدرة على التأكيد لمعرفة أسباب عودة الوباء المفاجئ مجدداً بشأن تطوره/ حواضنه/ ومقاومته للعلاج من عدمه. فيما تجدر الإشارة أن بيكترياً الوباء وجدت في البراغيث التي تحملها الجرذان. مما جعل منظمتنا تطالب بوضع اليد والحجر الصحي على كافة المناطق التي خرجت منها الجرذان. ووضع الشمع الأحمر على بيوت المربع القديم من صوب الرصافة التي تعتبر مصدر الجرذان ومعقلها الرئيس، مناطق «المربعة والكولات وقنبر علي وأبي سيفين وأبي دودو والدهانة وفضوة عرب وجديد حسن باشا والمهدية والكفاح والفضل وصولا للحيدر خانة والعاقولية»، حتى امتداد شارع النهر.

رابعاً: إذ تسجل المنظمة تحفُّظها في رفض السلطات العراقية للمحرقة التي اقترحتها لكل الحواضن المقترحة في أوكار الجرذان ورفع القمامة المتكدسة والأفرشة ومخدات القطن واللحف ومعاطف الصوف من الدرابين العتيقة، وزجها جميعاً في التنور الكونكريتي العملاق، والمقترح من قبلنا على تخوم العاصمة، خوفاً من عودة الوباء. إذ تبنّت الحكومة العراقية مقترحاً بديلاً لرفع الحرج من قدوم فرق المكافحة الصحية الأجنبية ووصفها بالمحتل الجديد. يتبلور لب مقترح الحكومة في ضرب البراغيث والجرذان معاً ضربة مباغتة واحدة بغاز سام وكفى.

خامساً: تاريخياً يمكن القول، إن وباء (H2S2) يستوطن في جنوب غرب آسيا في الأزمنة الماضية، ولا يُعرف التفسير العلمي لنشاطه الحالي، قد تتفاعل البيئة الحارة مع عصياته النائمة لتعيد نشاطها مجدداً، وهذا بدوره هو الاحتمال الأكثر مصداقية من غيره.

سادساً: إن دورة المرض واستيطانه تنتقل إلى رأس المصاب من يومين إلى ستة أيام. وتزداد خطورته بعشرة أيام. يعتقد أن ظهوره هذه السنة في بغداد،

قد يشكل حالة استثنائية. أما تفسير الحكومة المحلية كون ما حصل هو مؤامرة محبوكة من البراغيث والجرذان معاً، ذلك يعدُّ ضرباً من الوطنية الرومانسية.

سابعا: سجلت مستشفيات بغداد بعض الحالات المشكوك بها، وحالات أخرى تمّ فيها اكتساب الشفاء التام للموبوئين بعد تماثلهم للشفاء، ومغادرة مقرات الحجر الصحي والعزل الكونكريتي، في حين سجلت وفاة واحدة مسجلة رسمياً لكاتب رواية مغمور.

الباب الأول

ذو الرائحة الكريهة

1

الحضور في الظلام

بعد عام صيحة الوباء، استتب الوضع قليلاً، لكنه اتضح فيما بعد كاستراحة ما بين الشوطين، وسرعان ما تبخَّر الأمن المستتب تدريجياً.

بالنسبة لي شخصياً، فقد وُجّهت دعوة رسمية لحضور التمرين الأخير «بروفا جنرال» لمسرحية (الأميرة والجزّار) المزمع عرضها في معهد الفنون الجميلة للعام الحالي. سلّمني الولد «براق الكوني» بطاقة الدعوة، بمظروف أبيض وموشّح بإطار ذهبي، خُتِمَ على حافته بختم دائري مسنن لإدارة المعهد.

انتظرته في مقهى كئيب تفوح منه رائحة التبغ والشاي المحروقين، داخل سوق الخضار في باب المُعظّم؛ يدعى مقهى المعتزلة الثقافي، تتسرب الثقافة والاكتئاب والعزلة في زواياه المظلمة، وعلى بابه تحاصرنا تلال من الباذنجان وأصابع الباميا وأكوام البطيخ.

«حضرة الأستاذ خالد، شيخ الروائيين العراقيين. تتشرّف إدارة المعهد بدعوتكم لحضور تمرين فرجة «الأميرة والجزار» على قاعة المسرح التجريبي».

تمّت دعوتي بوصفي الروائي المكلّف بإكمال الفصل الأخير من رواية «عماد الآغا»، مؤلف فكرة دراما العرض المعدّة عن روايته، والذي وافته المنية في العام الفائت، إبان حقبة الوباء الأسود. بالنسبة لي، لم أكتب رواية في حياتي، لكني

كنجاة الصغيرة، كبيرة العطاء وتُكَنّى بالصغيرة. أعرف كل دهاليز فنون اللعبة الروائية، مُطَّلعٌ على معظم شهيراتها، حتى أصبحت محرراً لكثير من الروايات الصادرة، ويشاع عني كثيراً بشيخ الروائيين العراقيين وبلا رواية تذكر، ثمة فرق بائن بين روائي النص وروائي الحضور من دون نص. تلك هي المفارقة. تستهويني مهنة المحرر الروائي أكثر من التأليف. بصراحة لا أحب أن أتحوّل إلى معلّق على الأحداث الجسيمة والكتابة عنها، بقدر ما أود أن أعيشها، أو أن أكون بطلها.

يقع معهد الفنون هذا في شرقي بغداد، في بناية رحبة وقديمة نسبياً، معدّة سابقاً للإناث من الطالبات، ذلك ما كشفته بقايا روائحهن، مثلما تكشف جدران الممرات الطويلة فيض أسرارهن برسم قلوب مسطّحة تنبت في مراكزها سهام متشعبة النهايات.

بمناسبة ذكر الرائحة، أستطيع القول في هذا الباب، لقد حافظت على حاسة الشم إلى خريف العمر سالمة ونشطة كأنف بوليسي حسّاس، فعلاقتي بالأنثى من خلال الشم فقط، ثم تأتي تباعاً هجمات متتالية للحواس الأخرى. عندما تمر الأنثى بقربي مثلاً، فمن المؤكد أن تترك خلف طيفها رائحة ما في أثرها. تعمل حاسة الشم بجد في مختبري الميداني على فصل رائحة العطر الصناعي من عطر جسدها الطبيعي، أستطيع تمييز العسل الأصلي من عسل المرأة المغشوش. ثم تأتي الانطباعات الأخرى لإعطاء نتيجة الفحص وبيانات حالتها. مثلاً هذه أنثى رائعة الجمال، لكنها خائفة من شيء ما، وتلك أخرى تدمِّر جمالها بالصراخ وخشونة الطباع، فالعصبية تقتل رقّة الأنوثة، وأخرى مهملة للغرائز، بل تتكتّم على تدفق الرائحة في ساعة مرورها. وتلك جميلة الملامح، لكن رائحة فمها تنبعث كغاز سام، حتى غدت رائحة الجسد الأنثوي تعمل ضمن جهاز لقياس شبقها أو حاجتها الماسة لأمور لا يمكن البوح بها هنا.

توجَّهتُ فور وصولي إلى قسم المسرح، حيث تستعد رئاسة القسم لمهرجانها

السنوي في الشهر المقبل. لكني والحق يقال كنت محصوراً جداً، ولا أخجل من القول إن مثانتي كادت تنفجر بحكم العمر قبل الصعود إلى الطابق الثاني.

أخبرني رئيس القسم: «إن برنامج المهرجان المسرحي يا شيخ لهذا العام سيكون مختلفاً، في الابتعاد كلياً عن النصوص التاريخية للدراما العالمية لمؤلفين منقرضين ومنحوتين في صور خرقاء، كسوفوكلس ويوربيدس واسخيلوس وموليير وسارتر وشيخهم شكسبير». باغتّه بالسؤال:

ـ لا شيخ ولا بطيخ. أين المراحيض؟

ـ نعم!؟

حضرتي مصاب بخفّة البول، وكم تمنيت أن أصاب بخفّة الدم أو الروح. يقولون عن هذه الحالة بالذات إنها واحدة من ثلاث علامات بائنة للشيخوخة مع تساقط الأسنان والشَعر في الأذنين. قادني الرجل إلى مراحيض الأساتذة، فهي مقبولة نسبياً أكثر من مراحيض الطلبة السوريالية بعفنها ومدوّناتها المجانية مع انقطاع الماء الدائم عنها، ويقيم الذباب حفلاته الصاخبة بالطنين على مقاعدها.

دخلت المرحاض وأغلقت الباب، ثم أغمضت عينيّ كالعادة عند التبول. عادة قديمة للشعور بنشوة الإفراغ. كنت منذ زمن بعيد قد ودّعتُ نشوة الامتلاء، محاولةً مني للتعود على نشوة الإفراغ في خريف العمر، فالأولى كانت لازمة لمرحلة الشباب، بالضد من الحالة الجديدة، التي يبدو أنها سترافقني إلى القبر.

عاد الأستاذ الأقرع بعد فاصل المرحاض ليحدثني من جديد: «أصبح انحيازنا بما لا يقبل الشك للدراما الوطنية المحلية بنكهة تاريخ العراق المعاصر. تاريخنا يفوق تاريخ الدراما العالمية، بالرغم من تجمهر النمل على وقائعه، وتراكمه في مسالك جثثه».

مخرج العرض يدعى نورس، اسمه يطابق شكله الجميل والأنيق، الاسم يقودني إلى تبنّي الانطباع الخاطئ في أغلب الأحيان. ذلك الشاب الحليبي الأبيض صاحب الشعر الطويل والمعقود إلى الخلف، ذكّرني بممثل إيراني قد لعب دور النبي يوسف، هو أول المرحِّبين بي على السلّم. صافحني بحرارة وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد. يستعد نورس لعمله هذا كمادة تَخرُّج مُلزِمة للنجاح. «إنه عمل تجريبي عن مجزرة الرحاب التاريخية 1958، ويعدّ مجازفة خطرة بالرغم من نكهتها التجريبية».

في بداية التعارف، راح المخرج الحلو هذا يشكو لي تذمره من نقص مكملات العرض الضرورية. إذ عجزت جهة الإنتاج عن توفير الأزياء الملوكية، بما فيها الإكسسوارات ومستلزمات أخرى لديكوره رغم تجريديّته المعتادة، مع غياب واضح لأزياء المغدورين للملك الصغير وخاله الأمير وخدمهما وطبّاخيهما، كذلك أزياء الأميرات ووصيفاتهنَّ، أما بندقية جزار العائلة المالكة، فقد كانت عبارة عن مسطرة خشبية مثيرة للضحك كلَّما لوَّح بها. مما دعا المخرج إلى تهديد إدارة الإنتاج بالذهاب إلى خاصية التجريد الفني ودمج العائلة المالكة كلها في الجوقة، إذا لم تُحلّ فوراً مشكلة الأزياء قبل يوم العرض المرتقب.

أوشى لي رئيس القسم: «أنه بالغ كثيراً في النواقص، فالمخرج يمر بأزمة عاطفية هذه الأيام مع أستاذة الأزياء «سعاد بديوي». علاقة حب من طرف واحد. حتماً ستسلّمه الشكل النهائي لتصميم الأزياء التاريخية لاحقاً. الأزمة بينهما ستنتهي قريباً. الست واقعة في حب طالبها، هذا ملخص الكلام يا شيخ خالد».

أترك كلمة الشيخ خلف ظهرك رجاء. أبو الوليد وكفى، أستاذ خالد أيضاً يكفي. قلت له بعد إلحاح شديد في ترديدها وسط كلامه.

تناهى إلى سمعي حوارات جانبية محتدمة في الممر الضيق المؤدي للقاعة التجريبية، عندما تركت رئيس القسم يحثُّ الطلبة على الدخول للمحاضرات.

في الممر الطويل المؤدي إلى القاعة التجريبية، كان النقاش على أشدّه بين مصمّمة الأزياء، وهي أستاذة بدرجة ماجستير. غالباً ما تكرر مرتبتها العلمية بمناسبة أو من دونها في أثناء النقاش. كانت سمراء معتمة، بدينة قصيرة وبصوت أجش يخدش طبلة الإذن. ترتدي عباءة إسلامية فضفاضة وتقليدية و«حجاب حنوكي» وهي موضة مستحدثة للمؤمنات الجدد. لو رسمتُ لها شارباً متخيلاً ستتحول حتماً إلى بدوي تاه في المدن. لمحتها تصارع بقوة مدير الإنتاج، الرجل الطويل الخجول بلحيته البيضاء، وثالث حلقة الحوار هو مسؤول المراجعة التاريخية، الأستاذ الأكاديمي الكئيب الذي يعاني من حدة النسيان بخلل واضح في ذاكرته، ويعاني من ارتفاع مزمن في ضغط الدم، يعيشون كأنهم في ردهة مشفى، كما وصفهم المخرج لي.

كان النقاش على أشدّه حول لون بيجامة الملك وطبيعة قماشها المستورد آنذاك. هل كانت قطنية ومقلّمة أم بلون أبيض صافٍ من الحرير الصناعي؟ ماذا كان يرتدي الأمير عبد الإله عند سماعه صوت الرصاص في تلك الساعة الشيطانية من صباح الرابع عشر من تموز؟ أما أزياء الأميرات ونوع حجابهن، فقد كانت محض نقاشٍ دامٍ أيضاً بين الرؤوس الثلاثة. لكن المجموعة اتفقت في النهاية، على العباءة الهاشمية للأميرة نفيسة ووصيفتها فقط، ثم عادوا ليختلفوا على طبيعة قماش ثوب النوم الشفاف الذي نزلت به الأميرة هيام، بعدما أعادها زاجراً الأمير عبد الإله لتستبدله فوراً قبل النزول إلى صالة القصر، ولم يُحسم الخلاف في هذه النقطة حتى ساعة إشارة البدء من المخرج.

قالت سعاد بديوي: «أنا أعترض. لا يجوز شرعاً ظهور الممثلة في ملابس النوم الشفّافة على المسرح أمام الجمهور؟ حرام ثم حرام بل هذا هو الفسق. نحن نعيش في دولة إسلامية وهذا يتعارض مع ثوابتها. ثم هل يعقل أن ينزل الملك الصغير عند سماعه صوت الرمي من غرفة نومه بكامل قيافته الرسمية وزوجة

الأمير تتبعه بملابس النوم؟ أنا أجزم أنه نزل ببيجامة النوم. هذا منطق تاريخي معقول، وأنا كما يعرف الجميع ماجستير في اختصاص الأزياء الإسلامية».

همس الرجل الكئيب لزميله في حلقة النقاش. «الدلائل المتوفرة تدل على عجز جنسي واضح عند الأمير، ذلك يتنافى من نزول الأميرة في ملابس النوم».

أدركتُ بخبرتي أن المشكلة في عدم توفر المعلومة الموثّقة، والإهمال الواضح للتفاصيل اللونية والإكسسوارات واحدة من غفلتنا التاريخية والثقافية، فأصبح الاجتهاد لزاماً في تلك الحالة بعد تفكيك تفاصيل الواقعة التاريخية، ولا وجودَ مادياً لتفاصيل ما حدث في المتاحف المتبقية على قيد الواقعة. لكنهم في ختام المناقشة الدامية اتفقوا على تشكيل لجنة عليا لتسوية الخلافات التاريخية.

دخلت القاعة مع إشارة واضحة لبداية التمرين، عندما صفّق المخرج بيديه صارخاً بكلمة (كيو). اختفى الممثلون بسرعة البرق خلف الستارة الحمراء، ثم انطفأت إنارة القاعة تدريجياً ليحل الظلام.

مع بدء الموسيقى التصويرية تلاشت الأنفاس الكريهة للمسؤول الإداري البدين الجالس بقربي. عطر الموسيقى كتمَ رائحته الكريهة. همس بأذني رئيس قسم المسرح، بأن هذا البدين هو الموظَّف الذي سيجيز العرض فنّياً أو ربما يوصي برفضه، بعدما تنبّه لوضعي القلق من سموم زفيره المقرف.

الروائح الكريهة المنبعثة من الأفواه، أصبحت المقياس الفاصل بالنسبة لمزاجي الحاد لقبول أو رفض الآخرين. مهما كان عميقاً بفكره أو درجته في سلّم الوظيفة، أو حتى درجة إبداعه، فرائحة الفم تفسد عندي كل شيء. تذكرني بالطبيعة الحيوانية الشرهة والمفترسة لهذا النمط.

كان هذا الرجل قبل حلول ظلام القاعة ينفخ سمومه الخانقة بكل ثقة على وجهي، لهذا السبب أشحتُ بوجهي عنه، ولم يعر اهتماماً أو يتلقف المبادرة،

ظل يتفوّه بكلمات نتنة مغمّسة بالقرف. يتحدث عن إشكاليات تعاطي المسرح العراقي مع الحقبة الملكية المنقرضة، حتى كرهتها لفرط الغاز الكريه المصاحب لفكرته، فالمسرح العراقي جمهوري النزعة وعاطفي الهوى.

مع حلول الظلام ثمة عزف عود منفرد؛ أظنّها مقطوعة «شلالات» الشائعة والمثيرة للحواس الخاملة للموسيقار العراقي الراحل «جميل بشير». هكذا يتحول ماضينا على المسرح من سلة أشواك لا روح فيها، إلى طبق فاكهة لذيذة رغم سوء لحظته تحت سطوة الإحساس المتدفق. كنت أفكر ساعتها بمقولة الأقرع: «روعة التمثيل الدرامي تتجسد بتلبُّس الشخصية وشدة التقمص، لكن هذا التقمص سيفسد رواية التاريخ مهما كانت دقته في رسم مسار الأحداث، إلّا إذا تبنَّى نظرية (الاستعادة التاريخية الجديدة) للحدث»، ما تحدث به الولد الخارق في مقهى المعتزلة عندما سلَّمني بطاقة الدعوة.

غالباً ومنذ سنين خلت عندما يسود الظلام أغمض عينيّ، أتلذذ بممارسة أحلامي المؤجلة «عادتي السرية» الجميلة تحت خيمة طغيان العتمة، ولكم وددت أن أبكي رغبة في البكاء الحر، مستغلاً هذا الظلام على هذه العائلة المغدورة، تلك عادة البكاء المقيتة التي لازمتني طوال عمري المكبّل بالملل. الظلام واحة خصبة للبكاء. فلَتُّ من شباك الموت مرات كثيرة في محطات حياتي المتشعبة، حتى وصلت إلى باب السبعين سالماً، إلاّ من خدوش بسيطة. أما الآن فليس عندي حرصٌ واضح على استمرار الحياة، مثل عدَّاءٍ عَدميّ النزعة، قعدَ ليستريح على أرض المضمار قبل مترين فقط من خط النهاية.

أفتح عينيّ تدريجياً مع الضوء المتدفق من الأركان وسقف المسرح. تذوب المقطوعة الموسيقية المتسارعة بنقرات أوتارها كقطعة ثلج في ماء فاتر، ليتلاشى النغم الحزين وسط همهمات الممثلين خلف الكواليس.

يعود المخرج المنفعل ليعطي إشارة توقف التمرين، ليضبط هذه المرة التوقيت الدقيق بين هبوط المقطوعة الموسيقية مع لحظة فتح الستارة الحمراء. أعادها لثلاث مرات متواصلة. بعدها مرّت لحظة صمت قاتلة، حتى أعطى «كيو» جديدة للمشهد الآخر. بدا التحرّش واضحاً في الظلام من قبل الست سعاد حين اختارت مكاناً جديداً ملاصقاً لحبيب القلب.

* * *

2

دعاء مُستجاب

يظهر الراوي من داخل صفوف القاعة، شخصية جادة ومتجهمة يحمل ملامح المعاصرة. يتلبّس دور «حكّاء التاريخ»، بسدارة فيصلية وعباءة سوداء موشّاة بحاشية مذهّبة ولحية سوداء كثّة مع عمّة سوداء، وبمسبحة صفراء «كهرب» طويلة يداعبها بكفيه. ثمة كشّاف من ضوء يتابع تحركاته. يتمشى الراوي جيئة ورواحاً في الممر الفاصل بين مقاعد الجمهور الفارغة، ويردد بصوت أجش وقوي يخرق الأذن:

ـ سيداتي سادتي: إذ نُعلّمَ الناس الدروس في سفك الدم، فإذا ما حفظوها، قاموا بتطبيقها علينا. أعلمكم أنه في ذلك اليوم، أمطرت غمامة الأدعية المترادفة شظايا من سِجِّيل.

حصل هذا قبل سنين مدٌّ طويل في ياء السنين في يوم الحادثة المروّعة، ومنذ ذلك اليوم ونحن لا نعرف طريقاً للطمأنينة والسلام. أخبركم بوقع البساطيل الثقيلة على رؤوسنا كان ثقيلاً.

يُغنّي من مقام دشت: «تفاقمت الغمّة يا ليلي يا ليل ـ على هذه الأمة يا عيني يا عين...». هكذا تحدّثنا الأميرة بديعة المفجوعة بذويها ـ يشير إلى مقدمة المسرح. بديعة المفجوعة هذه تمطرنا بأسئلتها المدوّخة وبلهجة بغدادية هجينة.

تنفتح الستارة القطيفية الحمراء تدريجياً مع إشارة المخرج. يكشف فضاء المسرح عن فقر تام في ديكور الفرجة المسرحية، ثمة قطع خشبية تجريدية تمثل قصراً مرسوماً في الفضاء، يقابله في الجهة الشمالية إطارٌ خشبيٌّ يمثِّل باب الدخول والخروج من بطن التاريخ.

بالنسبة لي كمشاهد تضايقت من هذه البداية «الأمة والغمامة والليل والعين» مثل أسطوانة مشروخة، مللتُ من تكرارها حتى صارت الأمة كسيحة فعلاً، والغمامة فرقعة ألعاب نارية في السماء.

تظهر الشخصيات تباعاً على الخشبة، من خلف كواليس وزوايا عمق المسرح وصولاً إلى مقدمة الخشبة. ثَمَّ ممثل بدور الجزَّار بيده بندقية من خشب. لم يكن بديناً كما هي عادة الجزَّارين في مسرح الحياة البغدادية التقليدية، بل كان مسلولاً كقلم رصاص، ذلك هو الولد «براق الكوني» يرسم حركات تعبيرية، تجعله يصنع صورة هوائية لراقص رشيق.

في كل فقرة من الدعاء، كان جزار العائلة يضع يديه على أذنيه ليصد بها صيحات الأميرة، حتى أصبح التفريق صعباً بين ما حدث فعلياً أو درامياً. كان حاذقاً في تلافي حجارة السجّيل الضوئية التي أكّدت درامية المشهد.

استخدم مصمم سينوغرافياً العرض معلوماته التقنية في إدخال الإنارة الليزرية النقطية لعمل الحجارة السجِّيلية، موظِّفاً إدراكه لقصة «أبرهة الحبشي» في الرواية المعروفة.

بينما تظهر الممثلة الشابة «ميسون الجيلاوي» بدور الأميرة بديعة، سليلة العرش الأميري، تفترش الأرض جالسة في الجهة المقابلة للجزار. تستخدم يديها بحركة رشيقة، وتئن كفاقدة الابن الوحيد. تجلس على عراء مقدمة خشبة المسرح وهي تنحب. نافشة شعرها المستعار الأشيب، وجهاً لوجه أمام فاطر السماء، لا

يحجبها عن الخالق حاجز ما سوى سقف المسرح وحجارة الضوء السجّيلية. تبدأ بترتيل (آية) من نص الدعاء المتواتر كما ورد في النص المسرحي في مشهد التعزية هذا:

اللّهم أرى في العراقيين يوماً يبكي به عدوّهم على بلوتهم. اللّهم سأبكي عليهم ليس من باب الشماتة. يتعذبون بأصناف عذابات الغدر والفرقة، إنما لفرط ما قطّعوا من أعضاء جثث القتلى من أهلي، سحلوهم في شارع الرشيد، صلبوا أخويه في «الشوّاكة».

اللهم بحق جدي، لا توحّد كلمتهم بعد هذا اليوم. اللّهم ارحم المغدورين في قصر الرحاب برحمتك الواسعة. اللّهم زدْ من ظلام غمّتهم. يا اللّه، سلّط عليهم الأوبئة. أنت السميع ومجيب الدعوات. يا اللّه».

مرة أخرى يسود ظلام دامس على الخشبة، إلاّ من بقعة ضوء شحيحة على صاحبة الدعاء المُستجاب، والغريب في الأمر أنها كانت تقرأ الدعاء بطريقة مستفزة للحواس. توقعت أن العقاب الإلهي سينزل علينا مباشرة في رحاب القاعة.

تدريجياً تعود إنارة «فيضية» خفيفة إلى فضاء المسرح من جديد، وفي تلك اللحظة يتحرك «المؤدي الجزار» يدور حول نفسه كدورة قمر محاصر بين كرتين أرضيتين. بيده بندقية من خشب. مترنّحاً تعباً يذكّرني بشخصية ماكبث في الدراما الشكسبيرية، يتفادى الصوت الهادر الذي يحاول أن يخرم أذنيه، يدور حول نفسه محدّقاً بشظايا الدعاء وهي تنزل عليه من سقف المسرح. حتى ارتخت قدماه وباتتاً لا تقويان على حمله.

فجأة يسقط في حضن الممثلة. واضعاً رأسه في حجرها ليتلافى مطارق الصداع في رأسه: «الأشباح البيض، تحاصرني، كلما أغمضت عينيّ أجدها تلاحقني، أين باب الهرب؟ ما من أحد يأخذ مجدي وتاريخي ويمنحني الراحة الأبدية». ما قاله الجزار.

يشكو من صداع تاريخي هائل، ولم تزل طعنات الدعاء تلاحقه بقوة. هزّني هذا المشهد لدقة بلوغ المشاعر ذروتها مع بلاغة أداء جسده.

ذو الرائحة الكريهة نطق بكلمة «اللّه» تعجباً، وقد أظهر تأثره بتدفق الأداء الخارق للممثل الجزار حينما تألق في حوار الشعور بالإثم. الأستاذة سعاد بديوي كانت تتابع وتسجِّل ملاحظاتها وهي تنتحب، كدت أسمع حشرجة صوتها.

عندما قهقهت الممثلة بين نوبة من ضحك وأخرى من بكاء بطعم العلقم أثناء حوارها التالي، بكى الولد بطريقة تذكِّرني ببكاء صبي مفجوع بأمه:

ـ لويش يا عراقيين لويش.. ها؟؟

تنزل دمعة سجّيلية أخرى من فضاء المسرح تشق طريقها إلى رؤوس الجوقة وهم يتكوَّرون في العمق، خلفهم ستارة بيضاء، حيث نصبَ مصممِ الإنارة أجهزة تعكس ظلالهم عليها مستخدماً الطريقة التقليدية في إحياء مسرح خيال الظل، ليتحوَّلوا إلى لوحة أشباح يفرُّون من الجحيم المنتظر. لوحة جمالية لدراما جسدية هائلة الأناقة:

ـ لويش عذبتوا أخويه؟؟

تتحرك جوقة الأجساد العارية هاربة إلى أقصى يمين المسرح بسرعة لتخلق التوازن مع كتلة الجزار والممثلة، لتشكّل كتلة أخرى أكثر تكوُّراً في التحام الأجساد. كان الرعب واضحاً في عيونهم وخوفهم من الإصابة بشظايا الدعاء، وبإشارة من المخرج الذي يتابع خلق هذا التوازن الجمالي بين كتلة الجوقة وكتلة الأميرة وجزارها:

ـ ستوب. أكثر من مرة قلت لكِ تفاعلي أكثر مع الحالة، البكاء أثناء الحوار يظهرك في حالة من نشاز. أريد بكاءً فنياً. فقد سمعت قهقهة وضحكاً وليس بكاءً مسرحياً.

ـ أوكي.

ـ كيو

تنطق الممثلة بحوارها في اللّهجة الشعبية العراقية من جديد:

شنو سوالكم؟

تسقط دمعتان ليزريتان تتعانقان على القماشة البيضاء، يرسمهما مسار الضوء المعلق في سقف المسرح، يحدد انعكاسهما على لوحة الأجساد المتراصة لجوقة الأجساد:

ـ لويش فيصل العريس تسوون بيه هيجي؟ مثل جدّي الحسين سويتو بيه؟ نحن بنات الرسول، لويش؟

تتحرك بهدوء كومة الأجساد المتراصة برعب متجسد مع مسار بقعة الضوء، لتنفلق إلى ثلاث دمعات أخرى وسط المسرح، يرفعن أكفهن في الدعاء فتعكس الستارة البيضاء أكف الجوقة بتضرع واضح نحو السماء، بينما الأصبع المقطوع يقف أمامهم بتجلّد. وحسب تأويلي المبكر للمشهد، إن هذا الأصبع هو للأمير عبد الإله المغدور مثلما تخبرنا الحادثة التاريخية الشهيرة.

ثلاث دمعات يرددن (أين أختي) بنغم من مقام صبا، لتعود مقطوعة الراحل جميل بشير الذي يكلكل في دندنة تتلاشى تدريجياً مع حوار الممثلة:

ـ وين قبر أختي وين قبر أخويه؟ هل نستاهل ما صار بينه؟ ما أقدر أغفر للعراقيين لا... لا ما أقدر، اللّه وحده يغفر الذنوب.

تذوب الإنارة تدريجياً لتنتهي إلى ظلام. صفّق المخرج وتبعه رئيس القسم الأقرع. تبعهما الرجل المسؤول بالتصفيق، لتعود رائحة فمه الكريهة للانبعاث من جديد في الفضاء، بعد أن كتم أنفاسه طيلة المشهد.

ـ ستوب.

* * *

3

مشهد الصعقة

من جديد تنفتح الستارة بعد ظلام ثقيل في مشهد آخر، يبدو أنه مشهد الصعقة المرتقب والذي تحدث عنه المخرج كثيراً. عبثت الستارة القطيفية في حلقة حبل المشنقة في عمق المسرح خلف الستارة البيضاء، فراح الحبل يترنح كالبندول في الهواء.

يعود الممثل الجزَّار في أقصى يسار المسرح بملابس خاكية مهلهلة وبيده بندقيته الخشبية، بينما تأخذ الجوقة مكانها في أقصى اليمين تتبرقع بلطخة ضوء أحمر، فيتحول بياض ملابسهم الفضفاضة إلى لون الأرجوان. لم أُحصِ عدد أفراد الجوقة، لقد فاتني ذلك، ولكني كنت أميّز بدقة بشاعة الرعب الذي يظهر في وجوه الثلاثة الذين يقفون في الصف الأول من تشكيل الجوقة المرسوم بدقة التعابير. كانت سمة الرؤوس المحلوقة والعيون المُبحلقة في الفراغ تمثيلاً بارعاً للفزع الآدمي، فتجسّد ذلك الرعب في فضاء القاعة.

يقترب الجزَّار على إيقاع صوت الأميرة، وهي تتوسل به ألاّ يتقدم أكثر والجوقة تتقلص في تكوينها، كأنها تتّحد في جسد واحد. يتحرك كالثمل الخدران، يرفع بندقيته ويسحب أقسامها بحركة تعبيرية واضحة، ثم يلتف خلف جوقة الأجساد المرعوبة منه. تنطلق منه التكبيرة الأولى، «اللّه أكبر» فيتردد صدى صيحة عظيمة منعكسة من سماعات القاعة بعشرات التكبيرات المتداخلة.

تتراص الجوقة أكثر وتلتحم بتكوين جديد، يصرخ بهم مرة أخرى بـ«اللّه أكبر». مع كل رشقة، تسّاقط على المسرح آلاف التكبيرات كالحلوى، ثم تنهار الجوقة وتخر إلى الأرض، ليتغير تكوين التشكيلة وتنفتح الحلقة المغلقة. إنه مشهد مستفز فعلاً.

ـ ستوب. يطلقها المخرج صيحة عظيمة، حسبتها للوهلة الأولى تكبيرة أخرى ضد الحضور. الحمد للّه توقف الأداء. نهضت الجوقة تنفض الغبار بانتظار الملاحظات:

ـ زملائي علينا ضبط الإيقاع العام بدقة. بين حساب الحركات وبين موقعها مع التشكيل الجسدي والتكبيرات. اللّه تعالى ليس تكبيرة رعب. عليكم أن تظهروا الرعب في وجوهكم مع فعل الرمي وليس مع التكبيرة.

تدخّل رئيس القسم الأقرع قائلاً:

ـ أنا أقترح إلغاء التكبيرات، خوفاً من تأويلها السلبي وإسقاطها على واقعنا اليومي، بصراحة لا أتحمّل المسائلة من الجهات الأمنية. كان يتحدث وهو يلتفت إلى الست سعاد بديوي بابتسامة ماكرة.

بالنسبة لي شخصياً تعرَّضت إلى صعقة عنيفة جراء هذه المشهد والمشاهد المتتالية التي جرت أمام ناظريّ. أبقتني متسمّراً في مكاني، كالناجي من صعقة كهرباء مميتة، متلذِّذا برعشة جسدي وانتصاب زغب جلدي.

كان مشهد الصعقة، جمالياً بسحره، ومخلاً للحواس بتحريكه الراكد من سلّة أشواك التاريخ، ثم الإطاحة جملة وتفصيلاً بمسلماتها الراكدة من وجهة نظري. حيث أدرك المخرج الشاب لمهمته في تعامله الحسّي مع منطقة الجسد الواحد وعلاقته مع الكتلة الجسدية، مثلما هو تجسيده الرائع لثنائية الأصبع والدمعة. أدركت أن الفعالية المسرحية الجديدة هي ثورة باطنية على المناهج الجاهزة والكلاسيكية للفن المسرحي.

راح المخرج يراجع مع الممثلة الشابة «ميسون الكيلاني» بعض الأخطاء النحوية في اللفظ اللساني والوقوف على الإعراب الصحيح وضبطها وتطبيق قاعدة «سكّن تسلم» لمخاتلة اللغة، حتى حلول ليلة العرض المرتقبة. تقدمت الست سعاد إلى المنصة واقتربت من المخرج رغم الأزمة العاطفية لتدلي بجملة ملاحظاتها.

أما الممثل ياسر عبد اللّه فقد ظهر من خلف الستارة ليخاطب المخرج نورس:

ـ هل استعد لمشهد إعدام جميل قره تبي؟

ـ أفضّل أن نأخذ استراحة، ونستمع إلى ملاحظات الست.

للسؤال نكهة المعرفة وشغفها: كيف تفترش سليلة العرش الأرضَ بعد تلك السنين؟ كيف تضع التراب على رأسها؟ كيف تبكي بطريقة جعلتني أنخلع من مكاني؟ لا جواب.

لا أعرف بالضبط من كتب هذا النص المسرحي، ولكن بعد اللقاء المثير مع «براق الكوني» الذي كان يتطلع لتحرير الجزار من إطاره التاريخي المعروف. أوضح لي أن النص مُعدٌّ عن فكرة الروائي المغمور المرحوم «عماد الآغا» نفسه. ولهذا السبب تمَّ استدعائي لمواكبة وتنقيح المادة التاريخية على وفق رواية الآغا ولهذا السبب تمّت دعوتي.

كذلك أعلمني بالكلمة المقتضبة التي سيضعها المؤلف على ورقة التعريف بكادر العمل. لا أعرف إن كانت حقيقية أم متخيلة مستوحاة من فكرة المسرحية حيث جاء فيها:

«*لم أحصِ عدد الكبار الذين صلبوا في تاريخ بغداد. التاريخ يكذب ألف مرة، لكنه لا بد أن يصدق مرة واحدة. أما أن يزيد عددهم أو ينقصهم إلى حد النفي*

المطلق. المصلوبون والمحروقون والمعدومون ومقطعو الأوصال من جميل قره تبي حتى الوقت الحالي. هم *خرزات في مسبحة تاريخ بغداد.* تم حذفهم من عيون *ينابيع الكتب في لحظة غش وتمويه رهيبتين، مع توقيت مجحف من طيش الزمن السائل المؤلف عماد الآغا».*

صدمة أخرى أن يحقق المغمور ما عجز عنه طوال حياته الأدبية، تصل به وقاحة البلاغة المغرية أن يكتب هذا الكلام الخطير في مماته، هذا مستحيل. قلت للممثل:

ـ هل أنت متأكد أن هذه الكلمة للمرحوم المغمور؟

ـ نعم أستاذ. متأكد تماماً.

ـ وهل كتبها قبل مماته أم بعده؟

ـ هل يكتب الكاتب بعد مماته؟ المخرج نورس هو من أصرّ على وضعها في ورقة التعريف وسيتم طباعتها وتوزيعها في ليلة العرض.

صُدِمت أيضاً بمستوى هؤلاء الشباب لوعيهم العميق بقراءة تاريخ بغداد بصورة مختلفة. ثم لماذا لم تظهر عبقرية المغمور إلاّ بعد انقراضه؟ في هذه الظروف الملتبسة التي يختلط فيها الإبداع الخارق مع الجنون الحارق. أمر عجيب!؟ هل كان موهوماً بتحقيق أكذوبة خلود لاسمه بعد انقراضه الواقعي المجحف؟ ربما حرّر هذه الفكرة، كان دائخاً في مجده الأدبي. هو واهم في كلتا الحالتين، فلا خلود ولا هم يحزنون وفق أبجدية تجربتي. الموت هو الحقيقة الوحيدة التي تنتصر في النهاية.

الناس حتى بعد وفاته ما زالت تسميه بـ«المغمور». ماذا يضرّهم لو استبدلوا مفردة المغمور بالمغفور له؟ كل ما في الأمر يتم تبديل حرف الميم بحرف الفاء،

لتنتهي تعاسة الألقاب / الأقدار. ربما سترتاح عظامه من التقافز في قبره كلما ذكره أحدهم بـ«المغمور».

قبل الخروج من القاعة أدلت الست سعاد بجملة اعتراضات، كان منها تكرار التكبيرات وأعتبرها إساءة للذات الإلهية، وتقترح حجبها من فم القاتل، مؤيدة بذلك مقترح رئيس القسم، كذلك سجلت ملاحظات أخرى، تشترط حجبها مقابل الموافقة على السلامة الفكرية للعرض. تبيّن فيما بعد أنها المسؤولة الأمنية لمعهد الفنون.

ينهض ذو الرائحة الكريهة ليحيي الممثلين ويصافح المخرج، صمّ على كفه فادار إبهامه بحركة تدل على إعجابه، وإشارة أخرى هز بها رأسه لإجازة العرض من الناحية الفنية. غادر القاعة ولم يبق منه سوى الأثر الذي خلفته رائحة فمه الكريهة.

* * *

الباب الثاني

الفصل الأول

1

رواية المغمور «الملك في رحابه»

في مساء يومها الأول 13 تموز

تكشف العين الطائرة في أول رحلتها الفضائية نحو سماء قصر الرحاب، أنه في ذلك المساء لم تعد الأعشاش المعلَّقة آمنة، أو حتى مسكونة في أعلى شجرة الصنوبر العجوز من ذلك اليوم ما قبل الرهيب، إلاّ من واحدة داخل عش القش الصغير. فاختة يتيمة كانت مشغولة في مغازلة بيضتها، مَنْ يعلم، ربما كانت تحلم حينها في تفقيس جنينها بسلام، وفي غمرة الحلم نَسِيَتْ أن تهاجر مع جوقة السرب الحزين الذي هاجر إلى «جسر الخر» القريب قبيل مطلع الفجر الأخير.

مكثَتْ هنا تحرس بيضتها الوحيدة من غدر الزمان، فيما بقية جوقة الفواخت الرماديات السعيدات، ومع كل شجن الأسى لنواحهن المزمن هذا، فقد غادرن أعشاشهنَّ في يوم الفجيعة الوطني في الرابع عشر من تموز. راحت الطيور المغادرة تتأمل المشهد البغدادي من فوق دعامة حديدية عالية ومنفلتة من جسر الخر القريب من القصر. أما سيرة الفواخت السعيدات فلا خوف على مصيرهن في ذلك اليوم التاريخي. إذ قامت المنشدات منهن بترديد النشيد الوطني، فيما الكورس الخلفي يردد مستهلّ النشيد «*يا كوكتي أين أختي*».

مثل كل ساعة غروب يلتقي كل مساء وحيد ابن عباس الزنكي الشاب الأسمر مع رازقية البنت المتبناة رسمياً من قبل العائلة المالكة، وهي العاشقة المتيَّمة

به، صهباء بشعرها الذهبي تنتظر عشيقها ابن الزنكي تحت شجرة الصنوبر في أقصى الحديقة الخلفية للقصر كل يوم. قدم لها ماعوناً من التمر «البرحي»، وقدمت له حرزاً ملفوفاً بقطعة جلد جوزية: «سيحفظك من الشر، شدّه الآن على زندك الأيسر وقبل فوات الأوان».

راحا يتفقدان لحن الفواخت «يا كوكتي» ذلك النغم التقليدي، لكنهما استغربا في ذلك الغروب الموحش لفقدهما لحن النشيد بعد مغادرة السرب المهاجر. لم يبعثن برسائل النذر المشؤوم في حلول الواقعة الأليمة. حتى أصبح اليقين ثابتاً بعدم وجود رسائل وإشارات عن يوم الواقعة لدى البغداديين على اختلاف المشارب سوى انقطاع نشيدهن. العاشقان تحت شجرة الصنوبر العجوز يتبادلان شذرات الحب. كان وحيد ابن الزنكي لا يجيد الحديث مع رازقية سوى أن مشاعره المرتبكة فضحته أمامها. أدرك وحيد بفطنته ما يخبئه له الغد، لكنه لم يخبرها بما كان يفعله الزنكي الأب، عندما لملم حاجياته ووضعها في حقيبته الوحيدة:

ـ رازقية إذا ما حصل شيء في داخل القصر، هل تهربين معي؟

ـ يمّه! اسم اللّه على الملك والأميرات. وحيد لا تذكر هذا الكلام. وين أروح وحيد؟

ـ رازقية القصر هذه الأيام مو أمين. هذا ليس كلامي بل أبي من قاله.

ـ لا لا وحيد، اذكر ربك وهو من يحمي الجميع هنا.

غير أن الإشارة الأكثر وضوحاً والمؤكدة فقد كانت من داخل القصر، فقد كان الرجل الأسود «عباس الزنكي» النحيف كقصبة ناي، ذلك الحدائقي المخضرم والذي عاصر الملك غازي بكل صخبه وعبثه. مكث في مكانه مخلصاً للزهور المشعّة مع كل نزق الملك غازي ونوبات جنونه، وبعد رحيله في حادث السير، واصل العمل مع الوصي عبدالإله خال الملك الصغير، لحين بلوغ الملك الصغير

فيصل الثاني ليستلم التاج من خاله في عام 1953 عندما تمَّ تتويجه رسمياً. تستكمل الحياة دورتها في حلقة انتقال التاج والزنكي يشهدها كلها. كان يعمل بجد في حديقتي القصر الأمامية والخلفية. الحارس الأمين للزهور والمدرك لمزاجها ونوبات شبقها، مثلما كان مدركاً حذراً لذبولها.

يتابع نبتة الرازقي في آخر أيام تبرعمها، يضع لها ظلاً من سعف النخيل حتى لا تحرقها شمس تموز الرهيبة، وإذا ما مالت أغصانها قليلاً ستغضب منه، بل تنزعج الأميرة هيام كثيراً وتستشيط غضباً. في أول الليل ستفتقد ضوع الزهور المترفة، لذلك سرعان ما يُستدعى لها «الزنكي» لغرفتها لتقريعه في حالة انكماش أو موت واحدة من زهور موسمية. كان الرجل شديد الحذر من الأميرة هيام، لئلا تكرر قذفه بالحذاء، إذا ما ذبلت واحدة من زهورها كما حدث في العام الماضي، وتنفِّذ وعدها بطرده. ظل خجولاً من زوجته كلما شاهدها تصلح في سلك رفيع حذاءه المعطوب ويتذكَّر لحظة الإهانة. الابن كان يدرك بفطرته ما ينوي عليه الرجل الزنكي.

العين الطائرة لا تدرك تلك الرائحة العطرة للورود، لكنها تدرك لوعة وعذاب «عباس الزنكي» وقلقه من ذبول أو احتراق الأزهار الجهنمية والملكية. كم تمنى أن يذبل وينتهي هو أو أحد أولاده أو حتى زوجته ولا تذبل ورود الأميرة؟

بدأت رائحة غريبة لها طعم الغدر تتسلل إلى بهو القصر قبل اليوم العاصف، أدركها الرجل الحدائقي وتلك هي الإشارة، وقد ظنها في بادئ الأمر أنها رائحة غبار الطلع للنخيل، لكنه أدرك حقيقة رائحة الغدر وطعمه اللذيذ وإشفاء الغليل، فراح يلملم حاجياته في كيس القماش، ثم أخذه ووضعه على حافة السياج الخلفي، فثمة من كان يخطط بالسر لاقتحام قصر الرحاب في الغد.

استطاع العقيد عبد السلام بحركة خبيثة من استمالة الزنكي الأب للوصول إلى

عمق قصر الرحاب. في البدء فاتح العقيد الرجل الزنكي للعمل كحدائقي في حديقة بيته في «حي العميان» بمنطقة الأعظمية، بعد أن أغراه بمبلغ من المال، لم يحلم به مطلقاً ولا يستطيع عدّه، على أن يأتي يومين في الأسبوع فقط الى حديقة بيت العقيد. وافق الزنكي وراح يتسلل من القصر ويذهب إلى بيته. يتعرف داخل البيت على «أم أحمد» زوجة العقيد وبنتيه، تقدم له الشاي والكعك، بعد ساعة عمل في قص الحشائش وتكريب النخلتين السامقتين وهو يغني آغانيه الجنوبية. تعمقّت العلاقة بعد الزاد والملح بينهما. في يوماً ما طلب منه العقيد خدمة وطنية شاملة لإنقاذ الفقراء من أمثاله. حدثه كثيراً عن سوء النظام الملكي وطغيانه على حساب الفقراء، وسوف يتم تكريم الزنكي، مقابل أن يقوم بربط السلك المزدوج والمار في الحديقة الخلفية بجهاز البرقيات الموضوع في غرفة صغيرة في آخر الرواق. قال له: «السلك الأحمر على الأحمر والأزرق مع الأزرق فقط». وافق الزنكي على هذه المهمة مقابل الدنانير الملكية التي دسّها في جيب دشداشته، والغريب أن الملك فيصل الثاني كان ينط من صورته المرسومة على الدنانير الورقية التي قبضها وتلتف أصابع الملك الصغير على رقبة الزنكي. يفز الزنكي من حلم يقظته هذا، يهز رأسه ليشم الدنانير بعمق، فيزيح الأصابع عن رقبته. استطاع ربط السلك وأصبحت كل برقيات المملكة السرية في جيب العقيد.

وضع الزنكي كيسه على سياج القصر، إذن هو الإشارة السرية الأولى، ولم تكن رسائل التحذير التي وصلت إلى قادة القصر للهجوم المباغت ذات منفعة، فقد اعتاد كبار القادة على مخططات كثيرة للغدر أو محاولات الإطاحة الفاشلة بالكتمان هذه المرة. كانت هي المرة الأولى التي يتذوق بها الزنكي طعم الخيانة اللذيذ، كذلك منّى نفسه للثأر من الأميرة التي ضربته بالحذاء أمام زوجته.

* * *

2

تقشير الرقي

في تلك الليلة التموزية الخانقة صعد البغداديون للنوم كعادتهم إلى سطوح منازلهم الواطئة والمتراصة مع بعضها، لا يسترهم عن أسطح الجيران سوى أسوار الطابوق الواطئة التي لا تحجب حتى مؤخراتهم. يستأنسون بطقس الليل الصيفي المعتاد، حيث تبدأ التهيئة له من ساعة غروب كل يوم صيفي ساخن.

مشهد الليل من أعلى مدينة بغداد يمتلك مقومات طقس البساطة الموحية لواحة الجمال الفطري، أو ربما تستكمل حلقة مفقودة لصورة تذكارية بالأسود والأبيض.

سرعان ما تطوف العين بأريحية لتلتقط مشاجرة كلامية بين حارس ليلي عجوز قدِم من هور العمارة، والأفندي «جميل القره تبي» الموظف في دائرة البريد والبرق. كان الأفندي سكراناً من طين يطوّح بأغنية «بطّة وصدّتني. تكسر جناحي ليش»، ثم يستبدلها حين يقترب من الحارس بـ«بستة... الليلة حلوة وسعيدة آآآه سعيدة»، مع شهقة وسط مواله المتقطع مستفزاً حفيظة الحارس بسؤال عبثي عن مكان بيتهم مثل كل ليلة: «عمو حارس وين بيته؟ هو في هذا الزقاق لكن أي بيت لا أعرف».

يكتم الحارس غضبه خوفاً من هياج أفندي الحكومة الذي اعتاد أن يتيّه موقع بيته في كل ليلة:

ـ آغاتي عمو.. الأزقة ضيقة والبيوت متشابهة. بيتنا قرب بيت الرقّاصة دلال الحمصية.

في تلك اللحظة تنزل دلال من سيارة «الفورد» بلباس المهنة الخلاعي لتتجه مسرعة نحو بيت الراقصات القريب من جامع العاقولي في الحيدر خانة بعد إنهاء وصلتها في ملهى «نزهة البدور» على جادة ساحة الميدان القريبة. يستدل «القره تبي» على بيته من خلالها وهي تغيب مسرعة في ظلام الزقاق، ولم يبق منها سوى عطرها، يستدل به الأفندي على مكان بيته ويودع الحارس بإشارة من يده.

كان هذا الحارس متضايقاً من «الساعة السوداء» التي يأتي بها جميل أفندي في آخر الليل، أحياناً وفي ليال عدّة يجبر الحارس المسكين على حمله فوق كتفيه والوصول به إلى شباك غرفة العروس في أول زقاق العاقولية. مرّت أكثر من سنة وما زال جميل يسمّي هذا الشباك بشباك العروس. ينحني الحارس مضطراً ويصعد جميل السكران فوق كتفيه ليهمس للحارس بحكاية غريبة عما يحدث في غرفة العروس مع زوجها. يصف له ما يحدث داخل غرفة العروس: «الآن فتحت الكنتور، أخرجت لباس النوم. خلعت ملابس البيت. الرجل جالس أراه ينتظر على السرير. لبست ثوب النوم الرمّاني الضيق. ها... هربت منه، تقهقه، الآن رفسته بفخذها الأبيض. قفز فوقها الآن. استسلمت له مؤخراً. آه تعانقا، قفزت وجلست فوقه...». وهكذا موال كل ليلة. مرّ على هذا الحال فترة من الزمن وتقوّس ظهر الحارس من ثقل جسد القره تبي، حتى اكتشف الحارس بالصدفة يوماً ما أنَّ العروس قد انتقلت من هذه الغرفة في الأشهر الأولى بعد طلاقها من زوجها، وما حكايات جميل إلا محض خيال سكران الطين هذا. وما كان من الحارس إلا الاحتجاج عليه، عندما قدم نُقِلا من هذه الحارة إلى منطقة أخرى من بغداد قريباً من جسر الخر. ليشهد ما حدث فعلياً في الغد، أي في اليوم الرابع عشر من تموز وما ينتظر البلد.

بينما ظل القره تبي ضائعاً في ليل بغداد الراقص على الواحدة ونصف. لا يهمّ جميل إلى أين سينتهي به المطاف، ينام آخر الليل في أي مكان قريب تقع عيناه عليه، أو في أي زقاق مظلم متوسداً سدارته، فدلال الحمصية لم تعد تأتي إلى بيت الراقصات بعد توفيقها. غاب الحارس ولم يأت في الليل، ولا من أحد يحمله ليتسلق الشبابيك.

في النهار يتابع أفندي جميل جريدة الزوراء في ساعات العمل ليسجل بورقة صغيرة حركة المراقص والراقصات والإعلانات وبورصة الوافدات منهنّ إلى البلد وتوقيت الوصلات. يتابع حركة فرقة «بدرية السواس»، التي تبدأ من الغد بممارسة أعمالها الفنية ببرنامجها الجديد مع وجوه شامية ومصرية جديدة. ثم يؤشر بقلمه الباركر دائرة عن إعلان الراقصة «بديعة عطش» ووصلتها الجديدة في الساعة العاشرة في ملهى الباشوات. كانت تستقطب الجمهور وتسلب عقولهم، حتى قال الجواهري فيها شعراً في مطلع قصيدته:

هــزّي بـنـصـفـك واتــرِكــي نـصـفـاً لا تــحــذري لـقـوامـك الـقـصـفـا

أبـديـعـة أنـــت ولأنـــت مقبلة تـسـتـجـمـعـيـن الـلـطـف والـظـرفـا

طيف واسع من شريحة الراقصات الملهمات لليل بغداد بأنسه ومجونه، رحلو «المطيوزة» كما يسميها الأفندي، ذات الأرداف الراجفة التي جعلته يهبها نصف مرتبه في الشهر المنصرم، أو سلطانة يوسف ذات الصدر الجبلي العالي، أو مطربة الليل صديقة الملاية بصوتها الملائي وهي تنشد «الفندي... الفندي عيوني الأفندي، اللّه يخلي صبري، صندوق أمين البصرة». تراه مسحوراً وحالما بجليلة العراقية ذات العيون الساحرة، أو خديجة علي الآذرية وسليمة مردخاي. الأخيرة سمحت لها السلطات أن تكلّل سيارتها الخاصة بعلم صغير يرفرف على مقدمتها بأمر من سلطة الباشا.

بعد تدفق فوج من الراقصات الشاميات وكتيبة من المصريات إلى العمل في بغداد لإشاعة موجة جديدة من الحداثة في الرقص الشرقي على حساب الرقص العراقي، أصبحت حياة الليل أكثر جذباً لجميل أفندي قره تبي.

كان صائعاً منغمساً في المجون واللهو بعيداً عن الهم السياسي، مستغرقاً في متعة النظر إلى آيات الجمال وملهمات العشق والأثداء الكبيرة والأرداف العالية والمغرية، تلك غايته من الحياة وهدفه من اللذة. لا يهمه مطلقاً الزواج والاستقرار فالملاهي تكفيه متعة وخدراً وخيالاً.

من جانب آخر تلتقط العين الطائرة ذاتها سيارة جيب عسكرية تمرق مسرعة لتمزق غشاء بكارة الليل وسكونه الوديع. ثمة هاجس خفي لحياة الليل في بغداد، فذلك السكون مقلق للغاية، وربما ستندثر تلك الوداعة في الغد تحت أقدام البساطيل العسكرية الثقيلة، والضحك المتواصل كان مدعاة خوف، ولا من إشارات لنذر الشؤم تلوح في الأفق خارج القصر، سوى نشيد الفواخت.

في أول إشارات بلوغ الليل أتت من صوت المؤذن وهو يرفع من جامع العاقولي آذانه لصلاة المغرب، ثم يقرأ دعاء ملفقاً لحفظ حياة الملك والمملكة في سابقة لم يألفها البغادة.

كانت تكبيرة الآذان الأولى كافية لصعود صبايا بغداد بنفانيف مزركشة وموشحة بالدانتيلا لرش السطوح في الماء وتبريد تربتها الفائرة، لتبادل الحكايات فيما بينهن من خلف الأسيجة. يفتحن طيّات الأفرشة لطرد الحرارة منها وبقايا أحلام الصبيان ومن نتف الشبق المحبوس تحت المخدات، ومع أول عتمة الظلام يصعد الصغار يناغون النجوم ويعدّون ما يسّاقط منها في أول الليل. تصعد الكنّات المكتنزات بشحوم الراحة بثياب من قماش صيفي بارد «الكودري المنقط بالأحمر» غالباً، «موديل السنة» يسميه البزاز صادق آزدي بعد أن عدّل من وضع

كشيدته الملونة بـ«قماش دم الشهيد». أي شهيد قصده؟ لا أحد يعرف لغاية يومنا هذا.

تصعد الزوجات المترعات بالراحة يرتدين الساتان الناعم المقدود على أجسامهن، وأول ما يقمن به تقشير الرقّي الأحمر ووضعه في صوانٍ على الأسيجة، ثم ملء جرار الماء لتبريده. بعد ذلك تصعد الأمهاتَ والعجائز الجدات خلفهن و«مهفات» الخوص و«طاسات النشوق» بأيديهن.

يبدأ طقس الليل الفعلي ولا ينتهي بارتقاء الآباء المتعبين من كد نهارات طويلة بدشاديش «الهمايون الأبيض أو الململ البارد»، على مهل يرتقون السلالم لتكتمل السعادة على السطوح بأبسط صورها قريباً من النجوم.

يتمدّدون على أسرّة جرّيد النخيل أو تخوت الخشب التي غالباً ما تصدر صريرها لإعلان سلطة الوجود الأبوي، يتخلَّصون من ألبستهم الداخلية الطويلة ويضعون ساقاً على ساق، يستأنسون طرباً لسماع قرّاء المقام يطوِّحون بأصواتهم البعيدة عن نهر دجلة، حينما تصدح أصواتهم بأغنية «واقف على المسعودي أمان أمان». الأمن كان نشيدهم الأزلي عبر مروياتهم ولهوهم وتغزلهم في الغلمان مجسّداً في مقاماتهم.

لا ينتهي الليل بتدفق الحكايات من الجدَّات وسحرها في عيون الصغار ودهشتهم. حكايات عن وحشة السعالي في الأقبية المظلمة وعذاباتها، وأخرى عن قصص «الطناطلة» الخراتيت يعانون من التوحّد، حكايات عن الوحش المصاب بأنفلونزا حادة، وأخرى عن وحوش لطفاء بعين واحدة، حكايات تصيب بالخدر إلى لحظة النوم وتنسيهم لسعات البق. في أسفل الزقاق كان شبح الطنطل هو جميل القره تبي ذاته ملطخاً في الأوحال بوجه مدمّى بعد معركة دامية خسرها في الملهى.

تتوقف الحكايات رويداً رويداً وتعاود الوحوش كرّتها في مساء اليوم التالي. أما آخر المطاف في ليلة بغدادية كهذه، عندما تبدأ عمليات الجماع الجماعية في وقت واحد تقريباً كتمرين لتنشيط الحواس الخاملة، فالناظر من الأعلى يشاهد حركات مائجة للناموسيات واهتزاز «أسرة الجريد» ممزوجة بأصواتهم وآهات مكبوتة من صدورهم. أما القره تبي فيستمع مستأنساً بأصوات «الطحير» وهو ممدد على أرض الزقاق قريباً من بيته الذي لم يستدل عليه إلا في الفجر بعد تبخر الخمرة من رأسه.

يستدعي البغدادي المتلبس بـ«بغدادية الداد» زوجته وبـ«بسبسة» حادة يصدرها بنفخة من فمه، تفهمها الزوجة فترتقي السرير لتدخل تحت مكعب الناموسية البيضاء. تفتح ساقيها بآلية ميكانيكية وتعلن جاهزيتها بالطاعة التامة. يعض دشداشته وينهي مهمته بسرعة وإتقان من دون حساب لإنهاء مهمة الزوجة وبلوغها اللذة.

لا شيء آخر ينذر بالخطر المحدق لتلك الليلة الليلاء، فما زال «المقامجية» الذين أدمنوا كرع العرق المستكي بطاسات صغيرة مخففين تركيزه بماء النهر يصدحون بتناوب منتظم قصائد «علي بن الجهم» و«ابن زريق البغدادي» وغيرهم. حُرّاس الليل يقتلون السهر بتدخين سكائر «غازي» الملكية والحارقة للحناجر، خائفين من السكارى وشقاواتهم، والليل كما هو في أوله.

ترصد العين الطائرة في أولى طباشير غبش اليوم الجديد بعض تجمعات بغدادية هنا أو هناك في الأزقة الضيقة والحارات، ينسجون التنبؤات لسماعهم صوت الرمي القريب، عما يحدث في تلك الساعة، كانت أغلب الروايات تختلط بمخيال شعبي وبطولات زائفة.

في صباح اليوم الملكي الأخير، إذ ينزل الآباء والأمهات قبل الموعد المُحدّد

للنزول المعتاد من السطوح مع أول لحظات الفجر الأولى. ثمة إطلاقات تتزاحم فتتصادم في الفضاء أو ربما يخطف أزيزها الانتباه، مع أصوات سيارات ثقيلة للعسكر تمر في الشوارع، حتى الأطفال الذين تبوّلوا في أفرشتهم ينزلون وبقايا النوم على عيونهم، يهرعون إلى الأزقة حيث يتجمع الآباء وتتكور النسوة بحلقات القيل والقال، قبيل فترة الإفطار الصباحية، يتناقلون خبر انقلاب عسكري بهمس وريبة.

وداعاً لرتابة الحياة البسيطة ومرحى بحياة المفاجآت المتلاحقة بعد هذه الساعة المبكرة. ينهض القره تبي متحسساً ورم الكدمات على وجهه المنتفخ وعينيه المزرقّتين، يعصر ذاكرته عصراً ليتذكر ما حدث فلا يستطيع. وجد نفسه نائماً في أرض الزقاق قريباً من عتبة بيت الراقصة دلال الحمصي ولا أثر لحارس الليل. أما قراء المقام، منشدو المربعات البغدادية، مربو الديكة الهراتية وشريحة الراقصات النزيهات، هؤلاء غير معنيين فيما يحدث تماماً، فعندما يصحو القسم الأكبر من البغادة، يذهبون إلى النوم بعد سهر الليل الطويل، لا يهمّهم إلاّ بقاء طقس التخوت الشرقية في المقاهي أو على ضفاف دجلة وأعمار الملاهي وترميم مسارحها، فلا الملكية تنفع ولا الجمهورية الجديدة تفيد، سوى يا ليل ويا عين وسماعي لطق الإصبعتين يا ليل يا عين.

البغداديون لا يهمهم ما يدور في خفاء دهاليز السياسة، لكنَّ سبب انزعاجهم الحقيقي هو في شكواهم المستمر من حرّ هذا العام، وهجوم غير مسبوق للبق الرمادي غير عليهم. كانت غايتهم التخلص من لسعاته عندما يتحايل ليدخل ناموسيات الليل بحيَل ملتوية. يزعم كبار السن منهم أن هذا البق الخبيث استوردته «حكومة الباشا» لتشغل الناس بالحك، حتى أثناء جماع الرجال مع زوجاتهم فوق السطوح، فهم لا ينقطعون عن الهرش أثناء الممارسة. يستيقظون في الغبش الفضي يفحصون أثر اللسع وما يخلفه من

بقع حمر على جلودهم وأفخاذ زوجاتهم، ثم يذهبون في حال سبيلهم نحو أعمالهم تاركين هموم الليل إلى الليل.

ثمة غيوم بيض أخرى تتمَّ المشهد من السماء، وهي تداعب خلسة وهج الشمس الغاضبة على الوجه المدمّى لجميل القره تبي، وما زال يبحث عن سدارته فلا يجد لها أثراً. كلما حاولت حجب الشمس تفشل في الصمود أمام الوهج الحارق، حتى حانت الساعة الأخيرة لتتوارى هاربة نحو مصيرها المجهول.

* * *

3

سطور محذوفة من حياة القره تبي

((المحذوف من أحداث حياة الأفندي جميل القره تبي كثيرة، آثرت على نفسي الإيفاء للرجل الذي راح ضحية الثورة، عندما عملت على محاكمته كخائن ليتمّ تنفيذ الإعدام به. تجاهل الكاتب عماد الآغا فصلاً مهمّاً من حياته، لكني سأدخله في تفاصيل الروي كشاهد أمين عن حياة الأفندي في تلك الفترة. تطبيقاً لصفتي كمحرر أدبي)).

خالد الشيخ

يكنّى سيد النوافذ في العهد الجمهوري الذي لم يعش به طويلاً، لكن سيرته بقيت على موائد الليل في مراقص ساحة الميدان، يكنَّى أيضاً بملك الشبابيك في أيام الملكية. أعتقد أن كلا المصطلحين لا يدلّان دلالة واضحة على شخصيته الغامضة.

في اليوم الذي تمّت ترقيته إلى درجة ملاحظ أول في السلم الإداري الملكي، صادف أنه ذهب إلى بيت العقيد عبد السلام في الأعظمية، لإتمام صفقة سرقة البرقيات الواردة والصادرة من القصر.

اعترف القره تبي في التحقيق الأولي بأنه رجل تافه أصغر بكثير من عقدة التآمر على نظام الحكم. تافه منغمس في الملذات الشخصية فقط، ولا يهمه

شكل نظام الحكم مطلقاً ولا يعرف ماذا تعني الإدانة. يهتم بالنظر إلى مؤخرة راقصته المفضلة «رحلو» أكثر من النظر لمقدمة الأحداث المتلاحقة أو عواقبها.

جاء ذلك في معرض دفاعه عن نفسه في التحقيق الابتدائي، وعندما صعد إلى المحكمة في أولى الجلسات السرية، انهار الرجل في نوبة بكاء وعويل ليخرج كلياً من إطار شخصيته المغلقة، خاصة بعد سماعه من احتمال إدانته بالخيانة العظمى. في البداية لم يعرف معنى الخيانة العظمى وماذا ستؤول هذه الإدانة في سلك المحاكم الثورية، لولا تذكير المدعي العام بجسامة الإدانة التي تؤدي إلى منصة الإعدام.

كانت الحياة بالنسبة له لا تتعدى سوى اقتطاف لذة عابرة من شباك يطل على زوجين يمارسان المصارعة والانبطاح على الأرض أو على السرير، أو التمعن وإطلاق الخيال إلى أقصاه في جسد راقصته وهي تتمايل وتهز عضلتي المؤخرة بالتعاقب على أنغام «خدري الشاي خدري»، ثم ينهض بعد أن تدبّ الخمرة، يتصاعد بخار الخيال ممزوجاً بترياق الخمرة ليراقص المغنية على الخشبة، ولا يهمه مطلقاً قذفه بكعب قنينة عرق خالٍ ينسف قحفته، ثم يرفعوه الخدم ويقذونه خارج الملهى.

ماتت أمه ولم تتحقق أمنيتها في زواج ابنها الوحيد. حاولت في إحدى المرات أن تخطب له واحدة تدعى «ابنة العجمي» تسكن في عقد الكولات، شابة جميلة بيضاء مربوعة، لكنه رفضها لسبب غامض.

يبدأ برنامجه اليومي المعتاد في السادسة والنصف صباحاً، عندما يخرج من بيته في منطقة العاقولية في عقر الحيد خانة واضعاً سدارته الفيصلية بشكل مائل على رأسه، مقلداً موضة الشباب في تلك الأيام. يذهب مباشرة إلى سوق التكمكخانة ليفطر بوجبته المفضلة بالكاهي وقيمر العرب مع طبق

خاص من الشيرة. يشرب ثلاثة استكانات من الشاي ليقتل الدسومة العالية مستمعاً لشدو بلبل الإذاعة الذي يعلن في تلك الساعة عن دبيب حركة الحياة في بغداد على إيقاع ربلات الخيل التي تنقل وجهاء وتجار بغداد إلى الشورجة وسيد سلطان علي.

يذهب في حال سبيله ليقتني جريدة الزوراء المفضلة لديه، يطويها ويضعها تحت إبطه، ثم يذهب سيراً على الأقدام ليعبر جسر الوثبة وصولاً إلى دائرة الاتصالات والبرق ويبقى هناك حتى الثانية ظهراً.

بعد الدوام يقطع المسافة ذاتها، لكنه ينعطف على جادة سي وصولاً إلى مطعم باب الآغا ليتناول طبقه المفضل من الرز والفاصوليا واللبن. يذهب إلى قنّه الصغير الذي يشبه البيت ليأخذ قيلولته المعتادة.

في ساعات ما بعد العصر يجلس في مقهى «ملّه جابر» ليشرب الشاي على صوت قارئ المقام رشيد القندرجي أو محمد القبنجي. مع أول ساعات المساء يلتقي صديقه وجاره موسى الشعّار، وهذا هو أقرب المقربين له، ومن الطين ذاتها. يعمل الشعّار في دائرة المراسيم العسكرية داخل البلاط، وتنحصر مهمته في نفخ آلة «التوبة» النحاسية حيث تقع عليه مهمة عزف النشيد الوطني لضيف المملكة. لكنه أبعد لأكثر من مرة عن هذا الموقع لتعدد حالات النشاز التي فعلها بمرور الأيام. ثم يذهب مستعطفاً العقيد طه البارمني آمر الحرس الملكي ويعيده إلى مكانه، بعد أن يتعهد أمامه عن الامتناع عن الصعلكة والسكر الشديد مع صديقه جميل أفندي قره تبي.

ينحدر الأفندي جميل إلى حانة شريف وحداد كي يحتسي أولاً ربع عرق «مستكي» ثم يضيف كأسين آخرين ليقندل مع سريان الخمرة في رأسه، ثم يأتي صديقه موسى الشعّار ليكملا السهر في المراقص.

يتسرب الخوف من جسده وتتبخر التفاهة منه، فيذهب إلى الملاهي ليكمل آخر مشاويره الليلية قبل السطو على شبابيك العرسان وتلك هي المحطة الأخيرة.

بعدما نُقل الحارس الليلي، أقنع جميل صديقه موسى الشعّار في الخوض معه بهذه الهواية الجميلة في تسلق شبابيك غرف العرسان الجدد. كان الأفندي يعمل جردة استطلاع كل يوم تقريباً عن شبابيك جديدة فيها مادة للمشاهدة. وعندما وافق الشعّار على الدخول معه في اللعبة، لم يفكر أن يكون سُلَّماً لصعود الأفندي مكتفياً بسماع رواية الأحداث التي يكون بعضها محض خيال فقط. وعندما طالب باستبدال المهمة لم يوافق قره تبي، وحصل الفراق بينهما إلى الأبد.

هذا الأفندي وتلك سيرته اليومية، فكيف يتهم بالخيانة العظمى ويشنق؟ النظام الملكي كان ينظر له بريبة فأصدر حكم الإعدام بحقه، والجمهوري الجديد وصمه بالخيانة العظمى وأعدمه. حتى الكاتب عماد الآغا طرده من مساحة الرواية. مسكين أنت يا قره تبي)).

* * *

الباب الثالث

ناظور لحياة المغمور

1

يوم سوريالي
تقاطع جامع النداء

ـ أهلا أستاذ خالد؛ تأخرت عليك؟

ـ ليس كثيراً، من أجل المغمور سأتحمل التأخير يا ولد يا كوني.

ـ تأخرت بسبب الاختناق المروي القاتل. بغداد تكاد تنفجر لكثرة السيارات الصفر، أصبحت واحدة من علامات الرعب العراقي الذي يحيط بنا. الأصفر علامة تحذير لوقائع موت تحوم أجنحته في الأفق. لكم تمنيت شطب اللون الأصفر من الحياة. إنه مخيف ويثير حاسة الرعب في رأسي.

ـ لماذا تريد التعرف على المغمور؟

ـ لا تهمني سيرته الذاتية بقدر التعرف على سيرة حمدان العباسي من خلال مخطوطته، فهو المحور الذي يتوجب عليّ دراسته، لأستلهم منه ما ينفع الدور. تلك من وصايا السيد المنذري لإتمام الطقس التماثلي في أحسن صوره. أوصاني شيخي بعدم التبذير في الكلام وسفاهة الأحاديث، كان يؤكد: «العمل سيد والكلام عبد»، التفكير عمل شاق والتكفير من كلام. أرتكن لمناكفة تاريخ الوقيعة في إحساس مجرد، لتأتي بعده استعادة الطقس التماثلي، تلك ستكون محصلة لذلك العمل. أكمل أستاذ خالد، وآسف جداً على المقاطعة.

ـ تعرف أو لا تعرف، ان كلامك هذا يحرجني يا ولد.

ـ لماذا؟

ـ لا أستطيع إدراكه فوراً. أحتاج مزيداً من الوقت لتمثّله ثم إدراكه. ثقافتي بائسة ومعظمها جاءت من عالم القصص والروايات المتخيلة، وأنت ثقافتك من تفكير وتأمل. أحياناً أصفن على تقويضها بالجملة، لكنه ليس للعمر بقية كما يقولون.

كل القصة وما فيها في صباح ذلك اليوم الحزين، كان الطريق إلى بيت المغمور مغلقاً، مع بداية الدوام في ساعته الأولى. ثمة اكتظاظ مخيف فعلاً في الطريق العام المؤدي لبيته. السيارات والمارة والمتسولون والحواجز الأمنية يشكلون انسداداً مرعباً للشوارع الأربعة. وكما تعرف أن هذا الانغلاق يصيب الناس بالإسهال خوفاً من استغلال الزخم البشري، ليحدث تفجير مزدوج أو ثلاثي الأبعاد في سيارتين أو أكثر مع هدية عبوة ناسفة. حتى تحول التفجير شيئاً عادياً ومألوفاً، لكن المشكلة في احتراق الملابس وتقويض الأناقة.

لفتت انتباهي مظاهرة تستعد للانطلاق وسط إحدى الجزرات في تقاطع النداء، زادت من انسداد الشارع المؤدي لبيت المغمور، تحولت إلى العقدة في هذا الانسداد. المظاهرة غريبة بعض الشيء ومثيرة للسخرية، وحسب اللافتات المرفوعة فيها، كانت تخص الفئة القليلة المتبقية من مواليد عام 1960، بعد أن سحقتهم عجلة الحروب المسننة ومطر الانفجارات الأسود وميتات متنوعة أخرى حسب الطلب، يطالبون باعتبار مواليدهم من المواليد المنكوبة، يطالبون بتدويل فوري لقضية مواليدهم المهددة بالانقراض، محاولين بذلك استرداد بعض حقوقهم المغدورة واعتبار ما تبقى منهم شهداء كأقرانهم. كان المارة من الشباب يضحكون ويتهامسون على بقايا هيكلية تلك المواليد من الشيوخ.

ـ إذن إنها بداية ليوم بغدادي سوريالي آخر بامتياز، يا رب! تلك مصيبة ثلاثية بسوريالیتها المركّبة. تفضل أستاذي أكمل.

ـ عندما تجاوزت عقدة جامع النداء، وصلت في تلك الساعة إلى بيت المغمور، فشهدت منظر الوداع الأخير وكان في بدايته، بعد أن أصبح موته حقيقة ماثلة أمام ناظري. الجميع بانتظار لحظة التشييع وطقس إلقاء النظرة الأخيرة والتخلص من الجثة، لكن هذا المشهد كان من دون قبعات ترفع له، ولا من ورود تلقى عليه، ولا معاطف أو نظارات سود ولا من رجل معمم يقود المشيعين، حتى أن خادم الجامع أغلق الباب وطار إلى بيته في إجازة إجبارية.

ثمة رجل دين مغمور آخر في المنطقة المقابلة لبيته بعثوا في طلبه، للحضور لإتمام مراسيم التشييع وفق ما أوردته نصيحة أحد الجيران. رفض الرجل المعمم بعدما لاعب مسبحته ثم بَسمَل وحَوقَل، ليس خوفاً من الوباء، بل حسب قوله: «إن المغمور مات ميتة جاهلية، لا يجوز شرعاً مشي المسلم في جنازة الجاهل وتشيعه والسلام. هذا دين مو طين».

* * *

2

الروائيون يشيِّعون المغمور

ـ أستاذ رجاءً، لا تحاول الموت في القصة بطريقة كلاسيكية، لا بمفخَّخة ولا بعبوة. بالنسبة لي أحبذ طريقة الموت المبتكرة أو الإبداعية، أريدك أن تبقى سالماً حتى نهاية عرض الفرجة.

ـ هههه، أما تراني أمامك، أفلتُّ مثل الشعرة من العجين من شبك الموت وحبائله، لي القدرة على التملُّص منه بطريقة ماكرة. أمتلك أنفاً بوليسياً وحاسة للحدس لمعرفة أماكن الانفجارات بخفة ودراية وتجربة حسية، لذلك تراني أتجنبها بسهولة، بالرغم من كوني أعيش الآن في الوقت الضائع. كل فترة أدخل في تفاوض يرضي الطرفين مع ملك الموت، كما حصل في المرة الأخيرة. سأكمل لك الحكاية من دون مقاطعة رجاءً.

ـ ماذا تعني؟

ـ كنت قبل فترة في إجازة من الموت، بعد تفاوض مضني مع ملكه المرسل.

ـ إذن لنكمل قبل المداهمة المحتملة.

ـ في صباح اليوم الذي وصلت رسالة الـSMS تخبرني عن ساعة التشييع لصديقي المغمور. وقفت أمام بيته مع مجموعة من الأدباء المكممين والقراء المغمورين وبعض المثقفين الذين وصلوا تباعاً بعد تخاطبهم برسائل صباحية

عاجلة للتوجه الفوري إلى بيت المغفور لوداعه. يحتفلون بالرجل في موته ويهملونه في الحياة وتلك قاعدة استثنائية موروثة منذ زمن بعيد.

وصل جمع غفير آخر من أهل الثقافة من رواد مقهى المعتزلة وجلاس ركنها، لغرض وداعه وإسقاط الفرض. تَصوّرْ حتى في تلك الوقفة كان المعتزلة يتحلَّقون بحلقة مغلقة بعيداً عن الجمع.

تذكرت المغمور في استعراض حياتي معه، جلساتنا المشتركة في المقهى، كيف كان يحتفي بي ويفرد لي مكاناً ثم يدفع حساب الشاي. تذكَّرت الندوة التي عملها لي في أربعاء الندوات في المقهى. كيف قدَّمني لجمهرة شباب الرواية تقديماً مهيباً. أحتفظ في مجمل تفاصيله وأشعر بطعم حلاوة تقديمه لي، لهذا السبب كنت من بين الحاضرين في وداعه، فهو الأقرب لي من فئة كتاب الدرجة الثالثة. المغمور كان مهذباً جداً حقاً، وهذا سبب مباشر في غمره ونسيانه ومجهوليته.

خرج بعض الجيران على أثر الصراخ الصباحي المخيف في ذلك الصباح، ليشاركوا عائلته طقوس العزاء والوداع الواجب.

داعبت نسمة صباحية ناعمة زغب يديّ فأنتصب كالدغل البري، وراح جلدي ينكمش ثم يقشعر أثناء صراخ مبحوح لزوجته بصيحات متقطّعة بعد كل قهقهة من البكاء، صراخ زوجته يخلع نياط قلبي، كان نشيدها بلازمة مرعبة «يا من ضيّعتنه»، بينما أقاويل المشيِّعين تقفز كقطع دومينو:

ـ يا أخي واللّه الحكومة مقصّرة أمام قضية الوباء، هؤلاء الكتاب المساكين هم ضمائر الأمة، ما هو ذنبه؟ بأي ذنب قُتل؟

ـ حتى الأمصال التي وزعتها الحكومة لم تشمل كل الكُتَّاب والباحثين، يقال إن المغمور لم تشمله حقنة المصل لكُتَّاب السلطة، بدعوى أنه من روائي الخط الثالث المهمشين.

ـ على الأقل حجرهم في بيئة محمية.

ـ عمي، مؤامرة...

ـ أمريكا خلف هذا الموضوع حتماً، ألم تشاهدوا الفضائيات بماذا تتكلم؟

ـ لا. ربيبتها إسرائيل كانت تتحرك في الخفاء.

ـ أين وزير الصحة يمعودين؟؟

* * *

3

زوجة المغمور مغمورة

في لحظة الانتظار تلك، حضر ممثل اتحاد الأدباء. أديب موهوم حليق الشارب أصلع بكرش دائري، يطيل بقايا شعره المتهافت من الخلف ويمسك بيده لافتة تعزية يريد تعليقها في مكان مناسب. معتقداً أن مهمته تنتهي بتعليق تلك اللافتة وفي مرحلة لاحقة سيقوم بشطب اسمه من السجلات.

كما وحضَرَ ممثل من وزارة الصحة من قسم الأوبئة الفتَّاكة، ليجري الفحص الوبائي على الجثة، كان يرتدي بدلة تشبه بدلة رواد الفضاء. رفع غطاء التابوت وسجل ملاحظاته، وطلب من زوجته التوقيع للتحفظ على الجثة وسط ذهول المشيَّعين. رفضت بادئ الأمر، لكن المسكينة أذعنت إلى رغبة «رجل الفضاء» بعد إلحاح الواقفين عليها بالتوقيع. التحفُّظ يعني «الحرق الرحيم» ثم يدفن رماد الجثة في حفرة كونكريتية مُحكمة العزل. تلك إجراءات صحِّية وقائية لحصر الوباء والتخلُّص من آثاره.

صوتها المبحوح يتحشرج بغصّة عميقة بمستهل نشيدها المرعب، كأنه يخرج من بوق بائع النفط الأبيض «ويلاهههههههه». كان عَليَّ شخصيّاً ارتداءُ قناع الحزن، فأخرجتُ منديلي ورحت أمسح عينيَّ. كانت مشاعري حبيسة في أعماقي لكنها تزاحمت بالظهور دفعة واحدة. كنت فيما سبق شحيح الدموع، أحتاج إلى قوة عصف تمسكني وتهزني بعنف علّ تلك الأحزان المتكلِّسة تنفجر أمام الجميع.

بدت علامات البدانة على زوجته، سمراء بوجه صافٍ، بالرغم من غمامة الحزن التي تكلّلها، يبدو أنها زوجة مطبخية بامتياز. صوتها المتحشرج يقشعر له البدن، ضائعة في تفاصيل نكبتها، لا تعرف ما تفعله سوى الولولة، ليس لها أخت تخفف عنها أو تساعدها في جواب الولولة.

مراسيم التشييع والتهيئة يعوزها التنظيم كثيراً، والآراء المتنافرة والمجانية غير متفقة على البرنامج. ابنته المسكينة لم تتمرن جيداً بعد على مناوبة أمها في نغمة جواب الصياح الثنائي الواجب في هذه المواقف، فثمة نشاز مستفز لمشاعري بصيحات البنت الملتاعة.

في كل لحظة تثبت فيها عدم إجادتها لتمثيل الصراخ حتى انتبهت لنفسها وخجلت من نفسها، ثم طالعنا ابنه الصغير حافياً مصفرَّ الوجه، لا يعرف ماذا يفعل إزاء فعل الموت؟ غير أنه رفع صورة لأبيه المغمور، لقطة من جوف الماضي يضع فيها كفه على خده.

كنت أحدّق بالتماع دمعة نزلت مسرعة من أحد روائيي الخط الأول قبل أن يضع كمامه على أنفه، عندما شاهد لحظة خروج التابوت مُغطًّى ببطانية مشجّرة كالعادة، ولحظة أخرى عندما تلاقفت أيادي المشيعين التابوت لوضعه بسرعة فوق سيارة نوع هونداي «STAR-X»، ثم صورة أخرى تتمثل بغسل الأيدي وتعقيمها بالديتول، بعد سفر المغمور إلى عالم الطمر والتخلص منه قبل انتقال العدوى المحتملة. احتمال أن الجرذان كانت موجودة أصلاً في بيته.

ثمة صورة مشهدية أخرى علقت برأسي عندما توحّد الجمع بنداء واحد للمرة الأولى: «لا إله إلاّ اللّه.. محمد رسول اللّه». كان الكورال الإنشادي متحمّساً جداً، بدت عليه دُربة عالية بمشاهد الوداع هذه، في محاولة للتعجيل بالتخلص السريع من جثته ومن إجراءاتٌ أخرى تتبع عمل الموت الشاق هذا، إنه الواجب الثقيل فعلاً.

نظرتُ إلى الخلف إثر صوت حنحنة خشنة، فوجدت صديقي الروائي (عدُوّ همزة الوصل) صاحب الجاكيت الأبيض والذي عُرِف في ندوات الصيف والشتاء الثقافية بحضوره الدائم، يعد من روائيي الخط الأول، يودِّع بكفِّه جثمان المغمور «اللّه وياك»، بدا متأسفاً على سرعة رحيل المغمور من دون أن يكمل الفصل الأخير من مخطوطته.

تلك المخطوطة التي اطلّع عليها معظم طبقة العدميين من روائيي الخط الثالث سود الوجوه وظرفاء الخط الثاني التوفيقيين رماديو الوجه حسب تصنيف اتحاد الأدباء ووزارة الثقافة، ونخبة قليلة منتخبة من نبلاء الخط الأول بيض الوجوه المنتفخين بنجوميتهم الكاذبة، يُعتقد أنهم لم يهادنوا النظام القديم، فصُنِّفوا من «بيض الوجوه» كمصطلح ملائم لموقفهم الرافض. شهادة اعتراف بمباركة من النظام الجديد، تمّ ترحيلهم إلى الخط الأول بمكرمة خاصة وصرف مخصصاتهم حالهم حال السياسيين في حقل الخدمة الجهادية.

أطالوا لحاهم وتحلّقوا بالمحابس وختموا على جباههم أثر السجود وامتنعوا عن الإجهار بتناول الخمرة إلاّ في السراديب المغلقة، أو في أماكن مظلمة خارج البلد وسهرات الليالي الحمراء.

الغريب في الأمر أن الخطوط الثلاثة أجمعت على جودة مخطوطة المغمور، لما تتمتع به من كشف الغاطس من تاريخ يوم واحد في الحياة العراقية بتاريخها الإشكالي، ذلك اليوم الذي انقلب به البلد من ملكي إلى جمهوري عنيف. من مسبحة وسدارة إلى بندقية وبيريه وبدلة خاكية ونجمة خماسية ونسر ذهبي.

من جانبي شجّعته على إكمالها، فهي بحق أهم ما كتبه المغمور «عماد الآغا» قبل أن يُغفر له ذنوبه في روايات فاشلة قضُم على أثرها معظم سنيّ عمره.

في تلك اللحظة خرجت زوجته مرة ثانية إلى الجمع في حالة حزن جنوني،

شعر منفوش وثوب مشقوق ووجه مصفر ومخرمش، ليست لي القدرة على النظر إليها أو وصف حالتها، فأشحتُ بوجهي عنها، بعد فترة من الوقت لمحت وجودي بين الحشد فأرسلت لي أحد صغار المنطقة المتجمهرين:

ـ عمو تريدك...

سلَّمَتْني حزمة أوراق في كيس من النايلون. «عيني اللّه يخليك وصّاني المرحوم أن أسلمّك روايته، عمت عيني عليه ما أكملها. أنت صديقه، رتّبها براحتك وانشرها بعد روحي يا خويه. وصية المرحوم واجبة يا بعد عيني».

ماذا أفعل يا بعد عيني؟؟ ورطة تاريخية عظيمة. ذهبت إلى موفد وزارة الصحة في الحال، الرجل الفضائي وسألته عن كيفية فحص المخطوطة قبل استلامها وخلوها من فايروسات الوباء، رغم شكوكي بحادث الوباء. كانت زوجة المغمور تنظر ما أنا فاعل، بعد ذلك الموقف أنجز الفضائي الفحص الصحي عليها بجهاز مرره على ورق المخطوطة مثلما يفحص رجل الهندسة العسكرية طرداً مشبوهاً:

ـ إنها سليمة قلباً وقالباً.

تلك المخطوطة أصبحت قضيتي والشغل الشاغل لي. يتوجب عليّ حسب الوصية إكمال فصلها الأخير وإجراء بعض التعديلات الضرورية ضمن السياق التاريخي لها. رغم أني كمحرر أدبي لم أجرب كتابة الرواية التاريخية الصرفة من قبل. ثمة أسئلة تدور برأسي هل أضع اسمي كمحرر أو محقق لها عند طباعتها؟ هل أذكر المغمور والفصل غير المكتمل؟ أية دار نشر ستغامر في طباعة رواية لكاتب مغمور؟ من دون أن أضع اسمي على غلافها الأول بطريقة ما. الأسئلة كثيرة وبحاجة إلى فنجان قهوة ساخنة وسيجارة لأجد لها الحلول المناسبة.

* * *

4

الروائي الكذّاب كان حاضراً أيضاً

تكلم الولد الكوني بخبث في يوم لاحق بجلسة جديدة من جلسات المقهى:

ـ هل كنت ترعى المغمور رعاية أدبية أم هي طريقة أخرى للتبنّي؟ حسب رأيك.

ـ في البداية لم تكن علاقةَ تبنٍّ رسمية، ولا هي رعاية شمولية لوجه اللّه. كل ما في الأمر، أن المرحوم كان يحرص على لقائي كل أسبوع تقريباً. يطلب مشورتي في كتابة روايته التاريخية هذه. على العموم دعني أحدثك عن إحدى اللقاءات به.

ـ تفضل أستاذ.

ـ في يوم ممطر جميل، كأنني أعيش في مدينة غير بغداد، فالمطر -كما تعرف ـ هو الوحيد الذي يغسل بغداد من أدرانها ويعيدها إلى صباها. يسقي المطر بشغف براعم الخيال وتتفتح أزاهيره على إيقاع نثيثه. اتصل بي المغمور:

ـ أستاذنا الكبير كيفك. أحوالك. أمورك.

ـ أهلا آغا، تفضلّ!

ـ بصراحة مشتاق لك، أنت معلمنا الكبير.

ـ هههههه شكراً عماد تفضل؟

ـ بصراحة أريد اللقاء بك غداً وعلى انفراد في مقهى المعتزلة.

ـ خير إن شاء اللّه، أنا حاضر سأكون موجوداً في الرابعة عصراً بعد أن تخف الاختناقات المرورية في نهاية الدوام عزيزي.

حضرت في الموعد وشربنا الشاي بعد أن انفردنا في مكان قصي في المقهى قريباً من ركن المعتزلة. ثمة كُتَّاب آخرين من الخطوط الثلاثة كانوا يتداولون في الشأن الروائي العربي، وحوارات أخرى عن محلية الرواية العراقية. أما صاحب البدلة البيضاء فكان يتحدث لهم عن رحلته إلى باريس وكيف استقبلته جمهرة القراء هناك من المطار حتى مكان أقامته بالورود والهتافات. طبعاً هذا الرجل من الكذَّابين المهرة لذلك منح له درع الفئة الأولى لميزات وتقنيات كذبه الجميل.

في البداية كانت الأحاديث بيني وبين المغمور عامَّة وسخيفة وفيها نوع من المجاملة التي بدَّدها بمجَّانية ساذجة.

ـ أستاذ أود التداخل معك عن الشخصية الرئيسة في روايتي المقبلة «الملك في رحابه» وهذا العنوان المفترض لها حالياً. أحاول أن أحدثك عن بطلها العباسي، الشخصية الإشكالية التي حدثتك مراراً عنها.

ـ تفضل آغا، ولكن اترك هذا العنوان أولاً، بحكم تجربتي المديدة كمحرر أدبي، تكون العنونة إشكالية كبرى، وعلى الكاتب أن ينحت العنوان من داخل فضاء الرواية وليس من داخل النص أولاً، ثانياً حاول بطريقة ما ككاتب ناجح إثارة حاستين من الحواس النائمة لدى القارئ في شبكة العنوان. أقصد استغلال مبدأ الاستفزاز الذكي في العنونة، بصرياً من خلال ميزة الخط لغلاف الرواية ولونه، وعقلياً في الصدمة والدهشة المربكة للحواس، غلاف الرواية ليس من حق الناشر أو المصمم بل هو بنية سيميائية خطيرة وإضافة مكملة للبنية النصية في المتن. ثانياً اختيار مفردات قليلة جداً وموحية للعنوان تحقق الهدف المنشود.

ـ طيب أستاذنا الكريم. جمعت معظم المصادر عما حدث للعباسي بعد

يوم 14 تموز، كانت مصادر متناقضة في مادتها الشحيحة عما آلَ مصيره بعد المجزرة. لكني تأكدت من جملة أمور تكاد تكون قاسماً مشتركاً في المادة التاريخية الموثوقة.

ذهب العباسي للاغتسال بالماء والصابون من الدماء التي انتشرت على بدلته العسكرية، ثم مباشرة ذهب إلى دار الإذاعة لملاقاة العقيد عبد السلام. استقبله بالأحضان على قتله جميع أفراد العائلة المالكة مع الخدم والطباخين والضيوف دفعة واحدة. قال له كلمة واحدة حفظها لنا التاريخ ومسجلة في معظم الأدبيات العسكرية: «عافرمن» وتعني بالتركية التشكر عما فعله. أمره بالذهاب فوراً إلى قانونية وزارة الدفاع لتسجيل الإفادة ومن ثم سيصدر به العفو الخاص من قادة الثورة. بعد فترة أيام يرقّى إلى مرتبة عقيد وينقل إلى الكلية العسكرية، ثم إلى القوة البحرية وكفى. لم تذكر كل كتب التاريخ شيئاً ذا فائدة عن مصيره سوى الانتحار.

ـ سبق وأن تحدثنا بموضوع إشكالية الحادث التاريخي في الرواية يا عماد. المزالق خطرة للغاية، فالقارئ لا يريد منك كروائي إعادة كتابة تاريخ الحدث. عليك أن تفهم هذه الحقيقة. عليك إنقاذ روايتك من التيه ما بين زمن القص وزمن خطاب اللحظة التاريخية. بين التاريخ والسرد، إنه مزلق خطر للغاية وعليك توخّي الدقة والحرفية. هل تعلم أن الرواية العراقية تعاني يا عزيزي من ماضوية قاتلة، ولا حضور للمستقبل إلا باهتاً؟ أمامك تاريخ مجرد وذاكرة، التاريخ سجل إشكالي، نعم، لكن الذاكرة تفسح المجال رحباً للمتخيَّل صديقي. انتبه على تلك القضية. ولا تكن احتفالياً في الماضوية وتجرّه بعربة السرد التاريخي المعطوبة. الروائي هو الكاذب الذي يقول الحقيقة. والرواية يا عزيزي هي الأسطورة المعاصرة التي عادت بقوة كبديل ناجح بمكان الأسطورة التاريخية.

ـ تمام أستاذي، لكن المشكلة تكمن في التشوّه والضياع للمسار التاريخي

الحقيقي. هل تعلم أن هذا الرجل قد مات عدة ميتات بروايات متعددة، ولا أحد من التاريخيين أو الشهود يمزق هذا الوهم التاريخي بوثيقة موت حقيقية.

ـ كيف!

ـ أنا أقول لك كيف. دعني أطلب الشاي مجدداً ليحلو الكلام بيننا. عدة مسارات تاريخية تتبَّعتها عن مصير الرجل بعد نقله إلى القوة البحرية في البصرة. اختلفت الروايات التي سجَّلَتْها كتبٌ وصحفٌ ووثائقُ وشهادات عنه. بدأ الرجل في البصرة يعاني من هجوم منظم في كل ليلة من أشباح العائلة المالكة عليه، الملك الصغير وعبد الإله والأميرات المغدورات حتى شبح الطباخ الهندي كان حاضراً. كان العباسي يخرج من مكان نومه إلى شوارع البصرة خائفاً مذعوراً، يحدث هذا كل ليلة. وفي النهار يذهب إلى وحدته العسكرية كضابط مسؤول ويحاول النوم واقفاً في غرفته للتخلص من الأشباح. رواية أخرى تقول إنه أدمن الخمر في النهار وبشكل يومي، بل كان يسرف في تعاطي الخمور يخالطه إحساس أنه منبوذ وتافه ومجرم جعله يدمن بتلك الطريقة حتى تمت إحالته على التقاعد وطردته عائلته وبات سكيراً محترفاً يتسكّع في شارع الرشيد والحيدر خانة ويصيح: «أنا العباسي هل تعرفوني؟».

ـ لا أعتقد هذا محض كذب. الذي له القدرة على شرب الدم، لا يخاف من الأشباح.

ـ ثمة رواية أخرى عنه تذكر أن البعثيين حشروا اسمه في محاولة انقلاب «عبد الغني الراوي» في عام 1971 وسيأتي اليوم الذي يؤخذ مخفوراً إلى بغداد وتتم تصفيته هناك. رواية أخرى تقول إنه نُقِلَ كملحق عسكري إلى روسيا وتم اغتياله هناك، الأغرب من ذلك أن رواية قناة الحرة الأمريكية أظهرت تقريراً في 2004 عنه حيث حضر إلى المقبرة الملكية في الأعظمية رجل مقعد على عربة

تدفعه ابنته ملقياً الورود على قبر الملك، كما يذكر التقرير أن حارس المقبرة تحاور معه وأخبره أنه قاتل العائلة المالكة.

ـ كيف للكاتب مثلك أن يفكك كل تلك المرويات التاريخية غير المنضبطة؟ كل واحدة تعتقد بأنها تقول الحقيقة المجردة. تلك مشكلة حقيقية مزعجة.

ـ ما يهمني من تتبع سيرة الرجل الجزار ليس التعاطف معه، بل تلك الجرثومة الجينية التي تنتقل من عراقي لآخر من دون أن نلتفت إليها. مثلاً سيدي الكريم كم من الذين خرجوا بعد سماعهم نبأ الثورة المزعومة ليشارك في حرق وسحل وتعليق جثث هؤلاء المساكين؟ أعتقد غير العباسي لدينا المئات بل الآلاف وهم على استعداد لتمثيل دور السفاح ليرضي الانقلابي القابع في الإذاعة ليذيع البيانات المترادفة.

ـ ولكن بالمقابل عليك بمعادلة كفتي الميزان. بمعنى كم من عراقي لم يرضه ما حدث في ذلك اليوم المخزي؟

ـ أنا لست من يعيد الأمور إلى نصابها، فتلك ليست مهمتي، أعتقد أن مهمتي تقف على كشف المسكوت عنه من الأحداث. هل تعلم أن معظم ما كتب عن المجزرة ينطلق من فكرة أحادية فقط؟ إما ملكي أو ثوري/جمهوري؟ إما ضابط مهزوم من ساحة المعركة أو سمع عنها من الآخرين؟

العباسي حسب وجهة نظري هو رمز لعنف الشخصية العراقية وميلها من دون تفكير لتنفيذ ما يريده صاحب السلطة بأي ثمن، وهو ليس من الضباط الأحرار ولا هم يحزنون.

* * *

5

ما بعد يوم الأربعين

ثلاثة استكانات شاي شربتها في مقهى المعتزلة، كنت أنتظر الولد المؤدي براق الكوني الذي يُعِدُّ تحضيراته النهائية عن شخصية العباسي، بعد تحديد يوم عرض الفرجة. وفي اللحظة التي نويت الخروج من المقهى دخل الولد مسرعاً وقدم اعتذاره عن التأخير.

ـ جداً آسف أستاذ فقد مررت على أحد أصدقاء الجزار. تحدث لي الرجل العجوز بكلام غريب.

ـ ماذا قال؟

ـ قال من الممكن أن يحضر الجزار ذاته إلى عرض المسرحية بالرغم من كبر سنه. وعندما توغلنا في الكلام عرفت أن الرجل دخل بمرحلة الخرف منذ زمن طويل.

ـ هل تعلم أني كنت على وشك الخروج من المقهى؟ لا أحد يحترم الوقت في هذه المدينة. كل من تتصل به يقول لك في الطريق (جايك) حتى وإن كان في المراحيض. يتحجج بالحواجز العسكرية التي تسلب الحق في ضبط الوقت. في هذا المقهى ذاته كنت أعقد جلساتي المطولة مع المغمور واليوم معك. كلاكما لا تعيران اهتماماً للزمن.

ـ تمام واللّه. الزمن بالنسبة لي هو بعد فيزيائي رابع للمكان حسب النظرية

النسبية، مجرد وسيلة لتحديد ماهية الحدث. دعنا منه لنتابع ونستثمر الوقت ونحسب لاحقاً حساب الزمن والمستقطع منه.

ـ إمممممم. أربعون يوماً مضت بالتمام والكمال على وفاة الروائي المغمور. كان عليّ الذهاب مجدداً إلى بيت زوجته، بعد أن تورطت ورطة حقيقية ليس منها فكاكاً في تكملة الفصل الأخير من روايته.

كنت بحاجة إلى بعض المعلومات عن خصوصية المغمور في الكتابة. مزاجه/ طريقته/ أسلوبه / وضعه النفسي/ شيء عن ثقافته العامة والتاريخية خاصة. لم يبق لي لمعرفة المزيد سوى الذهاب إليها وإثبات جديّتي في إتمام وصية المغمور.

جلست في غرفة الاستقبال وجلس بقربي ابنه يقلب كتاباً مدرسياً، كما حضرت ابنته مكللة أيضاً بسواد الحزن لفقدان الأب. تحدثت معها عن سير دروسها في المدرسة، محاولة لكسر الصمت الذي خيّم على الجلسة.

حضرت زوجته تحمل صينية الشاي. كانت المسكينة تغط في سواد لائق على روح المرحوم. هلّلت ورحّبت بي بطريقة هادئة، وطالبتني بعدم الانقطاع عن زيارة عائلة صديقي المرحوم:

ـ قبلت إكمال روايته حسب الوصية، وستكون باسمه حتماً وخاتمة لحياته الأدبية، سأحاول بخبرتي الأدبية تكملة الفصل الأخير منها، بصراحة أريد منك الحديث عن خصوصيته داخل البيت ومزاجه وأسلوبه في الكتابة لينسجم بها الفصل الأخير مع السياق العام. كنت حريصاً للسيطرة على لساني من دون أن تفلت مني كلمة «مغمور» وأتسبب في حرج لا أحسد عليه في هذه الجلسة الحزينة.

ـ أهلاً وسهلاً بك، لكني لا أعرف بالضبط ما تريد معرفته.

ـ كل شيء عنه.

ـ يعني شنو كل شيء؟

تضايقت من سؤالي السخيف، كيف سأتحدث مع امرأة بسيطة عن خصوصية كاتب غامض كان يعاني من إحباطات كثيرة. الإحباط أكل من جرف لغته أثناء الكتابة.

ـ بصراحة ومن الأخير، لقد أتعبني المرحوم كثيراً في حياته ومماته أيضاً، كل يومين أو ثلاثة يأتي موفد من الصحة ودوائر أخرى ويوجِّهون لي أسئلة كثيرة ويفحصون كل زاوية أو مكان أو ورقة تركها المرحوم داخل البيت، لأنهم على وشك الإعلان عن نهاية قريبة في القضاء على الوباء كلياً ونظافة بغداد من الجرذان. يقولون تم حرق كل مواقعها بعد رفع مواطن القمامات وتنظيف الخرائب في الرصافة القديمة.

ـ لكن الحكومة أعلنت أن الوباء إشاعة.

ـ وفي الخفاء تعمل للإعلان عن نهايته. ربما كانت الحكومة تشيع الإطمئنان في قلوب الناس.

ـ المهم، حدثيني عن المغمـ ... عن المغفور له عفواً.

ـ كان يتضايق كثيراً من اللَّقب الذي ألصقه به كتاب الرواية النجوم، عميت عيني عليه كان يضرب رأسه بالحائط، يبقى كئيباً طوال اليوم كله إذا سمع كلمة «مغمور» تلتصق باسمه. أما داخل البيت فلا شيء يميزه عن الآخرين، حياته جد طبيعية.

ـ ماذا يحب وماذا يكره؟ كيف يتصرف بيومه داخل البيت؟ ماذا يفضل أن يقرأ؟

ـ بصراحة كان يحب الاستحمام جداً، تصور أنه يستحم كل يوم، مكانه المفضل هو الحمّام، في الصيف يستحم مرتين أو ثلاث، وفي الشتاء مرة واحدة يومياً، لذلك كان شغوفاً جداً باقتناء كل ما يخص الحمّام، من ملحقات كمالية يجدها

ضرورية ويحرص على استبدالها بين فترة وأخرى، لا تظنه... والعياذ باللّه، لكن الكتّاب أنتم على شاكلته.

يذهب غالباً إلى سوق الصحيّات في شارع الكفاح ويقتني آخر موديلات رشاشات الماء المعلقة أو تلك التي تشبه التلفون الأرضي، ثم يأتي بطقم جديد بين فترة وأخرى من حاضنة الصابون مع أفضل أنواعه مع الشامبو.

كان المرحوم يفضل أن يبقى دون طعام ليجلب آخر صيحات الموديلات داخل الحمام. تلك هي هوايته المفضلة. أذكر أنه كان يقول دائماً حينما ألومه على المكوث في الحمام طويلاً: «أجد روحي ناصعة النقاء داخل الحمام. الروح تحتاج إلى من يعتني بها. الروح تستحم كما الجسد، وتتعطَّر مثله وتتباهى بالأناقة والخِفَّة». لا أعرف ما يقصده. كان مغرماً أيضاً بصراع الدِّيكة في سوق الغزل ويراهن عليها كثيراً ويحرص على حضور حفلاتها كل جمعة. يذهب في مناسبات أخرى إلى بيت جده في منطقة الفضل ليشهد أو يشارك اللّه أعلم في مراهنات على ديكة هراتية وأخرى مدرّبة على قتال الشوارع.

ـ قلتِ إن بيت جده في الفضل؟

ـ نعم تعرف أو لا تعرف أن جدته خياطة من أقدم خياطات بغداد. عائلة خيَّاطين من الجد والأب والبنات. جده يدعى عبد الجبار محمود، هل سمعت به؟

ـ نعم وجدته في فصل من روايته. لكن لا علمَ لي بعلاقته بعائلة الخياطين إلاّ الآن.

ـ على العموم يوماً ما سأحدّثك عن جدِّه عندما تكرر زيارتك لنا. كان المرحوم مغرماً أيضاً باللون الأبيض كثيراً، وفي غرفة نومه يعتني كثيراً بجعل فراشه أبيض، من شراشف المخدات واللحاف القطني الأبيض وحتى السرير يحرص على أن يكون أبيض ومريحاً أثناء النوم، كان يقول: «إن الانسان يقضي في النوم أكثر

وقته أو على الأقل بمستوى وقت حياته في ساعات الصحو، لماذا الناس لا تهتم بطريقة النوم المريحة؟».

وعن سؤالك عن حياته الداخلية، يعني بصراحة لا أستطيع الكلام عن هذا الموضوع، لكني أقول إنه يحب أن يتحدث أثناء... واللّه عيب والمرحوم...

غطّت في نوبة بكاء مكتوم. حاولت أن أخرجها من هذا الجو الكئيب.

ـ لكني أرْى الطريق أمامك مفتوحاً، والرجل خيمة على...

ـ ... ما هذا الكلام أستاذ؟ عيب أهذا هو معنى الصداقة عند الأدباء؟

ـ عفواً سيدتي لم أقصد السوء بكلامي، ربما لم أحسن التوصيل اللغوي المناسب. الأدب أضاع علينا اللياقة اللغوية المثلى.

ـ مو مشكلة. هذه أهم الأمور التي يهتم بها المرحوم، أما خارج البيت فكان دائم التواجد في دار الوثائق والكتب يبحث عن أمور لا يصرِّح بها كثيراً. يقول: «إن روايته الأخيرة هي خاتمة حياته»، كأنه يعلم بموته. تعب المرحوم فيها كثيراً، نصف الليل يوقظني ليحدثني عن تفاصيلها، عن النساء الأميرات فيها عن فاضلة وراجحة وبديعة وهيام وغيرها. ليس لي سوى الإعجاب بالتفاصيل التي يتحدث بها. يقول «إن القارئ ينهي قراءة الرواية بيومين أو ثلاثة، بينما الكاتب ينهكه التعب لسنتين أو ثلاث أو أكثر، كل يوم قراءة يقابله سنة كاملة من الكتابة». بالنسبة لي أنا أقرأ له فقط، مجبرة طبعاً، وعليّ أن أقدم له ملاحظات عابرة أثناء تناول الغداء أو العشاء. كما عرفت لاحقاً أن لقب الآغا الملحق باسم عماد ليس له علاقة بعائلة الآغا الكبيرة، إنما للجرس الموسيقي في رنّة الاسم، التي استهوته للوصول إلى الخط الأول من كتاب الرواية.

ـ ممتاز! ملاحظات مهمة تنفعني في امتصاص طريقة ما لأسلوبه الأدبي. وسوف أختصر كثيراً منها، لتكون لائقة بمقامه. اسمحي لي بالمغادرة. تحياتي.

لكنها كشفت لي في نهاية الجلسة عن بعض من مفاتيح اللغز، بإشارات ليست واضحة تماماً عن علاقة شبه روحية بين ما جرى لجد عماد الآغا المدعو عبد الجبار وزوجته الأميرة راجحة التي أجبرته على ترك سلك القوة الجوية والسفر معها إلى سويسرا. قالت:

تمّت الموافقة على شروط الملك غازي كلها، ولا أحد يعرف ما هي الشروط غير المعلنة بين عبد الجبار والملك غازي بعد اجتماعهما في الديوان الملكي لنصف ساعة تقريباً. تم الزواج بمراسيم خاصة وغير معلن عنها، على أن تخرج الأميرة المبجلة نحو بيت صغير خارج القصر. استطاع توفيره في منطقة كرّادة مريم. في البداية وفي الأشهر الأولى كانت السعادة طاغية على الأميرة وزوجها، إلا أن الحياة لا تبقى على ما هو عليه بعد الزواج. يقول «الحب أجمل من الزواج. والأخير يفسد طعم الحب بكل صوره».

بغداد تتغير بسرعة وعلامات الاضطراب بدت واضحة في الأفق، عندما تغادر الطمأنينة قلوب أبنائها البسطاء وتطلُّعاتهم التي تؤطر باللذائذ اليومية المتواضعة. عبد الجبار كان محبساً سهل الانقياد بيد الأميرة، بعدما طفحت الروح الملكية المتعالية للأميرة وطلباتها التي لا تطاق بعد انقضاء شهر العسل.

اعتادت على السهر كل ليلة وعبد الجبار يحاول أن يذهب إلى عمله في ساعة مبكرة لوحدته العسكرية، يتضايق وينزعج كثيراً من تلك الأجواء. شعر بالخيبة والخذلان والخسارة من زواجه من بنت الملوك المتعالية بفخرها وأصالة نسبها، وهي تُذكِّره كل ساعة بنسبها ومكانتها بالنسبة له. ملّ من هذه الحياة المخملية، لا يستطيع مطلقاً أن يتفاهم أو يتناقش أو ينسجم معها. غالباً ما ترحَّل مشاكلهم المتراكمة إلى حضرة الملك. يتصل الملك بآمر الوحدة العسكرية للضغط على عبد الجبار للاستجابة إلى أوامر الأميرة. ولم يدم هذا الزواج طويلاً، فقدم استقالته من القوة الجوية وبعدها ترك البلاد وغادرها. لكن الأميرة وفي

حركة مباغتة تذهب للالتحاق به بعد أن عرفت مكانه. يستقران في سويسرا بعد أن تنقّلاً بأكثر من بلد، ولم تتغير الأميرة كثيراً في سويسرا، لتنتهي قصة العشق هذه إلى الطلاق بعد رحيل الملك غازي في حادث السير الغامض. إذ كان عنصر التكافؤ وشعوره بالدونية وعدم الانسجام مع الحياة الملوكية سبباً من أسباب كثيرة للانفصال.

خرجت من بيت الآغا وأنا أفكر جدياً بالأسباب التي دعته لكتابة الرواية. هل ثمة مآل في كتابتها؟ هل هو الشغف والفضول في ملابسات ما حدث؟ هل علاقته الوطيدة بعائلة عبد الجبار وزوجته؟

بعد سنة من حادثة المجزرة، تصل الأخبار المحزنة إلى الأميرة راجحة طليقة عبد الجبار الضابط الهارب من العراق. تصاب بالمرض العضال وبالمرض القاتل وتذوب جذوة الجمال ويتلاشى بريق النسب والجناب العالي تدريجياً في هذه البلاد الباردة، التي لا تعير اهتماماً للأنساب القبلية الشريفة. أيضاً قيل عنها إنها ماتت كمداً على حياة ذويها الذين قتلوا بطريقة بشعة في منتصف بغداد. أما ابنتها ثمرة هذا الزواج من عبد الجبار هي التي كلّفته بكتابة رواية عن مجزرة العائلة المالكة من دون ذكر زواج أبيها من أمها.

كانت زوجة المغمور تروي هذه القصة عن تكليف زوجها برواية حكاية المجزرة، لتقول في نهاية الكلام أن الدافع كان إنسانياً فقط. تفككت كل العقد الآن أمامي لأواصل إعادة كتابة الفصل الأخير من روايته، بضمير واعٍ، وعين متبصرة وحياد أوسع من طريقته في الكتابة، وعن الدواعي السرية لإعادة كتابة تاريخ المجزرة.

* * *

6

العودة الميمونة لنجم العتابي

ـ في جلسة اليوم سأخبرك يا ولد، عما حدث لي بعد استلام مخطوطة المغمور. ففي مساء حار وصمغي، اتصل بي «نجم العتابي»، وهذا يعرف بكونه أبرز محرري الصفحة الثقافية لجريدة الأمس البغدادية، انتقل برشاقة من حقبة البعث نحو الحقبة الحالية، يعرف بالمخضرم في الأوساط الصحفية، جماعة المعتزلة يدعونه بـ«الرفيق»، لكنه يعرف أيضاً بأنه غير مؤذٍ كحيّة من دون أنياب فتركوه في حاله، ورغم بلوغه سن التقاعد ورعاشه المتواصل لكنه ما زال يحب الفضائح الصحفية والثقافية منها على وجه التحديد، وبعد إلحاح منه وافقت على إجراء الحوار التالي معي:

ـ ماذا تعرف عن عماد الآغا أستاذ خالد الشيخ؟

ـ المغمور!؟

ـ نعم.. الذي وافاه الأجل بوباء H2S2. تكشف اللوحة الضوئية الإلكترونية في ساحة (55)، عن وفاته كمجاهد مغمور بفعل الوباء، أحاول كتابة تحقيق عنه، لو تفضلت بالإجابة عن أسئلتي:

ـ بصراحة شديدة، عماد الآغا أعتبره صديقي، بالرغم من كل ما قيل عنه، بأنه روائي مغمور وفاشل ومتردد. لكنه بالمقابل شخصية لطيفة وطيب القلب. لطيف

المعشر في بيته ومنطقته. الطيبة مصدر ملائم لبيئة الغباء في الحياة، يحتاج الكاتب إلى كل مصادر الطاقات السلبية ليشحذ عقله ويقتل هواجس الرومانسية التاريخية والوطنية معاً. الطيبة وحسن النية يا صديقي تعزز الاستكانة والإيمان المفرط أو ما يسمى بالكسل الفكري، بينما الحاذق الشكّاك هو الذي يستطيع شق بطن التاريخ وتفكيك عقده الملتبسة. لا يمكن للروائي أن يكون طيب القلب. أعتقد أن هذه واحدة من مثالبه ورسوخه في قاع الخط الثالث لكتاب الرواية الطيبين.

ـ المغمور من الصنف الذي يهتم بتهذيب شخصيته أكثر من اهتمامه بصنائعه من الشخصيات، ليجعلهم ملائكة بإسقاطات من عقله الباطن، يساهم أحياناً أو يتركهم لمصائرهم من دون العناية بتشريحهم وسبر أغوارهم، ربما تأخذه الرأفة بهم بتعبير أدق، بصراحة هذا ما وجدته في رواياته. كما أجد أن المغمور كان ملكياً جداً، وتلك مصيبة لا يمكن الفكاك منها بكتابة رواية تاريخية، كان الأجدر به أن يكون حيادياً أثناء الكتابة لا يميل للملكيين على حساب الجمهوريين. الخبث الأسود والمكر المزدوج هما من روافد قوة الشخصية الروائية، لا توجد فطرة في بناء الشخصية مطلقاً عزيزي أستاذ نجم العتابي، ذلك بصراحة هو الذي جعل صديقنا المغمور مغموراً. ولإدراك محتوى الشخصيات في الحياة وعملية بنائهم، كان يفترض عليه تدعيم شخوصه بموجبات البقاء الثلاث. مكر/ خبث / شر، بحاجة إلى دماغ وعقل جبارين لصياغة المبررات وإنتاج بذور الشر والذكاء القادح وسرعة إنتاج الأفكار المولّدة لهم، حتى لو كان الكاتب طيب القلب في الحياة بطبيعته، وهذا لا يصبّ في مصلحة رواياته طبعاً، كان عليه الانقلاب على نفسه أمام الحاسوب أو الورق، مهما حملت هذه الأفكار من براعم الخير والطيبة في نواتها، فالروح العدوانية المشاكسة طريقة لإدراك ما حضل ويحصل، ليبلور شخصيات الروايات ويجعلهم يمرحون وسط البيئة البغدادية.

ـ شكراً أستاذ، ربما لا أستطيع نشر كل هذا الكلام فثمة رقابة صارمة من سكرتير التحرير. نحن نحاول الاحتفاء بالمرحوم وأنت هدمت كثيراً من جوانب هذا الاحتفاء. أنت بتصريحاتك أستاذ خالد هذه طمرت كل بذور الخير في الشخصية العراقية سواء لشخصية المؤلف أو شخوصه داخل الروايات. أنا أفهم أن الشر يولد العنف.

ـ وهل هناك رقابة على ما ينشر!؟ أصلاً لا أحد يقرأ إلا القلائل من مدمني الصحف، كبار السن من متقاعدين يزجون الوقت في المقاهي أو من هواة الكلمات المتقاطعة. انشر ما تراه مناسباً صديقي، المهم أفرغت ما في الذمة. ولكن هل كان الوباء حقيقة أم إشاعة؟

ـ لا أعرف. سواء كانت إشاعة أم حقيقة فالرجل مات بسبب الإشاعة ربما.

كل هذه الأفكار تحدثت بها عن صديقي المغمور للجريدة، ولكني حذرته من السير في الطرقات مثل قطة وديعة أو التجوال في المدن مثل نبي فقير في حياته، المسكين حاول كثيراً، لكن لا فائدة في كل مرة يؤكد لي أنه سيمارس الجِّلد الوحشي على شخصياته.

ورّطني بقضية متداخلة وأنا أمام إلحاح المشيعين من الروائيين والقراء وزوجته؛ أن أرضخ لتكملة روايته التي لم يسعفه الوباء في تكملة فصلها الأخير.

ثمة مشكلة أخرى أيضاً عليّ حلّها قبل الشروع في إتمام المهمة في البحث عن الناشر الذي سيوافق على طباعة الرواية، وهي أصلاً لكاتب مغمور أنهى حياته بكتابة الروايات الفاشلة، أذكر أنه كتب رواية عن حياة راقصة في ملهى حرير، تدعى (الراقصة القديسة) تتحدث الرواية عن راقصة تتوب من الرقص بعد أن ترهّل جسمها، لتتحول إلى مهنة القوادة. قلت له: «كيف تكون القوادة نزيهة يا مغمور؟ هل هذا من نبلك؟ أم من نبل المهنة؟»

ـ هذه الراقصة كانت تأخذ محصولها من القوادة وتصرفه على بنات ملاجئ الأيتام، وهي إذ تطبق «السيئة بمثلها والحسنة بعشرة أضعاف» كانت تكسب كل يوم عشرات الحسنات لتزيد من الرصيد مقابل السيئات البسيطة، هذه الرواية فشلت فشلاً ذريعاً بل تحولت إلى مادة للتندُّر، وجمهرة القراء تنظر للأمر كونه إثماً مجرداً. رفضها الناشر المتأسلم بحجة المساس بالمقدسات، ورفضها آخر خوفاً من حجبها في أهم المعارض العربية، وآخر رفضها بحجة التحولات الدينية وثورات الربيع العربي الزائفة، التي أجهضتها التيارات الإسلامية المتشددة، والتحفظ الزائف لدى المجتمعات العربية والإسلامية.

* * *

الباب الرابع

فصل الرواية الثاني

1

قيلولة صيف بغدادي

لم يخطر ببال جميل القره تبي الزواج مطلقاً، فحياة الليل في الملاهي مع الراقصات وكرع الخمرة، كانت كافية له، مستغنياً عما ذهب إليه أقرانه من الموظفين في دائرة البريد والبرق وزواج صديقه موسى الشعّار مؤخراً بعدما أجبره العقيد طه البامرني على الزواج شريطة عودته إلى دائرة المراسيم العسكرية ضمن جوقة عازفي الأناشيد الوطنية للبلدان الصديقة. كان الشعار ولكثرة كرع الخمرة مع قره تبي يتورط في العزف النشاز ويطرد. يتزوج الشعار لفترة قليلة ثم يطلِّق زوجته ويحاول العودة إلى حياة المجون مع أفندي جميل.

ماتت أم جميل في ليلة باردة من ليالي الشتاء القارصة، وتركت له بيتاً صغيراً في زقاق منخفض قريباً من «مدرسة التفيّض» في العاقولية، وبموت أمه أصبح القره تبي وحيداً كجرذ في مزجج الاختبار.

يعمل القره تبي في قسم البرقيات، ويعد من أمهر الموظفين العاملين في ترجمة البرقيات، بعد دورة احتراف في لندن. كان يجيد «أبجدية مورس» لترجمة البرقيات المستلمة. يعيدها إلى منظومة اللغة في خطوطها ونقطِها إلى اللغة المقروءة. كذلك يعيد تشفير الرسائل المرسلة ثم إدخالها ضمن شريط جهاز «الريزير» وإرسالها لجهات العالم. هذه المنظومة البرقية تنشطر إلى قسمين أحدهما حكومي والآخر مدني لعامة المواطنين. وعند ترقية جميل أفندي

كملاحظ فني أقدم، أصبح المسؤول الأول عن البرقيات السرية الخاصة في حكومة المملكة رغم سمعته السيئة في مجونه وعبثه الليلي.

يجلس في ساعات العمل في غرفة سرية لا يسمح بدخول الموظفين الآخرين لها. ينهمك في العمل يبرق ويستقبل ويحيل المستلم إلى دائرة البريد لتتحول إلى مكاتيب وبرقيات ورسائل.

كانت آخر برقية وصلته من لندن، تحديداً من السيد قدوري إلى إدارة البلاط الملكي: «نود إعلامنا عن يوم وصول الملك المفدَّى. انتهى». أحالها بعد ترجمتها إلى المكتب الملكي الخاص فوراً.

في وقت الفراغ كان يلهي نفسه بحل الكلمات المتقاطعة، ويطلع على أحوال البلد الاجتماعية والفنية وإعلانات الملاهي وحركة الراقصات فيها. أو يذهب إلى النداف لمعرفة المتزوج الجديد الذي عمل لحاف القطن لزواجه. يرصده جميل ويستطلع مكانه في النهار وفي الليل يصعد على كتفي الشعر ليرى المشهد الإباحي للمتزوجين.

وفي نهاية الدوام الرسمي كل يوم يرتدي جاكيته الأسود ويعتمر سدارته ويسلّم العمل لموظف خافر آخر كل يوم.

عندما سأل العقيد عبد السلام عن الموظف البرقي الأهم في جهاز البرقيات المستلمة والمرسلة لحكومة المملكة، كان العقيد يعمل على إتمام خطة الهجوم بدقة وكتمان.

اختير جميل من بين كل الموظفين العاملين على الجهاز البرقي. بعث العقيد بشخص مقرب منه للأماكن التي يتواجد فيها القره تبي. عُثر عليه بعد الساعة الثانية عشر ليلاً، كان مخموراً بملهى الشام في ساحة الميدان يراقص البنت اللعوب «بسعاد البصرية» على المنصة وبيده كأس العرق متفنناً بوضعه

على قمة رأسه أثناء الرقص، ومتبختراً كالطاووس على صوت تصفيق الجمهور له وضحكهم عليه.

أخذه الشخص المرسل معه بالقوة حيث يتواجد العقيد في انتظارهما. لكن المهمة في محاولتها الأولى فشلت، حيث لم يفهم العقيد شيئاً من كلام القره تبي المخمور. أدخله الحرس الخاص إلى الحمام وفتحوا صنبور الماء على رأسه ليستفيق من مفعول الخمرة الثقيلة. في الساعة الرابعة فجراً استفاق القره تبي:

ـ آني وين؟

ـ أنت في وزارة الدفاع قره تبي. قال له العقيد.

بعد جولة تفاوض مضنية معه استمرت حتى الساعة السابعة صباحاً، ليتمّ الاتفاق السري لصفقة تسريب أسرار الحكومة البرقية: «من الحكومة وإلى الحكومة» هذا ما قاله العقيد له. سلّمه في نهاية الجلسة السرية مبلغاً من المال عربوناً لخدمته، مقابل التجسس على كل البرقيات الواردة أو الصادرة من حكومة الباشا والبلاط الملكي.

تمّ الاتفاق السري وجميل أفندي لا يعرف تماماً ماذا عليه أن يفعل بعد الاتفاق، الأهم في كل هذه الصفقة هي منحه هوية خاصة للدخول إلى مرقص القادة الخاص للضباط على نهر دجلة، أيضاً سلمه هدية أخرى في لقاء آخر، عبارة عن مسدس بكرة مع هوية حيازة وحمل لصاحبه.

استطاع جميل أن يسلّم مفاتيح الربط السرية وخطوطها السلكية. كانت الخطة تقتضي بربط السلك الإضافي تحت شجرة الصنوبر العجوز داخل قصر الرحاب. من جانبه يقوم عباس الزنكي لاحقاً بربط السلك لتتم الصفقة السرية وتُكشف أسرار المملكة.

* * *

لماذا أنتم متخلفون عن ركب الحضارة الغربية؟ أجاب الرجل الإسباني بعد

أن فكر كثيراً: «لأننا ننام القيلولة، العادة التي ورثناها من العرب والمسلمين أيام الاحتلال».

القيلولة البغدادية في أشهر الحر لم تكن واجبة حسب، بل تتحول إلى ساعة مقدسة للخدر، يُخطط لها بشكل مسبق ويعمل لها الطقس الواجب. في أثناء القيلولة يستطيع اللصوص ممارسة أعمالهم بعد أن تفرغ الشوارع من المارة. سرقة النهار تكون جريمتها أقل من سرقة الليل وفق قانون المملكة.

قبل حلولها يذهب القره تبي في نهاية الدوام إلى مطعم «ابن سمينة» أو إلى مطعم شهير آخر يدعى مطعم «باب الآغا» ليتناول وجبته المفضلة من الرز ومرق الفاصوليا مع اللبن. في المطعم وجد ضابطاً ينتظره هناك، وبعد الغداء قام باصطحابه حيث ينتظرهما العقيد لإتمام المهمة في التجسس على الرسائل البرقية. وبمحض الصدفة كانت أولى البرقيات المستلمة من لندن بعثها قدوري أفندي يستعلم فيها من الملك عن يوم الوصول إلى لندن.

في اليوم التالي ذهب القره تبي ليبيع المسدس الهدية في سوق «البقجة» عند منطقة الميدان، ثم اشترى بثمنه بدلة سوداء تناسب حفلات الليل في مرقص الضباط الخاص، ومحبس من ذهب للراقصة رحلو. كما اشترى قميصاً أبيض وحذاءً أسود وسدارة فيصلية فرنجية من الصوف الخالص وبطانتها من الحرير الصناعي الناعم، وما زالت الدنانير الفيصلية تثقل جيوبه. كما أهدى آلة موسيقية لصديق عمره موسى الشعّار، لكن الأخير ذهب في السر وباعها إلى الشخص ذاته الذي اشتراها منه الأفندي جميل.

في نهار ذلك اليوم ذاته كانت الحياة من الأسفل تسير بشكل طبيعي في أسواق بغداد وأزقتها ومحالها ومقاهيها، بأنسها ومجونها وعباداتها، ولا من أحداث أو إشارات تدل على ما سيحدث لاحقاً.

لم يبق على ساعة القيلولة إلاّ القليل. كان القره تبي يحاول نشر فكرة الخيانة

ولا يفكر مطلقاً بما ارتكبه من حماقات. ثمة إيقاعات متوالية تطرق مسامعه حين ينصت إلى شخص آخر بداخله يرفض رفضاً قاطعاً ما فعله في التجسس على المملكة.

خيانة، وما الخيانة؟ أنا أعرف أنها بين الزوجين، بين التاجر وشريكه. هكذا تتلاطم في رأسه الوساوس.

انعطف إلى عقد النصارى، وما زالت إيقاعات متلاحقة تضرب بقوة على رأسه، وفي سوق الصفافير يسمع إيقاع المطارق تدق بأنغامها المعروفة على حواف الصواني المزخرفة، فيما المنمنمات تنتظر دورها لزخرفتها. يتذكر المثل البغدادي المستنبط من مكان الحدث «كضرطة في سوق الصفافير» أفكاره في صندوق رأسه ولا أحد يسمع تردد صداها سواه، هكذا كانت خيانته.

في جادة خليل باشا يستمع لطرق متوالٍ لحوافر خيول العربات على البلاط الأسود، الحوذي يلوح بسوطه للحصان ليستمر الإيقاع ذاته في الحياة المعتادة. ثمة إيقاع مرادف يناغم إيقاع حوافر الحصان يضرب برأسه، عسى أن تخفف القيلولة النهارية هذا الصداع من رأسه. يدخل مقهى ملّا جابر في الميدان فتلاحقه أيضاً إيقاعات ملاعق استكانات الشاي بإيقاع نشيد الخيانة. تضرب الملعقة على جدران الزجاج الرقيق لترقص في بحر السائل الأسود المُحلى وتمد لسانها للقره تبي. ينهض من تخت المقهى ليذهب إلى مقهى خليل الخشالي، ثم إلى مقهى عزاوي إلى مقهى الحاج سبع، وعلى امتداد الشوارع المكتظة لصنوف شتى من البغادة باختلاف مشاربهم كلها، هل كانوا يعرفون بفعلته السوداء تلك؟ يتوالى الإيقاع المسموع ذاته متداخلاً في دماغه المصدوع. يذهب مسرع الخطى إلى قنّه ليأخذ قسطاً من قيلولة تكون كفيلة بإنهاء هذا الصداع المدوي.

الحياة في ذلك اليوم من جانبها الشعبي كانت أكثر استرخاءً، إذ كانت الأزقة

البغدادية في ساعة الظهيرة القائظة من ذلك النهار، تهجع في الظلال، والحركة شبه معدومة إلا من بقايا بعض دقّات متوالية لوقع حوافر خيل «الربلات» على «جادة سي» في شارع خليل باشا وأصوات إيقاعات طبل وصراخ كمنجة تحت الضبط وسنطور وجوزة تسيح من نوافذ المراقص التي تستعد في تمرين متواصل لتلك الليلة.

يصل إلى بيته لينطرح على فراشه مستأنساً بخدر القيلولة. ينام حاله حال الرجال في كنف قيلولة الظهيرة من أيام الصيف، بعد إنهاكهم في أعمال يدوية مضنية، في كوَر فخار الطابوق على تخوم بغداد المسوّرة. بعد آذان العصر تدبّ الحركة تدريجياً في شوارع بغداد، تدبُّ معها حركة المطارق من جديد. ينهض رقّاع الأحذية الإسكافي الأعمى من قيلولته الخاطفة على مقعده. يستيقظ صباغو الملابس من قيلولتهم أيضاً قرب قدور الصبغ العملاقة، كذلك ساسة الخيل يقدمون البرسيم لخيلهم الهاجعة في ظلال الخانات، وهي تصهل من شدة الحر في الإصطبلات الملحقة بها، يحاولون تبريد ظهور وخصى الخيل بعانتين من الفلوس فقط.

المكان المفضل للبغادة لأخذ القيلولة في السراديب تحت البيوت القديمة حيث تكون باردة ومظلمة ورطبة، يلوذون فيه أيام الجمع والعطل فقط، حيث تتوقف حياة الكد والعمل المضنيين.

عندما يهجع الرجال في قيلولة قلقة ذلك اليوم، تقوم النساء بنش البق والذباب عن أنوف الأزواج. بينما الصغار يطردون إلى الأزقة أو إلى النهر في تلك الساعات المعدودة، للظفر بلحظة جماع تاريخية توفرها الصدفة المظفرة في ظهيرة ساخنة في القبب العلوية من الأحواش كما في السراديب الباردة.

بعدما استيقظ جميل من إغفاءة القيلولة القلقة، مر عليه طيف رحلو وهي

تتمدد معه في الفراش في أول يوم له معها. وعندما استيقظ وجد المكان خالياً، ضحك من ذلك الحلم النهاري الخادع.

فكر بالذهاب إلى حانة شريف وحداد القريبة والتخلي كلياً عن فكرة إتمام قيلولته، لكن صوت المقرئ في جامع المرجان يرتِّل بعض آيات قبيل صلاة العصر، منعه من الذهاب إلى الحانة المذكورة مبكراً. ثمة قلق يخنق روحه لأول مرة في حياته.

* * *

2

شَعر بنات

أين أُوَلِّي؟ أين أبات؟

بهذه المتوالية الشعرية كان يردد بائع شَعر البنات مناداته اليومية، حتى ردّت عليه صبية ذات جدائل سود: «ستبات الليلة على سطح الدار، لا تخف من «هلس البق» مطلقاً، بشرط ألاّ تزعج البغادة في أثناء قيلولتهم».

يربط زقاق العاقولية الضيق بين شارع غازي وجادة سي، اختارت «حمامة العمية» وهي راقصة تركمانية تقاعدت من الهز بعد تقدم العمر بها، السكن في بيت واسع في العاقولية، كان ملاصقاً لبيت الأفندي جميل من جهة ومن الجهة الأخرى لبيت صديقه الروحي وأنيسه في السهر موسى الشعار، يتحول هذا البيت بمرور الأيام إلى مأوى لأكثر من خمسين راقصة لمعظم الملاهي القريبة من ساحة الميدان.

كان الأفندي غالباً ما يسمع صوت الطبلة أثناء التمارين اليومية في ساعتي القيلولة المجيدة، لكنه لم يشكُ من وجودهن بقربه، بل العكس يحدث عندما يراقب ما يحدث داخل القبب من كوة صغيرة عملها في الجدار الفاصل.

يتجمع في بيت حمامة الكثير من الطبالين والموسيقيين، ويجلب باعة العطور المزيد من العطور التي وصلت البلاد للراقصات وحسب الطلب. تأتي «بدرية البرصة» الخياطة الشهيرة لتعمل «البراوة» الأخيرة لفصال بدلات الرقص

قبل الشروع بالخياطة. حتى الغلمان كانوا يجلبون «الجنابك وجنبارات الأصابع والصاجات»، يدخلون ويخرجون إلى بيت حمامة في ساعات القيلولة، وفي الليل يعم الهدوء في بيتها بعد ذهابهن إلى العمل. وعندما تعرض البيت إلى الحريق الشهير، تعرضت حمامة إلى حروق قاتلة ماتت على إثرها، حتى استدعت الشرطة الشهود من أهالي منطقة العاقولية وكان من ضمنهم الأفندي جميل، وتلك هي المرة الأولى التي يتم التحقيق الرسمي فيها معه. ماتت حمامة متأثرة بحروق قاسية، واحترقت معظم بدلات الرقص وتبخَّرت عطورهن دفعة واحدة. في هذا الحريق يغلق بيت الراقصات، وتنتقل دلال الحمصية إلى السكن في منطقة المربعة، ويخسر بذلك الأفندي دالة مهمة للوصول إلى بيته آخر الليل. تؤجر الراقصة رحلو شقة في الكرادة الشرقية لتتخلص من قرف المنطقة الشعبية وإلحاح جميل قره تبي المستمر لمرافقتها داخل البيت. يعم الهدوء في الزقاق وتحلو قيلولة النهار بهذا الهدوء المؤقت.

حتى السقّاء وبائع بيض اللقلق كانا يخفضان من صوتهما في تلك الساعة كي لا يسببا إزعاجاً لجميل القره تبي. عندما يمرَّان في أزقة (فضوة عرب والفضل والكفاح وصابونجية الميدان والعاقولية وأبي دودو والكولات وعقد الأكراد وتحت التكية والدهانة والجيه بجي وحسن جديد باشا والصدرية وعباس أفندي وأبي سيفين وقنبر علي وسوق الدجاج وصولاً إلى المربعة).

وفي المشهد ذاته تتجول العين السائرة، أعلى من رؤوس السائرين، فيسجل المؤشر غياباً ملحوظاً لباعة الطيارات الورقية والفرارات وباعة الحلاوة الدبسية والساهونية وخياطي الفرفوري وتركيب أسنان الذهب، مشهد الباعة المتجولين وغيابهم من تلك الأحياء في ساعة القيلولة العظيمة للبغادة ينبئ بالمزيد. كان النوم هروباً مؤقتاً من دوامة المشاكل المزمنة، وعندما يصحو الأفندي جميل يستطيع المواصلة وتقبّل تلك المشاكل بروح رشيقة.

كان الباعة من الأخلاق مما يجعلهم يهجعون ساعة حتى حلول العصر ليكملوا مشوار الدوران في زقاق العاقولية، ينتظرون باعة «البخصم» والتهيئة لشاي العصر ليعرفوا موعد حلول العصرية.

لكن منظر شاطئ النهر في ساعات الظهيرة يغيّر كثيراً من سكون المدينة. يهرع صيادو الغلمان والمراهقون والسباحون المهرة للسباحة في دجلة، وتستمر المراهنات في المطاولة لعبور النهر أكثر من مرة، ثم العودة مجدداً لنقطة الانطلاق على الضفاف. كانت اللعبة تثير حفيظة الجميع من المتجمهرين عند الشاطئ في الجهة المقابلة للشواكة. المنطقة التي ستشهد في الغد تدفق دراما الدم بصورتها المرعبة.

* * *

الباب الخامس

التبـنّي

1

الخروج عن النص

في اليوم التالي مباشرةً ذهبت إلى مقهى المعتزلة للقاء الكوني، بعد أن اتصل بي ليلاً لتسليمي قرصاً مضغوطاً لتمارين المسرحية من قراءة النص حتى «البروفا جنرال».

في الحقيقة كنت منبهراً أيَّما انبهار، ليس في تقنيات العرض الفقيرة، بل بطريقة الأداء المدهش لهذا الولد والجوقة والراوي وميسون الكيلاني وياسر عبد اللّه الذي لم أرَ مشهد شنقه، لكنهم يتحدثون بإعجاب منقطع النظير عن قوة تدفق الأداء المثير أثناء التفاف الحبل على رقبته. قال:

ـ ربما يتوقف العمل كلياً؟

ـ السبب؟

ـ لم تصدر إجازة السلامة الفكرية، الست سعاد بديوي لغاية يوم أمس كانت تماطل بالموافقة التحريرية، والمساعي على قدم وساق بينها وبين حبيبها المخرج عبر طرف ثالث هو رئيس القسم. هي أكبر منه بحوالي ربع قرن. لكنها تحاول تذوق العشق بملعقة كبيرة على فمها، تحاول تجربة الحب على كبر، امرأة سلبية من الطراز الفائق، وهي تعرف تماماً أن المخرج لا يميل لها، لكنها مصرة على التعلق به، تحاول استمالته كلما سنحت لها الفرصة بالتفرد به. أما هو فقد كان مشغولاً بالفن المسرحي، مشغولاً بالقراءة ومتابعة العروض العالمية.

أقنع رئيس القسم نورس بمحاولة الاتصال بها. توقع منها الموافقة الخطية على سلامة العمل المسرحي حين سماع صوت حبيبها المفترض نورس. لكن الأمور باءت بالفشل.

أخبرني رئيس القسم، في اتصال هاتفي عن المشكلة التي حالت دون الاستمرار بعرض الفرجة. تحدث لي عن سلوكيات مشينة لهذه المرأة. «كانت غالباً ما تثير المشاكل والزوابع حتى مع كوادر المعهد من الإناث وغيرتها من الجميلات منهن. آخر ما فعلته أنها ادّعت أن الست بيادر الدكتورة في قسم التصميم، وهي من عائلة متحضرة وأرستقراطية وجميلة جداً كفراشة حدائق الصيف، بالإضافة إلى رقتها وأناقتها المثيرة كانت خلوقة جداً، ادّعت عليها ست سعاد بأنها بنت ليل، وتقيم علاقات مشبوهة مع المعاون الإداري للمعهد. تضخمت المشكلة وفُتح تحقيق وزاري بالموضوع، مع نكران سخيف من قبل سعاد بديوي، رغم المكالمات المسجلة لها وتأييد الشهود لهذا العمل المشين. ثم انتهت القضية بتنازل الست بيادر عن حقها، بعدما عملت لجنة التحقيق للمصالحة بدواعي أن كلمة « بنت ليل» التي كان من المفروض أن تدين الست سعاد، أعلنت اللجنة بأن «بنت الليل» لم تكن قدحاً كما أُشيع، بوصف أن كل بنت تجلس في بيتها وتسهر الليل كله، ثم جاء تهديد الحزب الإسلامي الذي تنتمي له سعاد للدكتورة بيادر، الحزب الذي يدعم سعاد، حتى استطاع رجاله من إجبار الدكتورة على التنازل عن حقها وغلق الموضوع.

صدمتي كبيرة ومدوخة بهذه المرأة المثيرة للجدل في معهد الفنون، أكبر من صدمتي في الجانب الإيجابي بنوع الثورة المسرحية الجديدة في الإنضاج الفائق لهذه النهضة الجديدة.

الغريب في الأمر مع تفاقم «البؤس المركّب» في هذه الرقعة، وبالرغم من الخراب المنظم للشوارع والأزقة والتراجع المخيف للحياة المدنية العامة. تحدث

هذه النهضة المسرحية المضادة، يقابلها الإقبال الواسع على مشاهدة العروض التجريبية. الفن يتقدم والحياة في الشوارع والأزقة تتراجع. جعلتني هذه الفكرة في حيرة من أمري.

طلبتُ أيضاً من براق الكوني نسخة ورقية من النص المسرحي، لأتعرّف على تطابق تلك الفرجة مع مخطوطة رواية المغمور، لكن طلبي تبدّد، حين أخبرني الولد الخارق:

ـ إنها فكرة «عماد الآغا» نفسها، اقتبسها المخرج نورس منه شخصياً، فهو كما يبدو من أصدقاء المغمور الحميمين. فهما من منطقة الفضل، بصراحة أستاذ لا يوجد نص ورقي مكتوب، سوى سيناريو أحداث ومشاهد كتبها المغمور قبل موته. هل تعلم أن هذه الثورة يقف ضدها الحرس القديم للمسرح الكلاسيكي في دائرة السينما والمسرح، سوف يقاطعون العرض، ويشيعون أخباراً ملفقة عنه.

ـ هذا أكيد طبعاً.

ـ لا يكفي وقوفنا نحن الشباب العزّل بصدورنا العارية لنسف التراث المقدس لكل معطيات الزيف والتمثيل والمتعة المبتغاة من هذا الفن. هل ما زال الحرس القديم يقوم بإظهار الممثل الكوميدي بدشداشة مقلمة قصيرة؟ هل ما زال الجندي العائد من الحرب محبطاً وكئيباً ودائم البحث عن وجوده؟ نعم، أجيال تقلّد الأجيال الأخرى وتقدس ما قبلها ومن اللّه التوفيق.

عند عودتي للبيت، اكتشفت التطابق الفعلي بين رواية «المغمور له» وبين سيناريو الفرجة المُعَدّ من روايته، بطريقة فيها إتقان واضح ومضبوط النهايات في لعبة ناضجة لمسرحة الرواية. تبدّدت احتمالية الخروج عن النص للولد الخارق، حينما أخبرني في اليوم التالي في المقهى:

ـ إن من فضائل هذا السيناريو المعد بأنه قابل للتطوير الدرامي، كما يتيح

حرية الابتكار حتى في أثناء العرض المرتقب. بعيداً عن هيمنة اللغة وشبح موتها مستقبلاً. قلت له:

ـ كيف هذا مخيف؟ ربما يعني لي الخروج عن النص في لعبة التمادي للتجاوز على الأميرة بديعة والجوقة معاً. هذه لعبة خطرة يا ولد. هل تذكر البطل عطيل عندما تماهى الممثل بتقمص الشخصية. حدثت جريمة كبرى في تاريخ المسرح؟ عندما نشب أصابعه في رقبة ديزدمونة. عندما قام الممثل بدور عطيل وفي لحظة اندماج قصوى خنق الممثلة فعلياً على المسرح وفارقت الحياة على الخشبة وأمام الجمهور مباشرة، ولم يتوقف العرض حتى النهاية، مع وقوع هذه الجريمة التي أدّت لهذا الاقتراف. الفن يطمح للوصول إلى الجمال والمثل السامية.

حاول التملّص من الإجابة بطريقة رياضية، وتركني وسط الظلام متخبطاً بقضية شائكة.

ثم جاء دخول نص الدعاء للأميرة بديعة ـ سليلة عرش الملوك في النص المسرحي مطابقاً تماماً للعتبة التي توّج فيها المغمور «عماد الآغا» باب روايته، أجده والحالة هذه يصطف مع بقايا ثلّة الجمهور الملكي.

أنا هنا أعلن البراءة منه. من الملكيين الأوّلين أو الجمهوريين اللاحقين. بالنسبة لي لم أكن ملكياً قط ولا جمهورياً مطلقاً. نعم أعرف أن الحياد قاتل، كالماء الفاتر غير مستساغ أبداً، إلاّ أن لزوم الحياد يتيح حرية التبصّر في بطن التاريخ، وفي بغداد تحديداً.

اتضحت حقيقة البغادة وانقسامهم الواضح بين ملكيين منغمسين في روحها، الأفندية منهم أصحاب السدارة والعباءة المذهبة و«الجراوية» الدائرية على الرأس الكبير، حتى المدمنين منهم على الحضور في جلسات الجالغي والمقام

وحلقات الذكر والدروشة والمواليد، أو القسم الآخر من جمهوريين يتغزلون في الأزياء الخاكية. الشيوعيون يصفون الزعيم قاسم بالرجل الوطني، يقدّسونه، بل آمنوا إيماناً عظيماً بظهور صورته قبل عام جرذان الوباء على وجه القمر، أو حضوره وسط قرص الخبز وحبّة الطماطم، أو على أظفر الجنين الوليد. الملكيون وصفوه بالخائن والانقلابي المقيت، والسبب في نكبات البلد وخرابه. فريق ثالث ظهر بين الفريقين لم يحسم أمره إلاّ في تسعينات الحصار، ارتموا بأحضان الماعون الإسلامي الواسع ليشفع لهم دعاته عن ذلك الضياع. هؤلاء الوسطيون فضلوا الارتماء تحت عمامة عملاقة للتخلص من أزمات ماضوية أو مستقبلية بعيداً عن قلق الشك وأزمة الوجود أو التفكير المقلق. لذلك تخلفت عن الفرق الثلاث وبقيت خارج دوائر مواعينهم.

كان الفرق بسيطاً بين الفرقاء، مجرد حزمة ألوان متنافرة بين لوني الجمهورية والملكية. الفرق بين السدارة السوداء والبيريه العسكرية كالفرق بين المسدس والهراوة، بين عصاً غليظة ومسدس محشو.

* * *

2

مصالحة

في مقهى المعتزلة رحت أتأمل شكله بشيء من الغزل، متأملاً تقاسيم وجهه الجذابة، حركاته، ملابسه ومزاجه المتذبذب. بصراحة وبعد هذا التأمل ظهرت النتيجة؛ إن هذا الولد يمتلك جاذبية عظيمة. أتاح لشعره الأسود الداكن الاسترسال ليأخذ شكلاً حلقياً ومكوراً كشجرة كتّة، متمثلاً بجماعات «الهيبز» أو ربما يحاكي بصَرياً شكل الزنوج المتمردين في شوارع أمريكا الخلفية. يرتدي على الدوام الجينز الممزق و«التي شيرت»، يضع على كتفه حقيبة جلدية من الجينز تتدلّى على أسفل خصره. يكثر من وضع الإكسسوارات على رقبته ومعصميه، وقد وشم على معصمه كلاماً ملغّزاً، لا تفك شفرته بسهولة. شخصية بصرية وإشهارية بامتياز، لكنه والحق يقال استطاع أن يتحملني كثيراً بكل عنجهية العمر المتدني:

ـ براق الكوني حتى تكون نجماً لامعاً، عليك أولاً وأنت في بواكير انطلاقتك الأولى أن تحافظ على اسمك الفني، الكوني اسم لافت ويليق ببراق.

قلت ذلك ناصحاً له بحكمة المنجّم والعارف والحكيم. محاولاً الغوص في أعماقه ومعرفة فلسفته بالحياة.

ـ لماذا أستاذ؟

ـ من الأفضل لك يا ولد في مرحلة تألقك وصعود نجمك، أن يكون اسمك داعماً لك في الجاذبية المطلوبة. كارزما عزيزي.

ـ ممكن جداً.

ـ ما هي أخبار الست سعاد بديوي؟ هل وافقت على العرض، أم ما زالت تماطل؟

ـ ما زالت تماطل. حبيب الأحلام عجز عن إقناعها للموافقة. ربما سنشكّل وفداً والذهاب إليها. وأنت أحد أعضاء الوفد. هذا مجرد اقتراح من رئاسة القسم.

ـ أنا موافق طبعاً. من أجل عرض الفرجة سأذهب معكم.

في اليوم التالي ذهبنا عصراً إلى بيت الست سعاد. كان الوفد يتشكل من مجموعة أساتذة المعهد، من بينهم الأستاذ الكئيب والمريض بضغط الدم المرتفع، ورئيس القسم الأقرع، وأستاذ المراجعة التاريخية وآخرين، ومعنا المخرج نورس.

كان دليلنا نورس ويبدو أنه يعرف مكان البيت بشكل دقيق. جلسنا بانتظارها في غرفة الاستقبال. كانت الجدران عبارة عن معرض مدرسي غير متناسق، بصور شبحية لشخصيات دينية كثيرة وآيات مزججة وأكبرها كانت آية الكرسي، وثمة مائدة وسط الغرفة عليها كتاب القرآن وتحته قطعة من قماش أخضر.

اختارت عندما حضرت مكان جلوسها مقابل المخرج نورس الحلو. ثم دارت نقاشات كثيرة وتفاوض مضنٍ حول المشاهد التي تروم حذفها من العرض بدعوة الإساءة المتعمدة للنظام الإسلامي الجديد والذات الإلهية، قبل الموافقة على عرض الفرجة.

انتهت الجلسة التصالحية بموافقتها بعدة شروط جديدة، منها حذف مشاهد التكبير، ومشهد إعدام جميل القره تبي من العرض ومشهد نزول الأميرة هيام زوجة الخال بملابس النوم. المشاهد المحذوفة رغم أهميتها وخاصة مشهد القره تبي يعني كارثة واختلال في بناء وسياق العرض، لكن المخرج ورئيس القسم

وبعد إلحاح منا وافقا على مضض. اعتبرتها الست عقبة مقلقة لتعارضها مع الثوابت الإسلامية حسب ما تقول.

لكنها من جانب عاطفي كانت تنظر إلى المخرج بنظرات مرتبكة، لا تستطيع فيها الارتماء في حضنه أو تحت قدميه. الجميع هنا يعلم بقصة الحب بينهما، لكنها الوحيدة التي لا تعرف أنها مصدر تنابز معظم طلبة وأساتذة المعهد عن تلك العلاقة غير المتوافقة. في نهاية جلسة المصالحة تقدم رئيس القسم بشكرها، وشربنا الشاي بعد أن تمّت المصالحة، ثم أجبرنا المخرج بالقبول وتقدم منها لكن من دون مصافحة باليدين لشكرها على موافقة العرض:

ـ وماذا أفعل بالممثل «ياسر عبد اللّه» الذي تعب في تقمص دور القره تبي في مشهد الإعدام؟

انبرى رئيس القسم لتفادي تعكير جو المصالحة من جديد:

ـ امنحه درجة كاملة على جهوده في التمرين وينتهي الموضوع.

ـ لا أعتقد أن ياسر العنيد سينصاع للدرجات مقابل الجهد الذي بذله في إدراك شخصية القره تبي. كان يتمرن يومياً وتحول إلى شخصية انغماسية في الخيانة بقدر ما تطلع إلى حالات الإعدام، وماذا سيفعل الحبل في فقرات الرقبة. نأتي ونقدم له الخيانة على طبق من ذهب. هذه جريمة بحقه.

ـ بذلك سنقدم ماعوناً من ذهب للخيانة له، علّه سيقبل بطعمها.

هذا ما قاله الرجل الأقرع وهو يهم في النهوض لتنتهي جلسة الصلح هذه بهذا الشكل.

* * *

3

ظهور السيد المنذري

((مغمور بغدادي))

في اليوم التالي عندما حضرت مقهى المعتزلة، كنت أطيل النظر في عيني الكوني، وهذه السحابة من الحزن التي تحوم حول عينيه.

ـ ما بك كوني؟

ـ حزين على مصير ياسر، الولد حريص جداً على تأدية الدور، يتطلع إلى منافستي بشرف، بين دوري كقاتل ودوره كمقتول. حتى هذه الساعة لا أحد يستطيع إخباره عما جرى البارحة في جلسة المصالحة، عن دوره المحذوف من الفرجة. للأسف حزين جداً عليه. ترى ماذا يفعل عندما يسمع بهذا الخبر الصاعقة؟ لا أعرف.

هذا الاستثنائي كان أكثر من كونه مختلفاً عن بقية كل الممثلين التقليديين من أقرانه. المؤدي الذي يتلمس الطريق في عوالم ثورة المسرح العراقية الجديدة. من المؤكد أن تكون هذه الثورة مغرية لفئة الشباب بطريقة لافتة وجاذبة. المرحلة أفرزت نوعاً من النزوع الغريب عند الشباب في تجاوز الأوَّلِين، فمرحلتهم الخارقة كما يصفونها كفيلة بجعلهم ينسفون الأوَّلِين واللاحقين، وهذا الولد الخارق براق الكوني فلتة زمانه كما قال عنه رئيس قسم المسرح في زيارتي الأخيرة للمعهد:

ـ الكوني نسف كل طرائق التمثيل المعتادة القديمة والجديدة من ستانسلافسكي حتى بيتر بروك وصولاً إلى أنطونين آرتو، يحاول بعقله المتقد أن يتجاوز الجميع، لكنه اعتمد على نظرية غير قابلة للتطبيق حسب رأيي.

في إحدى المرات وفي جلسة مطوّلة في مقهى المعتزلة، انفتح معي في الحديث بأريحية عن تجربته في استبدال الطريقة الفنية وتنقيتها من شوائب التمثيل التقليدي والعاطفي نحو صوب الأداء الخالص. الطريقة التي يستدل بها على بواطن الشخصية ثم تفجيرها على المسرح بنشوة استعادة اللحظة التاريخية.

ـ ماذا تقصد براق بتفجير الشخصية، هل تضع لها عبوة لاصقة مثلاً؟

ـ لا طبعاً أستاذ. تفجير الشخصية أقصد به نفخ الروح فيها بطريقة غير معهودة في فنون التمثيل السائدة. شخصياً أفضل طريقة لإدراك المشاعر الإنسانية الغائبة واستعادتها. ربما تكون المهمة عسيرة لكن المحاولة الجادة تشفع لي.

ـ أنتم جيل ما بعد الكارثة.

ـ بل نحن الكارثة التي تمشي على قدمين. النظرية العراقية التي سحرتني وتبنيتها شخصياً على طريقة التبني التي تؤمن بها حضرتك، كان مبتدعها شخصية عراقية معاصرة مغمورة أيضاً، يدعى «السيد المنذري».

ـ بالمناسبة براق، ما قضية المنذري الدائرة هذه الأيام في بغداد؟

ـ المنذري شخصية معاصرة يؤمن بخوارق الأفكار اللاشعورية. الرجل يعيش في غرفة طينية على نهر دجلة قريباً من شارع المتنبي من جهة الكرخ. المريدون والعشاق يتكاثرون من حوله بشكل متزايد مما يقلق الحكومة. يتبنّى الكثير من

الشباب المثقف المؤمن طريقة زهده وحياته الاعتزالية ونظريته الغريبة. اختار هذا المكان ليكون قريباً من مراقد أعمدة التصوف البغدادية الواقعة على نهر دجلة.

ـ أووووووه. تصوف! يبدو أن قسوة الواقع العراقي كانت سبباً في بروز هذه التيارات المخيفة المتكررة في أفكارها.

ـ نعم ولكن بشكل مختلف هذه المرة. يعقد حلقات الدرس اللاشعوري. خصّص حلقات استثنائية للفن الأدائي كدروس خارقة ولا شعورية. تقوم نظريته على محور الطقس التماثلي.

ـ سمعت بالرجل كثيراً. لكني لم أره. ولم أسمع بنظريته.

ـ يعيش هذه الأيام متخفياً، فهو مطلوب لجهات عدة، منها حكومية إسلامية أو مدنية علمانية ومن كل الأطياف. الطوائف توحّدت للمرة الأولى على قتله. هل سمعت أستاذ بنظرية التماثل الطقسي؟

ـ لا طبعاً من أين لي أن أعرف. المنذري كما ذكرت مطلوب ومتخفي. أنتم الشباب تميلون للتشبث بهكذا نوع من الشخصيات الغامضة. أخاف أن يكون من جند السماء مثلاً.

ـ بالتأكيد لا. يذكر السيد المنذري في واحدة من محاضراته، عن محور اللغة حيث يقول: «لا يمكن دخول اللغة في فضاء التماثل الطقسي، بل من الممكن تجسيدها حسياً في الأداء الطقسي». بمعنى أن السيد المنذري يعيد إنتاج الطقس التماثلي لمرة واحدة، وهذا حسب وجهة النظر هذه لا يمكن إعادة الطقس الديني كل عام مثلما يحدث في العراق، ومن جانب آخر هو يؤمن بإلغاء التمثيل في الطقس الديني، ويطرح نظريته هذه لإعادتها بشكل حقيقي، طقس التعزية مثلاً يجب استعادته «التماثلية» لمرة واحدة فقط. هذا ملخص مبتسر لدرس «الطقس التماثلي» الذي يتماهى مع نظرية غربية أدائية لاستعادة لحظة

التاريخ، تلك التي حدثتك عنها سابقاً. وعموماً سيكون العرض الأدائي المقبل لفرجة «الأميرة والجزار» خير تجسيد لتلك الأفكار التي بعضها لا يمكن شرحه من خلال الحوار.

ـ سمعت كلاماً كثيراً عنه في المقهى، قيل عنه أنه يصغي كثيراً للغناء الصوفي المعاصر.

ـ يستمع لفرقة ابن عربي للإنشاد الصوفي ولكريمة الصقلي والشيخ أحمد التوني وعبد الرحيم عبد المؤمن ومكناس الهادي ويحيى البهقني وفرقة الحامدية الشاذلية، يميل لسماع الطريقة الشعبية الصوفية للمصريين، ينشد لعمر الخيام وجلال الدين الرومي والحلاج والحبوبي أشعاراً مغناة بطريقة مقامية مريحة للنفس البغدادية الهائجة. هل تعلم أن واحداً من دروس مدرسة المنذري يجيز فيها التلذذ بالخمرة من أجل ترويض النفس ومداعبتها وتشذيب الأعشاب الضارة منها في لحظة سريان الخمرة؟ في ساعة الانتشاء يتوقف عن الخمرة كي لا تدخل في الحرام. والغريب أنه ينفي تصوفه أو ميله للصوفية.

ـ وما هي المفاجأة التي ستفجرها في العرض المرتقب؟

ـ سيفقد العرض قيمه الفكرية الجديدة، إذا ما تحدثت عنه الآن، ثم أن الأداء التماثلي سيكون أفضل بكثير من الشروحات إن تكتمّت عنها.

ـ أنا من أخذت على عاتقي تبنيك شخصياً، وسأتواصل معك من أجل لحظة تاريخية مؤمن بها. تلك لحظة أحلم فيها كثيراً حين يتسامى الأداء الذي يلامس الروح في عرض الفرجة. ستكون أنت حدثاً مهمّاً في تاريخ بغداد الإبداعي. وعليك أن تختار بيني وبين المنذري هذا.

ـ شخصياً أنا قبلت بهذا التبني أستاذي الكبير، ولا أجد فرقاً بينكما، بل أنتما مكملان لبعضكما. لا تهتم؛ سنجري التمارين الفكرية معاً في ركن المعتزلة من المقهى أو في البيت أو حتى في الحانة.

ـ ممتاز. هذا مدعاة فخر لي براق.

ـ لكن لا يمنع كوني من تلامذة السيد المنذري، الذي يسمونه معظم جُلّاس مقهى المعتزلة بالصوفي الجديد، نعم لا أكتمك سراً أن المنذري تجاوز المدرسة الصوفية الفكرية الكلاسيكية، حتى أنتج لنا المدرسة المنذرية. حتى جماعة ركن المعتزلة هنا في المقهى يكنون له جل الاحترام رغم سخطهم من كل الأفكار والشخوص على السواء.

ـ جميل جداً وعسى ألا يتقاطع شغفك بالمنذرية مع نظرية التبني.

ـ أبداً أستاذ، الرجل منفتح جداً على الأنماط الإبداعية غير التقليدية من الفنون الحديثة.

ـ منفتح جداً!

ـ ما قصدك أستاذ؟

ـ لا شيء. كفّك يا ولد. نحن متفقان تماماً.

ـ والآن مضطر للذهاب إلى المحاضرة قبل أن أفصل بسبب الغيابات، تحياتي أستاذ.

* * *

4

السدارة الفيصلية

وقع خبر المجزرة على قره تبي كالصاعقة، وقد أخذ منه الخوف والقلق مأخذاً عظيماً، ولم تستطع الخمرة والكيف الليلي إيقاف تداعيات هذا القلق. بعد نجاح ثورة العسكر.

حُجبت الصفحة المنوعة التي تهتم ببورصة حركة الراقصات من ملهى إلى آخر من جريدة الزوراء، كما وحجبت أيضاً حركتهن في بيوت الدعارة المسجلة رسمياً في مراكز الشرطة بعد الحريق الذي حدث في بيت «حمامة العمية». حتى حصل تشتتهن في مواخير سرّية. تأثرت بورصة الراقصات وسجلت انخفاضا ملحوظاً في المراقص، مثلما ارتفعت أسعار العرق والويسكي في الملاهي إلى الضعف.

اقتحم «الخاكيون» أماكن اللهو الليلية، وكثرت حوادث إطلاق النار فوق رؤوس الزبائن، مما أفزع الحمائم الراقصة وأثار صراخهن، فتزاحم الخلق على الأبواب هروباً من الأماكن غير الآمنة، مما زاد من حيرة القره تبي وقلقه من شبح الثورة ورجالها والتي تورط فيها ولم يعرف مصيره بعد. كان حزيناً على جميلته الراقصة رحلو التي أخبرته أنها مجبرة على العودة إلى الشام بعد نجاح الثورة واقتحام الملاهي ومضايقتهن:

ـ وأنا أين أذهب؟ لا أتصور وضع بغداد من دونك. أرجوك لننتظر الأوضاع

المقبلة ربما تستقر وتعود الأمور إلى سابق عهدها. بغداد من دون الرقص والهز والليالي الملاح لا تعني بنظري ذرق عصفور يتيم.

ثمة تغيرات طرأت عليه بعد الثورة. بقي على كرسي الوظيفة حائراً لا يعرف ما ينتظره، بالرغم من تخلصه من سدارته الفيصلية مسفراً عن شعره الأسود الكث. السدارة والبدلة السوداء علامتان ملكيتان غير مرغوب بهما.

ماذا سيفعل به العقيد بعدما تعطّلت منظومة البرق في اللحظة الحاسمة؟ كان شبح الإعدام يحوم في رأس القره تبي عندما سمع وعود التصفية للخونة وعملاء الملكية في بيان مقتضب من العقيد نفسه. حاول المرور على بيت العقيد في حي العميان في الأعظمية، لكنه وعندما وصل مقابل سينما الأعظمية، عزف عن فكرة لقاء العقيد، وربما سيذكّره بعطل الجهاز البرقي، وربما سيحيله مخفوراً إلى القضاء. رجع خائباً يجرجر الخطى لا يعرف ماذا يفعل؟ كانت البيانات الصادرة من مجلسها تؤكد نيّة محكمة الثورة بمحاسبة كل الأطراف المتواطئة مع حكومة المملكة وتصفية الخونة كلا حسب خيانته في الأيام القادمة.

يفكر في إجابة مقنعة للبرقية التي بعثها بها الملك فيصل الثاني إلى ملك الأردن، فقد وصلت في الوقت المناسب، من دون سرقتها أو قطع الاتصال كما كان متفقاً عليه معه. لقد أذيع خبر الثورة في الإعلام العربي في الحال، وصرحت المملكة الهاشمية عن سر الأسرار بعد فشل القره تبي من اصطياد البرقية المرسلة. لم يصطد البرقية قبل إرسالها مثلما كان المخطط لها، وعلى القره تبي الخضوع لحكم المحكمة حين الاستدعاء. ذلك ما صرح له صديقه الموظف الخافر في دائرة الاتصال والبرق. يتحمل القره تبي النتيجة المأساوية لعدم تمكنه من اصطياد البرقية الأخيرة التي عكّرت مزاج العلاقة مع دول الجوار وانزعاجه شخصياً من الأفندي والزنكي معاً.

تبخرت كل الوعود بحلم الصعود والارتقاء الوظيفي مثلما وعده العقيد. فشلت الخطة بالرغم من نجاح الثورة. ذهب إلى دار الإذاعة عصر أحد الأيام ما بعد الثورة، ليشرح للعقيد ملابسات الفشل، لكن طلبه تم رفضه، بذلك أدرك زعل العقيد عليه وتبخر الحلم بالصعود.

أخيراً وفي ساعة نحس، تمّ استدعاء القره تبي إلى المحكمة بعد فترة من نجاح الثورة لضبط إفادته عما حصل. وضع في غرفة صغيرة في وزارة الدفاع أمام ضابط برتبة نقيب ليدلي باعترافاته كاملة عن سبب فشل اصطياد خط البرقيات الصادرة من القصر في اللحظات الأخيرة.

قال له المحقق:

ـ الآن سيد جميل جاء دورك لتدوّن اعترافاتك كاملة وعرضها على قاضي التحقيق، عن فشل تعطّل خط البرقيات. هذه رغبة العقيد شخصياً في معرفة ما حصل جميل أفندي.

ـ ما جرى لنا في ذلك اليوم الخرافي كان بمثابة صدمة حقيقية، أسجله لك الآن بتفاصيله سيدي النقيب، كي تدرك حضرتك أن ما حدث ليس مجرد مشهد تمثيلي ليوم القيامة فقط، إنما تمرين عملي لانقلاب الدنيا.

لم يكن يخطط في رأسه مسبقاً الإجابات الدقيقة على كل الأسئلة المباغتة، ولم يضع لها السيناريو المقنع للإجابة، مما زاد في وضع القره تبي في دائرة الشك لسلامته العقلية.

ـ انقلاب نعم يا سيدي النقيب بما تعنيه الكلمة، ففي كل يوم تحدث انقلابات كبرى على مستوى البلدان وما يصاحبها من هرج وفوضى، انقلاب بمستوى انقلاب الزوجة الصالحة على زوجها وهي تدير ظهرها له بالفراش، تضع الزوجة مؤخرتها الدافئة بحضنه، فتلك طريقة عراقية في زعل الزوجات. وما هي ساعة

تمر حتى ينقلب الزوج ويفترس الزوجة بالقبل ليصحح الموقف وتقبل الزوجة الصلح وتتم العملية بسلام. هذه إفادتي سيدي النقيب.

ـ أأنت مجنون؟ يا زوجة يا انقلاب يا بطيخ! أريد منك أن تحدد إجابتك ليدونها كاتب التحقيق عن عدم تمكنك من تنفيذ الواجب في ساعة الثورة. أبرق الملك برقية لملك الأردن ولم تستطع حضرتك من اصطيادها. أجب عن هذا السؤال فقط.

ـ سيدي كل ما في الأمر، أن الجرذان قد قرضت العازل الذي يحمي السلك تحت شجرة الصنوبر وحصل ما حصل. بإمكانكم استدعاء الجرذ القارض والتحقيق معه.

ـ أنت مكلف من الضباط الأحرار بمهمة وطنية، وبخلاف تنفيذها تدان بالخيانة. ماذا تقول؟

ـ ماذا أقول؟؟ من هم الضباط الأحرار؟ ما هي المهمة الوطنية؟ أنا جميل قره تبي سيدي النقيب، موظف بسيط وعاشق الليل والأنس فقط.

ـ لقد سببت حرجاً عظيماً لحكومة الثورة مع دول الجوار، هل تدرك ما فعلت؟

ـ كلا سيدي. كنت مخموراً في الساعة الخامسة فجراً. ولا على السكران من حرج. كل المحاكم في العالم لا تأخذ على السكران جنحة أو جريمة.

* * *

الباب السادس

الفصل الثالث لرواية المغمور

1

قدوري بيك

لم يكن يوم الأحد الثالث عشر من تموز 1958 يوماً عادياً بالمصادفة، فالأيام الغابرة التي مضت متشابهة في بعض تفاصيلها بحوادثها اليومية.

كل شيء محض مصادفة هنا، يعيش ويحيا البغدادي بالمصادفة العجيبة، لكن الغريب في الأمر أنهم يموتون بتخطيط مدروس إلى حد الحذافير الدقيقة منه. المصادفة هي العقدة الملتبسة التي تتحكم بالتاريخ اليومي لحياة البغادة، ثم تتحول إلى أزمة حياتية ملفتة للنظر. حتى الآغاني البغدادية كانت تغازل المصادفات العجيبة. الملك يكون ملكاً بالمصادفة العجيبة، لكن موته حتماً لم يكن محض مصادفة مطلقاً. كل الملوك والرؤساء يقتلون ويسحلون بتخطيط مدروس بعيداً عن المصادفة.

تذكر نشرة الأنباء العامة أن الملك الصغير فيصل الثاني المُفدَّى، وفي ساعات ذلك اليوم التموزي الحارق، كان يتهيَّأ وفق برنامج البلاط للسفر صباح يوم غد خارج حدود المملكة، على متن الطائرة «فايكاونت» التابعة للخطوط الجوية العراقية.

وردت في وثيقة كتاب البلاط الملكي أسماء أخرى للوفد. سيرافق فخامته إلى لندن رئيس وزرائه الباشا العليم «نوري سعيد» صاحب البديهية الحاضرة على الفور والطرفة الجاهزة بقوة كل حين. إنه ثعلب السياسة العراقية ومهندسها

بحنكة العارف الخبير. الشخصية العامة والشهيرة وعاشق الحياة الشعبية بخمرتها المحلية وفطورها الصباحي من الكاهي والقيمر والكباب المشوي على الفحم، وبمعية الوفد أيضاً وزير الخارجية المدني والمتحضّر الأنيق «توفيق السويدي»، ومعهم أيضاً خبير أمن البلاد «فاضل الجمالي».

ستحط الطائرة أولاً في استنبول ليومين فقط لحضور مؤتمر رؤساء دول حلف بغداد، موضع الخلاف في دهاليز سياسة المملكة والمناوئين له، ومن ثم تنطلق في رحلة السفر الطويل إلى لندن لحضور مؤتمر بريطاني عراقي في أروقة مكاتب وزارة الخارجية الإنكليزية للبحث في موضوعة الكويت الشائكة والمعقدة، يأتي ذلك استكمالاً لاجتماعات سابقة في الشأن ذاته قد بدأتها حكومة الصغير في بغداد العاصمة الملكية.

سبقهم بالسفر إلى لندن رئيس التشريفات الملكية السيد البدين «قدوري بيك» لكي يشرف على منهاج الاستقبال ومكان الإقامة وتثبيت جداول الاجتماعات المزمعة في دهاليز الخارجية البريطانية. بمعيته أيضاً موظف تدوين المحاضر الرسمية السيد سالم بيك المدفعي صاحب السدارة السوداء والقلم الباشط.

كان السيد قدوري شغوفاً بأكل «الباجة» الأكلة العراقية الدسمة، لذلك يحرص على أخذ طباخه الخاص معه إلى لندن لسلق لحم رأس الخروف بطريقة عراقية مبتكرة، فأدخل اسم طباخه الموصلي «بشير كرشة الحمداني» ضمن مرافقي الشخصيات الملوكية، بمحاولة منه لإثارة إعجاب الساسة الإنكليز وضيوفه من الدبلوماسية العالمية آنذاك بمجهود المملكة العراقية في تطوير الدروس العملية «فن الطبخ بنكهة بغدادية»، وسيشرح لهم طريقته المبتكرة تلك بأكل «الكوارع» بالأصابع الخمس مع عصارة النومي المجفف المعروف محلياً بـ«نومي البصرة»، بعد تناول كؤوس الويسكي الاسكتلندي مع التمتع برائحة السيجار الكوبي أو التبختر بنكهة التبوغ الهولندية الباذخة في تعبئة الغليون المعقوف أثناء

السهرات. حتى اشتهر قدوري أفندي كونه صانع السهرات الصاخبة والشخصية الفكاهية المعروفة في أروقة السياسة الإنكليزية.

* * *

2

رأس غنم عراقي

مشكلة السيد قدوري وقلقه كانت محصورة بالحصول على رأس غنم طازج من مجزرة محلية من ضواحي لندن. تلك مشكلة مستعصية بالنسبة له، فأغنامهم تختلف من حيث الطعم والنكهة عن الأغنام العراقية، وليست بذات الطعم المملوح، ذلك ينعكس سلباً على طعم أكلة الباجة التي أدمن عليها في سهراته الليلية المتواصلة.

الخراف الإنكليزية باهتة الطعم، وخالية من أية ملوحة تذكر، تسقط من الفم لفرط «البهتان والفهاوة» وبعيدة عن لذة النكهة العراقية وخاصيتها، هذا ما صرح به قدوري لصديقه سالم بيك المدفعي. الأمر الذي جعله يبرق برقية إلى سكرتير الباشا ليخبر بدوره الطباخ الهندي بما هو فاعل. ولم يأتِ الجواب على برقيته، البرقية التي أفلح جميل أفندي في اعتراضها بنجاح، لكنها لم تفرح العقيد، حيث اعتبرها أمراً تافهاً، مما سبّب إزعاجاً لجميل وأشعرته بساعات من الاكتئاب. أما قدوري فقد استجاب لنصيحة الطباخ الموصلي بزيادة البهارات الهندية والليمون، بذلك تكون الطبخة تقترب من طعم «باجة الحاتي» الشهيرة في بغداد، هكذا كان يفهم قدوري معنى مصطلح المطبخ السياسي للبلدان.

«كدوري» وهو لقبه في دهاليز البلاط الإنكليزي والدبلوماسي العالمي، شخصية ظريفة وجذابة من بقايا الحاشية العثمانية وخريج مدراسها الحربية،

ولا يأتي اليوم الذي يقول به أحدهم أن العراق قد خلا من الشخصيات الجذابة الفكاهية. فالمعدة حسب نظرية قدوري هي الطريق الأمثل لقلوب الناس في كل مكان وزمان.

أما الملك فقد كان ذلك الصباح مرحاً وحيوياً وجاهزاً لهذه السفرية الطويلة، يدندن بأغنية لسليمة مراد باشا «هذا مو إنصاف منك...»، وفي طريقه إلى مكتبه مرتدياً بدلته السوداء مرَّ على فلاح الحديقة عباس الزنكي وحيّاه بتحية اعتاد عليها بهزة رأس منه، ثم تأمل من بعيد التدريب الصباحي للحرس الملكي بكامل قيافتهم ونشاطهم، راوده الشعور بالاطمئنان على المملكة والبلاد. لكنه لم ينتبه إلى غياب صوت الفواخت في أعلى القصر أو على شجرة الصنوبر العجوز.

طلب من حاجبه الزنجي «مراح» أن يقول له نكتة جديدة لم يسمعها من قبل عن الجنوبيين، كانت النكتة من السخف بحيث كان الملك ينتظر نهاية صادمة له، قبل أن يصمت مراح معلناً نهاية غير موفقة لها، حتى انفجر الملك الصغير مقهقهاً بصوت عالٍ في أرجاء الباحة الملوكية في القصر.

ـ نكتة بايخة... اذهب اللّه يلعنك مراح في المجيء والرواح، هههههه.

في لندن حيث يستعد السيد قدوري للتهيئة لقدوم الملك، كما خصصت وزارة الخارجية الإنكليزية سيارة رسمية لجولات السيد قدوري، ليجهز مكان إقامة الملك وحاشيته والوفد المرافق له وشراء مستلزمات رؤوس الغنم لسهرات الليل. ثم ينعطف قدوري أفندي ليلعب الروليت في واحدة من أهم الحانات الأرستقراطية، كان يخسر أمواله ويضحك على خسارته، ثم يذهب بعد إفراغ جيوبه لتكملة السهرة، فقد حان موعدها مع الوفود الرسمية في فندق الهلتون، ثم تنتهي السهرة المعتادة بالإجهاز على صينية الباجة والكرعان في نهاية كل حفلة.

* * *

الباب السـابع

المـــؤدي

1

إنفلونزا الفشل

تتكرر الجلسات في مقهى المعتزلة كالعادة، كنت جالساً هذه المرة أتلذذ بمغازلة استكان الشاي المنتصب كتمثال مخذول على ماعونه الصغير، معتزلاً كجماعة المعتزلة، الذين لا يعجبهم العجب العجاب، بعيدين عن اللذائذ الحياتية العامة. عوّدت نفسي في حالات كهذه ألا أشغل نفسي بالتفكير المحتدم مكتفياً بالتلذذ في الفراغ فقط. لا أحب مراقبة رواد المقهى مطلقاً، مثلما أكره مراقبتي من قبل الناس. الرائحة وحدها هي التي تشغلني. أحللها بطريقتي الخاصة، وأحيلها وفق خيالي إلى رؤى قابلة للتصديق.

تأخر الولد براق عن موعد حضور اللقاء، وعندما اتصلت به قدم اعتذاره للحضور، من دون ذكر الأسباب. ثم التقينا في اليوم الآخر في المكان ذاته.

الكوني شاب عشريني في ريعان عمره. ينحدر من أطراف بغداد، قتل أبوه في الحرب الأهلية في عام 2007. وبقي يعيش مع أمه وأخته في بيت صغير في منطقة المحمودية. ثم استطاع أن يقنع أمه للتخلص من هذا البيت، والتخلص أيضاً من شبح الأب الذي يخيّم على ظلال البيت، وشراء آخر أصغر في بغداد. ثم انتقل فعلياً للسكن في بغداد بعدما تم قبوله في المعهد.

يمتلك دفقاً هائلاً من الطاقة الإيجابية، يبحث عن استغلالها لبلوغ مراتب النجاح. هو مؤدٍّ من طراز خارق، رغم مقته للتمثيل، كان يحذّرني دائماً من ذكر

كلمة «ممثل» يستبدلها دائماً بمفردة المؤدي: «من المجحف أن نحصر مفردة المؤدي في الحقل الإنشادي والغنائي، هناك أداء مبهر للناس على سطح الحياة الساخن». ذلك ما يصرّح به في جلسات التلاقح الفكري بعد موافقته المبدئية على مشروع التبنّي حتى وإن كان بين جيلين مختلفين.

لا أعرف بالضبط سبب بقائه في بغداد تحت سياط كل هذه الظروف العدوانية القاسية، والمفاجئات اليومية المرعبة التي تتربص بالشوارع. غدت بغداد مدينة طاردة للجمال والإبداع معاً. المتشبثون بالبقاء فيها هم عصبة من «عصاميي مبدأ القسوة» والتلذذ بالمآسي لمسرحة الحياة الآثمة بطريقة تتيح التشفّي من غولها المتبختر في كل مكان. الشوارع تناصب العداء للأرصفة، والأرصفة تغتال الماشين فوقها. المشاة فوقها سلّموا حياتهم للمصادفات العجيبة. فن دراما الشوارع يتطور بشكل ملفت ليتجمل القبح بلباس العنف بصورة ملفتة. البقاء في ظروف بغداد المسننة مجازفة انتحارية، الظروف العامة تجعل الفرد ينغمس في بدن الجماعة ونبذ الفردية. لا يسمح للخصوصية بالاستقلال، الحواجز والسيطرات تدعوان إلى عمومية سياسة القطيع بالانصياع إلى أوامر شمولية قاسية. الدراما تتطور بشكل كوميدي أسود مميت. خلطة محبكة من الفنتازيا والكوميديا السوداء تتيح للفرد الهروب ومغازلة «حياوي دوخة» السكير الذي أدرك كوميديا الحياة. لا أعرف سبباً لبقاء الكوني ونورس وياسر عبد اللّه والمنذري على قيد الحياة حتى هذه اللحظة. يقول الكوني: « الفرق كبير جداً بين التمثيل والأداء. التمثيل يزيف الأفكار العظيمة كما يفسد حرارة الأحداث، فيما الأداء الأمثل هو الطريقة لتلبّس أرواح الشخوص في بطن الحدث. المؤدي الجيد يمكن أن يعيد إنتاج الحدث مهما كلّف الأمر، أما التمثيل فهو فن تصديق الأكاذيب. وعندما أفكر بالهجرة والهرب من العراق سأنتهي وتموت هذه النظرية. ترى لمن نترك النظرية لتطبيقها من بعدي؟».

الأداء بمفهومه هو طاقة غير مدركة، ليس بطريقة التقمّص، بل بإعادة إنتاج اللحظة التاريخية بكل انفعالاتها ومشاعرها الحسية وقيمها الإيجابية والسلبية معاً. أن تستعيد الحدث التاريخي وفق هذه النظرية، يعني أن تكون مؤدياً مدركاً للإحساس في أداء يعيد لُبّ الأحداث بصورتها الملتقطة والنابضة في لحظة مقطوفة من الزمن.

لم أستوعب هذه التصورات كلها دفعة واحدة. لكني في إحدى الجلسات قاطعته:

ـ هذا تطرف من نوع جديد أيضاً يا ولد.

ـ التطرف هو في حقيقته ثورة باطنية على قيم التحضر. ليس التطرف مذموماً سيدي في كل الأوقات. أعتقد أن التطرف منهج ثوري في حقيقته. الشعوب ليست بحاجة إلى فنون التلهية والمتعة في عصرنا هذا، بل هي بحاجة إلى إعادة إنتاج التاريخ المُشرق والمُعْبَر منه معاً بصيَغِه المصورة بطريقة الأداء. نحن متطرفون لأننا نتاج عقول صحراوية، البحار هي من تغسل العقول المتطرفة سيدي. ولأننا بعيدون عن البحار فمن الطبيعي أن نكون متطرفين ليس بالرأي بل حتى بجَلْد أنفسنا.

ـ كلام خطير، لم أسمعه من قبل وأنا في هذا العمر. واللّه لا أخاف عليك إلاّ منك. إذا كانت الأحداث التاريخية ملطخة بالدماء، فهذا يعني أنكم ستريقون بتلك النظرية الدماء بطريقة الأداء الجديدة، كما يحدث الآن في استعادة تاريخ التراث الإسلامي المتشدد، أليس كذلك؟ قلت له بلهجة متطرفة وصوت عال.

ـ نعم بالضبط. إذا أريقت قطرة دم على جسد التاريخ في ساعة ما، يتحتم علينا تصحيح المسار التاريخي باستعادة تلك الساعة في الأداء مع تلك الدماء. أستاذ خالد هذا ملخص نظريتنا الأدائية الجديدة. نحن عصبة آمنّا بإعادة إنتاج

تاريخنا بالأداء، بمباركة السيد المنذري وبدعمك طبعاً وتبنِّيك الشخصي للتمرين عليها. أنا موافق على دخول مدرسة التبنّي شخصياً وفق هذا المنهج وطوع بنانك منذ الآن.

ـ ممتاز. التبنّي يحتاج إلى عمل دؤوب لنقطف معاً ثمرة الإبداع التاريخية. أنت في عملك وأنا في ضخ دروس مستخلصة من هذه النظرية، أنت من خلالها تتحول إلى نجم ساطع والقاهر العنيد لفكرة الموت، وأنا ظلك الذي تشير له كلما سنحت الفرصة لذلك. ولا من تعارض من وجهة نظري مع أفكار المنذري.

* * *

تعرفت على هذا الولد بطريقة غير طبيعية. اتصل بي لأكثر من مرة، ومن ثم وصل إلى بيتي بعدما نشرت الصحف خبراً عن الرواية غير المكتملة الذي راح كاتبها ضحية وباء بغداد. كان الهدف من محاولته للاتصال بي معرفة كل شيء عن الرواية ومغمورها وعن شخصية العباسي من خلالها. وبعد حضوري إلى تمرين «البروفا جنرال»، كان علينا العمل لتأجيل العرض النهائي لأيام قليلة لهضم نظرية التبنِّي مع إشرافي شخصياً على التمارين الفكرية للوصول إلى بؤرة الإبداع في الأداء.

داخ المخرج نورس باختيار شاقٍ ومدروس لبطل المسرحية، شخصية تاريخية ملتبسة، هو حمدان العباسي. لكن رئيس قسم المسرح انحاز لاختيار براق الكوني للعب هذا الدور، رغم أن المخرج تحفّظ على جنون الكوني وشطحاته الخرافية. ووقع اختيار نورس على ياسر عبد اللّه لتأدية دور المعدوم جميل القره تبي.

أما الحديث عن ثقافة المؤدي الكوني فقد كانت تضعني حقيقة في موقف حرج، لا أستطيع التواصل معه بتفاعل صادق، فهو يمتطي صهوة الحداثة الخارقة في الأداء المسرحي. موسوعته المعرفية وتطبيقاته في مضمارها كانت فائقة

لمرجعيتي الثقافية الكلاسيكية. نظرية الأداء الحسيّة تعتمد في جوهرها على الغوص في الذات الإنسانية وحرث مشاعرها لاستنباط ما خفي منها. هذا الولد بصراحة أخاف منه عليه. فهو مشاكس تاريخي خارق وخطير.

كنت قد عزمت على إيصاله لما يطمح له، وعلينا العمل معاً بل العيش لفترات طويلة من ساعات اليوم معاً، فالتبني «Adoption» لم تكن نظرية محدودة الأفق، بل تمرين في الرعاية الفكرية من أجل بلوغ سلم النجاح وقضم تفاحة الخلود، ولم تكن في أصولها الجوهرية متوافقة مع أصل الفكرة الاجتماعية، التي قامت عليها في تبني الزوجين لطفل يعيش معهم داخل الأسرة، حتى أصبح التبني الإبداعي موضوع الساعة لتحقيق الطموح للطرفين، بل تخطى ذلك في ضخ التجارب الحياتية بمحاولة تجريب العصامية المثلى وتمارين قاسية أخرى تجاهد في الإصرار والمثابرة.

* * *

2

عالم الست

ـ ما هي قصة الست سعاد وعلاقتها بالمخرج نورس؟

كان هذا هو السؤال الأول لي لإشباع الفضول في جلسة جديدة في المقهى، عندما حضر مبكراً لجلستنا المعتادة، طرحت هذا السؤال على الكوني، لأعرف حقيقة هذه المرأة المراهقة.

ـ ههه، ما الذي ذكّرك بها الآن أستاذ خالد؟

ـ لا شيء فقط من باب الفضول.

ـ مسكينة هذه المرأة. كانت سابقاً بعثية من الطراز الأول، يعرفها الكثير من زملاء المهنة، كانت تعرف بـ«الماجدة التعبانة» أيام البعث. ترتدي الملابس العسكرية وتعمّ رأسها باليشماغ الأحمر وتصدح حنجرتها بالولاء للقائد حدّ التغزل به، تقود جمهرة المُدرِّسات والطالبات وهي تصدح بالشعارات التقليدية في حبه ومكبّر الصوت بيدها، ويقال إنها صاحبة شعار «دمنا ولحمنا يا بعث» لتتبختر أمام المنصة في أيام المظاهرات الداعمة للنظام.

ـ إذن هي مناضلة عتيدة!

ـ كيف؟ أستاذ خالد أستخلص من كلامك، أنك مؤيد للنظام السابق.

ـ لا ولكني أحترم أصحاب المبادئ حتى وإن اختلفت معهم فكرياً.

ـ ولكنها انقلبت على مبادئ البعث في العاشر من نيسان 2003، في اليوم الثاني للاحتلال، تغيرت كلياً. أية مبادئ وأية احترام أستاذ اللّه يخليك.

ـ ليس بهذا المفهوم الضيق، ولكني من جيل قديم تربّى تربية قومية، فمن المؤكد أن أنحاز، أو قلْ أتعاطف مع الست سعاد. هزة عنيفة أصابت بنية المجتمع عزيزي أيها الكوني، بل حصلت انقسامات حادة بسبب الأيدولوجيات القاتلة. تصور معظم المناطق شمال بغداد تدين بالولاء للقومية العربية وتؤمن بها كمُخلِّص، وجماعات جنوب بغداد تدين للإسلام السياسي كمُخلِّص، وبغداد الوسطية تضيع بين الطرفين، هكذا ينشطر البلد الواحد انشطارين غير متكافئين يا عزيزي.

ـ ولكن خريطة العالم تتغير والعودة للأعراق والهويات الفرعية القاتلة منها والمسالمة، حتى أصبحت هي المقياس الوطني إزاء اندحار الفكرة القومية السائبة أو قلْ شبه المنقرضة. على العموم سأكمل حديثي عن سيرة الست سعاد.

عندما حدثت الهزة الكارثية في الـ2003، انقلبت الست سعاد مباشرة بعدما فهمت التوجهات العامة للسياسيين وطبقة السلطة. هي لا تعرف تعيش إلا في كنف سلطة تحميها، أعتقد لهذا السبب نسيَتْ أن تمارس فعاليات حياتية وعاطفية وغريزية حتى في أحلامها كحال النساء من جيلها. أحرقت تنورتها الخاكية وشارات الحزب وصورها مع القائد الأسمر وهويات النضال والكراريس دفعة واحدة في التنور. كانت أمها تضحك وتقول: «إلى متى؟ مو كبرتي ما كافي عاد. بالعراق يومية حكومة، يعني شلون بيك؟».

ـ واللّه يا كوني، دائماً أقول مع نفسي أنت أكبر من عمرك كثيراً.

ـ نحن من جيل ما بعد الكارثة سيدي الروائي. على العموم تغير حالها كثيراً، حال الكثير من رجال ونساء ارتدوا أزياء المرحلة وآمنوا بموجة إسلامية عارمة. الرجال ارتدوا المحابس والدشاديش السود وأطالوا اللحى وهرولوا خارجين من

الحانات نحو الجوامع، والنساء تحجّبن بالجملة، أما هي فقد بالغت كثيراً بالتدين الطافح على خلقتها. افترّت على كل الأحزاب الإسلامية ودكاكينها ثم وجدت ضالتها في واحد منها والأكثر دموية. حتى أصبحت ترفع التقارير والوشاية على أساتذة وطلبة معهد الفنون كما يقال عنها، تمّت ترقيتها إلى رئيسة شعبة الأزياء والمسؤولة الكبرى عن سلامة الأفكار في المعهد في كل نتاجاته في التشكيل والموسيقى والمسرح والفنون المرئية والسمعية. وكانت بصلاحية كبرى لإجازة كل عمل فني تصميماً أو موديلاً أو فلماً وثائقياً أو مسرحية، تذهب لتطابق الثوابت الإسلامية مع المنتج الفني الطلابي ثم تعطي موافقتها من عدمها.

وفي الفترة التي حدثت فيها الضجة حول إغلاق المعهد نهائياً، لكونه لا يتماشى مع الثوابت الإسلامية، كانت تروّج للفكرة وتؤيدها بقوة بين أساتذة وطلبة المعهد.

في يوم ما كانت تقدم محاضرة عن الأزياء المعاصرة، جلبت نماذج كوسائل معاينة من أزياء ملكية وجمهورية، وقد احتاجت أحد الطلبة كموديل للأزياء. وقع الاختيار على المخرج نورس لقياسات جسمه المثالية. خلع قميصه في القاعة وارتدى الأزياء والسدارة الملكيتين، تكهربت الست لفتنة جسده الصقيل، بل أصابتها صعقة بانت أمام الطلبة من مشاهدتها جمال النورس وفتنته الشبابية. ومنذ ذلك اليوم أصبحت الست أسيرة لا تعرف التحكم بمشاعرها أمامه. كان الطلبة يتوسلون بنورس لرفع درجاتهم في الامتحان الشهري. تنصاع الست صاغرة لكل طلب منه. يدخل معها في غرفتها ويضع الدرجات للطلبة بيده وهي تنظر لشعره وفمه وبياض خلقته وشفتيه الورديتين. قربت رأسها منه وطبعت قبلة على خده، ليس لها للقبلة أي مبرر، لكنها فعلتها من دون سيطرة على نفسها. حك خده وخرج نورس من الغرفة خجلاً كالطفل من فعلتها. عندما اتصلت به ليلاً عبّرت عن أسفها عما حدث.

أصبح نورس ممثلاً باهراً لدور العاشق المتيم للست. لا أعرف بالضبط هل كانت تعلم بتمثيله الدور، أم كانت مصدقة لبذرة الحب الفارغة بينهما. هذا العشق المتأخر جعلها تتأسف كثيراً على سيرتها الفحولية وطمرها للأنوثة في داخلها. الأسف على ما فاتها جعلها أحياناً تفكر بتغيير وضعها. تضع بعض الكحل على عينيها أمام المرآة في غرفتها، تحاول أن تحرر أنوثتها في خريف عمرها ولكن داخل حدود غرفتها. حفّت حواجبها، ووضعت شيئاً من أحمر الشفاه على شفتيها المتيبستين ولو بشكل خجول.

نورس يضحك في سره من هوسها وجنونها، لكنه المستفيد الوحيد من سحب بعض الأموال منها لتلبية الفعاليات الحياتية على حسابها وتمويل مشاريعه الإخراجية قبل أن تنقلب عليه في رفض عمله إلا بشروطها القاسية. واحدة من الأسرار التي كشفها لي نورس، أنه في يومٍ ما دعته إلى وجبة غداء في بيتها، وفي أثناء الخلوة بغرفة الاستقبال تقرَّبت منه، ولامس فخذها جسده، احتضنته وقبلته هذه المرة قبلة طويلة من فمه، استجاب من الخجل لأستاذته وواصل معها المداعبة الخجولة، حتى اكتشف أن دموعها تنهمر على خدها في اللحظة التي ذاق ملوحة دموعها وحزنها على ما فاتها. أزاحها عنه ولملم نفسه وخرج من البيت مسرعاً. أما هي ففي تلك اللحظة الغريبة عن حياتها، اكتشفت طعم سر القبلة وراحت تقنع نفسها بوسوسة الشيطان.

ـ مسكينة ست سعاد، للأسف نورس مارس معها جريمة مخلّة بحقها.

ـ لا، أستاذ لا جريمة ولا هم يحزنون. هي تعرف جيداً أنه ليس لها، لكنها وحسب ما أعتقد كانت تمارس شيئاً من تعويض ما فاتها من تنمية الغرائز الميتة. كم من طالب داهمته العصابات وضيعته بسببها؟ كم من أستاذ فصل من وظيفته أو أحيل على التقاعد بسببها؟ هي من نسفت عاطفتها بيدها، بالهرولة خلف سراب الوطنية المهلهلة. أذكر مرة في واحدة من المحاضرات جلبت أزياء

إسلامية من الحقبة العباسية للنساء وارتدت الأزياء أمامنا في داخل قاعة الدرس. ضحكتُ كثيراً، حتى وبختني بكلام قاسٍ أمام جميع الطلبة من بنات وبنين.

ـ لماذا ضحكت؟

ـ عندما ارتدت الجبة الصوفية، زاد شكي بالوجود كله، وانتصرت بداخلي الفكرة القردية لنا، وعندما نظرت لجمال نورس عاد الإيمان في داخلي. القبح من خلق البشر أستاذ خالد، والجمال من خلق اللّه سبحانه وتعالى. أفكر وفق نظرية السيد المنذري العظيم.

* * *

3

اختفاء السيد المنذري

ـ يوم جديد ـ

اتفقت مع الولد الكوني على سهرة خمرية جديدة هذه الليلة، والخروج عن نمط مقهى المعتزلة الكئيب ورائحة البطيخ والبصل المحيطة به، أردتها سهرة كحولية بتركيز عالٍ وخالص، حيث بادرني بمقترح لمكان السهرة:

ـ اليوم أستاذ سنسهر وسط النهر، دجلة هذا النهر الخدران سيسكر معنا تحت جنح الظلام، بقارب نهري يتهادى وسطه ونسمع صوت ارتطام المويجات الصغيرة بقاربنا، بعيداً عن ضجيج المدينة وصخبها، دجلة يشجّع على تعاطي الخمرة، هل جربتها من قبل؟

ـ لا واللّه ويعجبني التجريب معك. من يدك هذه إلى هذه.

ـ صاحب القارب، خمّار عتيق يعرف أصول الطقس الخمري، لكنه من طراز كحوليي النهار، لا يعترف مطلقاً بكحوليي الليل، ويعدّهم خفافيش خمرة، يقول صاحب القارب:

«أجمل حالة، شرب الخمرة تحت السماء، والمازة طازجة من ماء دجلة مباشرة».

اتفقنا في الساعة السادسة والنصف نلتقي في مقهى المعتزلة ثم التوجه لشراء الأشياء الواجبة للسهرة النهرية. عندما وصلنا حافة نهر دجلة، وجدنا رجل

القارب المخمور يغط في نومة وهو غاطس في بطن القارب المتأرجح. غسل وجهه ورأسه بماء النهر ثم اقترب من اليابسة وسلّمنا قيادة القارب واستلم المقسوم من الولد براق. كنت أنظر للبنايات البغدادية وهي تشيح بوجهها عن النهر. كل العمارات تم تصميمها بأن تكون خلفيتها للنهر.

بعدها سارت الأمور لا يعكرها إلاّ شيطان الوساوس والدونيات المقيتة في تأمل وجه براق الكوني، عندما يختلط انعكاس السماء بنجومها وصفحة النهر في عينيه. تحرك القارب منساباً بهدوء أسطوري فوق سطح النهر الهادئ. مرة يجذف ومرة يحتسي وأنا أكرع الكاسات على مهل ومتنفساً الهواء الحر. وأمارس هوايتي المزمنة في التبول في النهر مباشرة، قال لي:

ـ أستاذ خالد انظر خلفك، هل ترى هذا الكوخ المغلق الحزين؟

ـ نعم ذاك في الجهة الأخرى من النهر.

ـ هنا كان يقيم السيد المنذري منذ فترة. للأسف...

ـ ماذا حصل للرجل؟

ـ اختفى. من السهولة أن يذوب الإنسان في بغداد، يذوب أو يختفي ويمحى من الذاكرة أيضاً.

بكى وتكسّر صوته في حنجرته، وخرجت كلماته المخنوقة من صدره.

ـ ها... سكرنا يا ولد.

ـ أبداً.

ـ كيف ولم نسمع بخبره؟

ـ لا أحد يعرف كيف اختفى. من السهولة اختفاء أي أحد في بغداد هذه

الأيام، رغم أنه كان يؤكد في محاضراته على تعرضه إلى تهديدات كثيرة، كان لا يهتم لحياته كثيراً. ولا يقبل بتوفير الحماية له من مريديه مطلقاً، غالباً ما يقول:

«أنا أعيش تحت حماية النهر، ولا أختلف عن معاناة الحلاج ومأساة حرقه أو الغزالي أو عبد القادر الكيلاني أو البسطامي أو الشيخ أحمد الرفاعي أو السهروردي أو ابن نقطة أو أبي الوقت أو عبد الأول السجزي، ولا أي متصوف آخر عاش ومات قرب نهر دجلة».

السيد المنذري كان محاصراً من تهديدات حكومية مبطنة وميليشيات وأطراف متطرفة أخرى. الاختلاف عن الرهط والامتياز، مشكلة حقيقية في بغداد يجعله في دائرة الاتهام والعمالة بسهولة، فترتفع درجة الخطر لتحيط به من كل جانب. مدمنو الخمور كانوا يتجمعون بقربه ويضحكون معه ويتبادلون الأحاديث ثم يغادرون في قواربهم.

ـ هل هو ملتزم دينيّاً؟

ـ واللّه يا أستاذ لا أستطيع الجزم بالرد، فهو يذكر في واحدة من محاضراته عن الصلاة مثلاً، ليقول عنها: «إنها طقس روحي عظيم». يفضل الصلاة الروحية المنفردة أو تلك الباطنية منها ولا يحبذ الصلاة الرياضية الجماعية، فهو غالباً ما يؤكد أن الدين هو اتصال روحاني بين الخالق والمخلوق بمعزل عن الآخرين، علاقة حب مثلى وسامية، لتتخذ الشكل الذي يراه المخلوق ويقبلها الخالق الجميل، وليس بالضرورة الالتزام بالتعاليم الحرفية. كان يختلف كلياً عما شهدته وقرأته عن كل متصوفة أو حتى حركة معتزلة بغداد أيام الفترة العباسية. هل تعلم أنه كان في واحدة من المرات وجدته يتحدث عن نوع من الخمور الرائعة، يتحدث بصراحة عن النبيذ الأحمر وكيف يستطيع هذا النوع من امتصاص كل التوترات النفسية.

ـ لذلك يحبه أصحاب الكيف من خمارة النهر.

ـ هذا صحيح، وله من المريدين الذين تنصَّلوا من تقليدهم وحبهم لرموز حشروا أنفسهم حشراً بالشأن السياسي. اشرب كأسك أستاذ.

ـ لولا طغيان المد الديني وهيجان المتدينين، لما حدثت حالة النكوص هذه. لولا التوجه الجمعي للبحث عن منقذ لما أصبح البحث عن المدرسة الصوفية وما شابهها كبديل عن خواء العقائد في زمن ثورة العلم الجديدة.

ـ الصوفية واحدة من المدارس الوسطية في الإسلام، هذا ما أعرفه عنها.

ـ بالضبط، وسطية باردة بين طائفتين ساخنتين، مخلصة في حب الإله.

ـ حالة طارئة.

ـ أية حالة تقصد؟

ـ في البحث عن الصوفية أو ما يسمى بالصوفية الجديدة، لتكون هي الحل. محض هراء هذا يا ولد. أبحث عن «صوفيتك الجديدة» في الفن.

ـ ربما القارب تمايل أكثر مع مرور موجة أخرى كادت أن تقلب الكأس المحصور بين خشبتين في قاع القارب، أو ربما بدأت أتمايل أنا مع سريان مفعول الخمرة برأسي منسجماً مع حديث الولد براق، يتحدث لي بألم عن غياب السيد المنذري، تلك الشخصية التي بدت لي شخصية جاذبة، قلت له:

ـ وماذا عن تحزّبه؟

ـ أستاذ خالد كل ما أُشيع عن تحزّبه هي إشاعة حكومية أو من جماعات حزبية متطرفة، بعدما شاهدوا استقطابه للشباب المتدينين، بعض الخطباء فسَّقوه من على المنابر، وقالوا عنه الكثير من التهم، كان يضحك ولا يعير اهتماماً كبيراً لما يقال عنه. فقط كان مهتمّاً بالدروس العرفانية والفكرية والروحية للمريدين.

ـ هل هو مختطف أم معتقل أم مجهول الهوية؟

ـ صدقني لا أحد يعرف أي شيء عن غيبته هذه.

ـ نخب المنذري، اشرب.

* * *

الباب الثامن

الفصل الرابع للرواية

1

المصور جلال كوداك

الصورة التي أتأملها مع جلال كوداك في هذه اللحظة، التقطت لقصر الرحاب بعد مرور ما يقارب من عشرين ساعة من حادث المجزرة. لم تكن ثمة دماء على وجهها أو آثار على قفاها سوى كلمات تاريخ التقاطها، لكن ثمة وشاية أو نميمة فاضحة تعلنها الصورة كما أفادني الرجل.

أثناء كتابتي لرواية «الملك في رحابه» كنت أبحث ميدانياً عن شخص يفسر لي الصور التي حصلت عليها، يحلل لي مدى دقة هذه الوثائق.

يعتبر جلال كوداك أهم خبير في الصور القديمة، وهو يعمل في مجاله منذ زمن بعيد، كان يشتغل مثمِّناً للصور التراثية النادرة في معرض مزاد الصبّاغ للأنتيكات في ساحة الأندلس. الرجل المتخصص في صور العهد الملكي والجمهورية الأولى وجمعها في ألبومات يتحفظ على نشرها للعامة.

طريقته بالتحليل تعتمد على الخبرة والذاكرة، يأخذ الصورة برِقَّة وحنان، يمرر إبهامه عليها ثم يقلبها على القفا ليعطي رأياً قاطعاً في أصالتها أو زيفها. أما الحديث عن حياته الخاصة وعشقه للغلمان، فقد أوصى كوداك بعدم نبش الماضي، بعد تقدم العمر وطموحه حالياً في حج بيت اللّه في السنة القادمة.

الصورة الأولى مضى عليها أكثر من نصف قرن، لكن البق الرمادي يحوم

كنقاط داكنة في فضاء الصورة. العين الطائرة تنفلت عن الصورة كصحن طائر لتمسح سطح القصر من الأعلى، لم تعثر على شيء بأهمية تذكر، سوى بعض خراطيش فارغة ومقذوفات وشظايا هنا أو هناك في بلاط السطح. كثرة التأمل والإلحاح بالتركيز جعل من شخوص الصورة، تتمطّى أولاً ثم تتحرك لتبوح لكوداك عما حدث.

في المستوى الأسفل منها كما يظهر، ثمة تجمع حاشد للبغادة يبتسمون ويقهقهون وكاد يسمع لغطهم الهائج لينقل لي بأمانة ما حدث. أفندية يقودون درَّاجاتهم بدا عليهم أنهم جاؤوا من أماكن بعيدة من العاصمة، نسوة عبارة عن نقاط سود يخرجن من عمق الصورة يَرُمْنَ الدخول من بوابة القصر المنكوب. لا بدافع الفرهود كما يؤكد كوداك بل بدافع الفضول للاطِّلاع على حياة الأميرات في داخل القصر. ماذا يلبسن؟ أين يستحممن؟ وماذا يستخدمن من أدوات أثناء الاستحمام؟ في رؤوسهن أكثر من سؤال عن سر ترف الأميرات ونعومة أشكالهن. كيف تعيش الأميرة في غرفة نومها؟ أو ربما دخلن القصر من باب التشفّي بحياتهن الرغيدة في الشرفات العالية وتمزيق ثياب نومهن أو حتى حرقها.

لم يظهر في الصورة بعد التدقيق في تفاصيلها أية حَصانة تذكر للباب الكبير، كانت أيضاً تتيح المشاهدة من زاوية حرة للشارع، يتراءى ذلك الشارع المحاذي للقصر كأنه مملوء بالخوذ والملابس العسكرية، يحق للمارة النظر أو السير إلى جانب القصر بكل يسر وسهولة. هذه البساطة كانت سبباً في سرعة تنفيذ الخطة التي وضعها العسكر.

ليس صعباً عليّ عدّ الأشخاص الظاهرين في كادر اللقطة، فبعد إحصاء الرؤوس البائنة فيها، إذ تراوح عددها أكثر من تسعين رأساً بين رجل أفندي وآخر بدشداشة وعقال ويشماغ وامرأة بعباءة وطفل وطفلة. هذا عدا الرؤوس التي كانت متجمهرة خارج اللقطة، التي لم تستوعب كل هذا الجمع في صورة

واحدة. كانت عينا كوداك تتحرك في مساحة الصورة، ليحلل هذا المشهد البصري الساكن بكل أمانة وكياسة وحرفية فائقة.

اختفت عن الصورة مشاهدات النهب والسلب وكذب السيد كوداك كل ما أشيع عن حوادث ملفقة بهذا الاتجاه، وتلك من الغرائب التي لا يمكن تصديقها وقد جبلت عليها الجماعات العراقية المشككة.

بدت اللقطة اليتيمة خالية من حفر اسم مصورها، وهي ذاتها التي رافقت حلقات المجزرة المنشورة في الجريدة البيروتية في مطلع الستينات، وقد خلت أيضاً من اسم كاتب حلقات المجزرة بعد سنتين. تطرّز اللقطة ذاتها بعض اللطخات السود التي وشحت وجوه النوافذ العليا للطابق الثاني، حيث يفسرها كوداك بقوله: «إنها آثار الدخان الأسود الذي يخرج من النوافذ العليا، وما زال يتحرك في الأفق».

أدقق معه في حواف الستارة العليا بعدسة مكبرة، فيظهر ثلم واضح في نسق الأفاريز الثلاثة التي تزخرف عمارة القصر، كما تظهرها الصورة، وقد بانت أنها قذيفة هاون (106 ملم)، حيث اتفقت جميع الروايات على استخدام هذا النوع من القذائف على بناية القصر. القذيفة الأولى التي أثارت رعب نساء القصر وجعلتهن يحتمين في الزوايا تفادياً لفعل الموت القاسي.

أما هذا الخيط الرمادي في أعلى سطح القصر، هو مجرى الحمَّام الأرضي الذي يشبه في بنائه المئذنة، نصب ليمتص الدخان ويبدده في الفضاء. تحول إلى ما يشبه خيط الدم في أعلى الصورة، وما زال يتحرك حتى التقاطها. كل تلك التحليلات واستنتاجها على عهدة الحاج كوداك، فقد انفرجت أساريه عندما ناديته بالحاج جلال.

تنتقل العين الطائرة إلى الأسفل بمستوى عيون المتجمهرين حيث عمق

الصورة، لنشاهد غرفتين صغيرتين متقابلتين للحرس مبنيتين من الطابوق، تحيطان الباب الرئيس للقصر الذي يقدر عرضه حسب اللقطة بنحو أربعة أمتار تقريباً. هناك دعامتان من الطابوق تسندان الباب المعمول من قضبان الحديد، كل دعامة تحمل فانوسَ إنارة، وقد أظهرت الصورة أنهما ما زالا في مكانهما رغم الثلم البسيط في حوافهما.

تتسع اللقطة أكثر فتظهر للرائي «البرندة» المقوسة والمخصصة للسهرات الليلية للعائلة وخلفها ثلاثة شبابيك يغطيها الدخان الأسود. فوق الشبابيك ثمة إفريز عريض وضع ليحجب وهج الشمس وقطرات المطر. وفوق الإفريز ثلاث كوات صغيرة تعطي جمالية عمارة البناء المتواضعة، تفوح منها رائحة الذوق الملكي البسيط.

انظر يقول الحاج كوداك: «بعد الباب الرئيس ثمة باحة واسعة على جنبيها حديقتان أماميتان قبل الصعود بثلاثة سلالم عريضة جداً للدخول من الأقواس الثلاثة إلى البهو الواسع الرحب في الداخل. لقد وصلت للقصر بعد فوات الأوان، والصور التي التقطتها آنذاك بعتها كلها لوكالة أجنبية قبل أن أجمع المتبقي منها في ألبوم صور احترق أثناء الحرب. كنت في حينها طائشاً لم أعر اهتماماً لقيمتها ولم أعرف ما تؤول إليه الأحوال. لو كنت أعلم بما يحدث الآن لوضعتها في أمانات المتحف التراثي».

الغريب في الصورة أن القصر كان ملاصقاً تماماً لبيوت بغدادية من جهة اليمين واليسار في سابقة خطيرة. كيف تكون الحشمة؟ تحولت حالياً إلى رمزية مقدسة في تجاور القصر الملكي للبيوت، ربما أكذب، لكن الصورة لا تكذب كوثيقة دامغة لعنوان البساطة والعفوية والفطرة.

تنتقل العين الطائرة مرة أخرى في حركة مفاجئة لقفا الصورة. وبقلم حبر باهت اللون كُتب عليها يوم 15 تموز 1958 وتحتها عبارة «الرحاب بعد المجزرة».

ثمة أثر على ملمس الورق الباهت لإبهام صغير بدا لأنثى ارتعشت يدها حين مشاهدة تلك اللقطة. غير هذا لا يوجد سوى الفراغ الهائل في القفا التاريخي للصورة والشق الذي أحدث في حافة الصورة من الأسفل قد عالجته اليد الرحيمة لتلك الأنثى بشريط لاصق شفاف.

ترى أين تلك الأنثى اليوم؟ لماذا غادرت وتركت الصورة نهب التأويل؟ لماذا لم تحملها معها في صندوق التحف والنوادر، عند هجرتها إلى المنافي بعد المجزرة وقيام جمهورية الدم والسحل والكلاشنكوف؟

لا جواب شافٍ على المزيد من الأسئلة التي نثرتها فوق رأس الحاج كوداك. سوى الاستمرار في فحص الصورتين المتبقيتين على ذمة التحليل والإفادة القصوى مما جرى حرفياً.

* * *

2

الملك في البيجامة

لم تسعف المدوّن معظم المَروِيَّات الصفراء والتاريخ المحقَّق في دار الكتب والوثائق من حسم قضية إشكالية زي الملك أثناء الحادثة المروعة. فما كان منِّي سوى الاستعانة بالحاج كوداك محلل الصور لمعرفة التفاصيل.

هذا الرجل له تاريخ طويل في المهنة ليس في اقتناء الصور الفوتوغرافية فحسب، بل في الأشرطة السينمائية التراثية والمصورة عن تاريخ العراق، وله خبرة أيضاً في جمع الطوابع الملكية ومناسباتها وجمع العملات الملكية. لكنه لا يبادر بالإجابة إلا حين ترشقه بإعادة السؤال مرتين أو أكثر. «كودي» كما يسمونه في منطقة سوق الهرج في الميدان، له قدرة فائقة وفراسة في قيمة الصورة وندرتها وفرادتها، هو الوحيد المتبقي في أسواق بغداد يواصل بشغف هذه المهنة الفريدة.

عمل في فترة من حياته مصوراً للصور الفورية في نفق التحرير في بداية الثمانينات، عندما كان هارباً من الجيش الشعبي في فترة حرب الثمان، ينام في غرفة بائسة داخل النفق مع رجل كبير مسؤول عن تشغيل السلَّم الكهربائي المتحرك للنفق. كان كوداك يسبب ازعاجاً للرجل المسن أثناء النوم وهو يصيح أثناء نومه كل لحظة «فوري فوري»، يفز الرجل من نومه مرعوباً ويلعن الساعة التي تعرف على كوداك. هذا «أبو الفروخ».

أما الصورة الثانية فقد كانت للملك في أثناء المجزرة. ترى من التقط له هذه الصورة؟ وهل هي حقيقية أم لا؟

هي صورة إشكالية اختلف المؤرخون عليها كثيراً. الفريق الأول انحاز للصورة لكونها تعبّر عن الفجيعة بعينها، فمقتل الملك بملابس النوم تلك فكرة جنونية لاستدرار عطف الجمهور؛ هزّت المشاعر للدفاع عن مظلومية الملك وعائلته كونهم ضحايا طيش العسكر، تحدَّثوا عنها بلغة الواثق كونها للملك الصغير أثناء نزوله من الطابق الثاني إلى الأرض.

عند سؤال كوداك عن الصورة الأصدق للملك التي يظهر في بيجامته أم تلك الصورة الأخرى في البنطلون والقميص.

ـ وشنو الفرق ياب؟ تركت الموضوع كله وتبحث عن الصورة الأصل. افترض مات الملك باللباس والفنيلا، هل يتغير الأمر عندك؟ بطّلوا السوالف التعبانة عمو. أنت بطران على ربك.

أما الفريق الآخر فقد ظل متشبّثاً بفكرة النفي القاطعة. كل الدلائل من شهود العيان تحكي إن مقتل الملك كان في بيجامته. يدعمون الرأي بقولهم إن الصورة الأخرى لا تمتُّ بصلة لا من قريب أو بعيد ليوم مقتله، فشبح الابتسامة على وجهه تنفي نزوله من الطابق الأعلى ليلتقط الصورة أثناء لعلعلة الرصاص.

هذا الفريق العقلاني كما يصفهم التاريخيون، يشهرون صورة أخرى للملك ببنطلون رمادي من قماش «تو باي تو» وقميص أبيض بكم قصير قبل مصرعه بلحظات، فتسريحة شعره وحلاقة موضة «قيصر وان» تدل دلالة قطعية على حسم الخلاف. لكن المجموعة ذاتها تتلعثم في الإجابة عند إشهار صورة البيجامة، يتذرَّعون بغياب مصور اللقطة أثناء لحظة القتل. مَنْ هو المصور المجرم الذي

التقط الصورة؟ كوداك يدحض فكرتهم بمعقولية المصور الانتحاري في تلك الساعة. هذا المصور حاله حال العسكر.

كذلك تظهر هذه الصورة المشبوهة ابتسامة للملك وكأنه يستعد لحفلة عائلية، وليس لحفلة قتل مجانية. هنا ينعدم المنطق في تفسير صورة الملك في البنطلون والقميص الأبيض. هل نهض الملك في الساعة المبكرة من الفجر ليرتدي ملابسه الاعتيادية؟ ثمة شك ولبس كبيرين. الصورتان وثيقتان متقاطعتان لموضوع الحادثة المروعة. قلت له:

ـ أنا شخصياً أقف مع الفريق الأول بحماس، لمشروعية ودقة الفكرة «صورة الملك في البيجامة» ربما اللقطة بعد الحادث مباشرة لوكالة إعلامية أجنبية.

ـ ياب. عليك بالشهود، الصور تكذب أحياناً.

داخ كوداك مشروع الحاج، وضع رأسه بين كفيه، لا يقر مطلقاً بثبات رؤية الهلال من عدمه: «بحاجة إلى شاي سنكين الآن».

رحت أتفلسف أمام كوداك لتحليل الصورة تحليلاً مقنعاً استناداً على توقيتات هجوم العسكر في ساعة مبكرة من فجر الرابع عشر، ولا يمكن للملك الصغير أن يرتدي البنطلون والقميص تحت وابل رشقات البنادق وعويل وصراخ أفراد العائلة. ثم أردف قائلاً:

ـ أي مصور هذا يكون موجوداً في تلك الساعة؟ «لا ياب لا... سولفها على الدبّة». ربما هذه اللقطة أثناء سفر الملك خارج البلاد، يرتدي ملابسه الرسمية في ذلك الصباح. هذه اللقطة أجنبية ياب، وكذلك الورق المحبب هو لشركة كوداك العملاقة في تحميض وإظهار الصور. لا تتعب نفسك، خلصت عمري في هذه المصلحة. الملك ببيجامته أو في البنطلون فقد مات ميتة بشعة. أزيدك علماً أن قبره نبش أكثر من مرة بعد المجزرة.

وسواء كان الملك الصغير مات ببجامته أم في بنطلونه وقميصه، لكن الحقيقة الدامغة التي لا لبس فيها أنه مات مقتولاً. تركنا المجزرة وألهتنا البيجامة عن بقية الصور والقصة الكاملة.

* * *

3

صورة جانبية للخال

ذهبت متوغلاً في سوق هرج الميدان، ومعي العتيد جلال كوداك، نبحث عن مقهى صغير في عمق السوق، المقهى التراثي الذي يرتاده يومياً، وما زال على وضعه، لم يتنفس عبق بارود التغيير. ذهبنا للبحث عن صورة مفقودة للأمير في يوم المجزرة في معرض المقهى.

لم نعثر على ضالتنا فقد كانت الصور المصلوبة والمعلَّقة وسط المقهى للعائلة المالكة، لم تشفِ الغليل في الفضول، بعض الصور انتهت صلاحيتها، ولم تكن واضحة بما يخدم المشاهدة والتحليل، بما فيها صورة الأمير الخال، وهو يرتدي بيجامته أيضاً، حيث كان جالساً يشرب الشاي في حديقة قصر الزهور، قبل الانتقال إلى الرحاب.

كان عليّ تحمل أعباء إضافية لجلال كودك بكل كآبته وأحزانه المتراكمة، بسوداويته وانطوائه المرعبَين. لا يتحدث كثيراً، وقلَّما يرد على السؤال أو يبادر بالكلام، وإذا ما سألته يصفن كثيراً قبل الإجابة عن السؤال أو لا يجيب مطلقاً، وفي بعض الأحيان أنسى السؤال وعما سيجيب كوداك الحزين ابن حي الميدان. أخرجت الصورة من محفظتي وأعطيتها للحاج.

هي صورة للخال عبد الإله خال الملك الصغير في يوم المجزرة. الرجل العصبي والقوي ومحرك شؤون المملكة. يقرأ كوداك تفاصيل الصورة المصلوبة وأنا أدوّن ملاحظاتي عنها.

دقّق بتفاصيلها كثيراً ثم قلبها على قفاها ليعثر على دليل ملموس على أصالتها. ارتشف رشفتين مترادفتين من استكان شايه «السنكين». كانت الصورة باهتة الألوان ولا يمكن أن تتبين ملامح الخال، فقد التقطت من القفا، معلّقاً من قدميه في أعلى بناية رمادية جرداء، بجسد عارٍ تماماً، وقد تهرّأت بعض أعضائه، كذلك تظهر الصورة يديه المتدليتين تتأرجحان في الهواء تكادان تهزان الصورة المرتعشة بين يدي كوداك. ثمة جمهور يصفق في الأسفل لحفلة التعليق والإطاحة برمزية الحشمة للعائلة المالكة بهذا الشكل المرعب.

ـ «ياب»... هذه الصورة لا خلاف عليها. إنها للخال عبد الإله في الشواكة، أما هذه العمارة التي علق عليها، فهي موجودة حتى اليوم. شقاوات من الفضل والميدان وباب الشيخ رغم عداواتهم المعلنة فيما بينهم، لكنهم توحَّدوا أمام العائلة المالكة، وقاموا بتعليق الخال بعد موته في هذا المكان.

ـ بعض المرويات قيل إنه علق في باب وزارة الدفاع حاج، ما هو رأيك؟

ـ كذب. وين أكو عمارة مثل هذه في باب وزارة الدفاع؟

استل كوداك سيجارة من علبة سجائره الرديئة، وراح ينفث دخانها على ورقة الصورة البائدة. هذه الصورة تكاد تكون الأكثر شهرة من كل الصور الفوتوغرافية في تاريخ المجزرة، وهي التي جعلت الأميرة بديعة بالتوغل في الدعاء الشديد على العراقيين من خلالها بقساوة شديدة.

أيضاً هذه الصورة جعلت نخب التاريخيين الشفويين يقومون بالتشكيك فيها، فقد قال البعض عنها أنها تعود للباشا نوري سعيد وليس للأمير عبد الإله.

لم يكتف أحد المشاركين في الهتاف، بإعدام جثة الخال، بل ذهب لقص قضيب الخال أمام أعين الواقفين في الساحة، ثم تعليق المتبقي من جسمه على

عمود في ساحة واسعة في منطقة الشواكة، وليس متدلياً من هذه البناية التي تظهرها الصورة:

ـ نعم للأسف هذه صورة الوصي. لكنه لم يعلق بعمود في الساحة، الصور تكذب أحياناً والناس أيضاً. أعرفها تماماً هذه البناية التي علّق جثمانه عليها، بعض الشهود من المنطقة يعرفون التفاصيل، آثار دمه ما زالت على هيكل البناية. لم يختفِ أي شيء من تاريخ الصورة، سوى الحبل الذي ربط جثته. للأسف هكذا نحن، نحب عمل المشانق منذ زمن بعيد «ياب».

هذا ما قاله كوداك بصوت متهدج حزين. ولا شيء بعد هذه الكلمات. تركني في حيرة من أمري، فهو لم ينسب اللقطة له كما كنت أعتقد:

ـ هذه اللقطة لمصور أجنبي، وليست لي.

حتى الصورة ذاتها قد عجزت عن النطق، بينما قفا الصور كان مخيباً في حياده ولم تكشف عائدية الضحية. لكن الحقيقة الوحيدة المتبقية من نبش تاريخ المجزرة هي المحصلة النهائية بموت الباشا السعيد والأمير والملك وبقية العائلة، حيث تستحي الصور من النطق في الحقيقة، بينما جلال كوداك خرج من المقهى من دون كلمة وداع.

بعد سقوط كل أفراد العائلة المالكة ومن معهم في الحديقة الأمامية، وبعد مرور ساعة من الوقت لم يعد للصور معنى تاريخي، بعدما دخل العوام وحملوا الجثث في سيارات مكشوفة للطواف بها في شوارع بغداد، بهيجان طاغٍ. بينما القاتل صاحب الرمية الأولى، فقد ركب سيارته وذهب إلى دار الإذاعة ليقدم تقريره إلى العقيد عبد السلام، ليدلي باعترافه عن حادث إطلاق النار على الملك وعائلته ومازال مصير الباشا مجهولاً حتى بيانات هذه الساعة.

لم تنطق الصور الثلاث بما يشبع الفضول، رغم كل الإباحة والإشهار الخجول

لهم. وبات عليّ الإقفال على موضوع الصور والتشبث في العين الطائرة لاستنطاق أطراف أخرى من ذلك التاريخ. لا نفع في الصور الخجولة وصمت جلال كوداك. ربما كانت الصورة الثالثة للأمير أو للسعيد المغدور، لا يهم فما الصورة إلا وثيقة خرساء لا تستطيع النطق بأكثر من دغدغة الذاكرة.

* * *

الباب التاسع

الفصل الخامس من الرواية
ثلاث أميرات من قصر الرحاب

1

فاضلة

أهذه فاضلة أم حورية جاءت من جنّة الحور والتفاح الفوقية؟ سرقت بياض القمر، وخطفت ألق النجوم، وتحنّت بملح الأرض، وسابقت العصافير في نشاط ذات صباح، ربما زرعها اللّه سبحانه على الأرض كنموذج لحور العين في الجنة.

فاضلة ليست قاسية بجمالها، فحسب بل كان مؤذياً لكل الناظرين لها. حاداً كنصل السكين في نظراتها. وقع الملك الصغير صريعاً عندما شاهدها في استنبول، لذلك أصرَّ على الزواج منها بكل طريقة وبأي ثمن ومهما كانت الظروف. ربما إذا خُيّر لدفع مهرها الغالي، فلن يكفيها العراق كله بنخيله وترابه. وبالرغم من أنَّ زوجة طباخ العائلة الهندي حذّرت من تلك الزيجة، فقد اعتاد أن يكشف طالعه من خلالها في الأمور التي تحتاج إلى كشف الطالع، فهي العالمة المجربة بما يجلبه القادم من الأيام.

أحضر الطباخ «مزمز هزار» زوجته مع كامل عدّتها من أحجار ملونة وضعت في كيس قماش أبيض، لتكشف طالع الملك وما يخبئه له الغد، وما يضمره له الغيب من هذه الزيجة، ولم يسألها ما يضمره له أعداء المملكة، قالت له بلغة عربية ممزوجة بهندية:

- بابا أنت تمام يتزوج من فازيلة خانم، لكين ثمن كبير بابا.

لملمت عدتها وانسحبت خائفة من غضبة الملك وسوء الطالع، أطرق واضعاً

رأسه في حجره، راح يفكّر في الثمن الكبير الذي ينتظره من تلك الزيجة: «كل الأثمان تهون تحت أقدام فاضلتي المبجلة» هذا ما ردّده في نفسه. تخيّل الملك أن الثمن الباهظ الذي تنبأت به زوجة مزمز، هو ثروة ومجوهرات وأمور أخرى. لم يعلم خيانة اللغة لزوجة الطباخ الهندي التي أرادت أن تقول له: «الثمن سيكون رأسك يا جلالة ملك».

ابتلع النبوءة من دون أن يحسب حساباً لما قالته العرّافة الهندية. معتقداً في لحظة ارتباك أن الإرادة الملكية بموازاة الإرادة الإلهية. قال: «حتى لو تخليتُ عن التاج والمملكة من أجل الظفر بها، فأنا قد كسبت فاضلة وهذا يكفيني، أما هذه الهندية فهي مجرد عرّافة خرفة وتافهة، رائحة الفلفل تفوح منها».

من المقرر أن يلتقي الملك الصغير بسفرته المقررة في يوم الخامس والعشرين من الشهر ذاته بخطيبته في لندن الأميرة «فاضلة» ابنة الحسب والنسب، لتحديد موعد ومراسيم الزواج وتثبيت أسماء المدعوين والمدعوات من الطبقات الأرستقراطية المخملية من الجاليات العربية والمسلمة في لندن، ثم تنسيق مواعيد الخروج لشراء مستلزمات عدّة الزفاف من ملابس وذهب وعقد ماس خاص وعلب مكياج إفرنجية، أعدّت خصيصاً لها على أيدي شغيلة ماس مهرة في لندن، استطاع قدوري أفندي من تنسيق التوقيتات وحجز معظم الحاجيات التي من المفترض شراؤها، لذلك قررت خالته الأميرة «بديعة» وزوجها الشريف «علي بن الحسين» السفر مع الطاقم الحكومي لتلتقي الأميرة فاضلة هناك، وتقدم لها ما يوجب من نصائح بيت الأشراف الهاشمي العلوي وطرائق العيش المتبعة وصرامته في الانضباط والتقاليد العريقة، فنظام الحياة داخل القصر وتقاليده الملكية الصارمة تحتاج إلى اتكيت ومنهج حياة لا يحيد عنه كل من انضوى داخله، فالانضباط اللغوي المتبّع في انتقاء المفردات الخاصة التي تعكس الاحترام والتبجيل في التقاليد

الملوكية داخل قصرَي الرحاب والزهور التاجيَّين. بعد برقية الملك راح قدوري لتأجير شقة للمعلمة الخبيرة «صافيناز خانم» التي ستقوم بإعطاء دروس في التقاليد الملوكية ونمط الحياة الواجبة في فنون التلقين في لندن، مما استوجب إضافة السيدة المعلمة إلى قائمة الوفد المسافر.

كان الملك الأسمر جميلاً ومهذباً في تعامله مع خطيبته، يحمل من تقاليد الملوكية وهيبتها وحسن تصرفاته الكثير. عرضت عليه أمه الكثير من البنات الجميلات، منهن ابنة شاه إيران مثلاً، تعرف عليها لكنه لم يقتنع بها كزوجة رغم جمالها الناعم والحامل من جينات الفارسية بسحر البشرة وخفة الدم وحركة العينين النزقة، لكنها باردة الأحاسيس كما عبّر عنها الملك. ثم تعرف بعد حين على ابنة تاجر عظيم من الهند، كانت من جميلات مدينة نيو دلهي لكنه أيضاً لم يقتنع بها كزوجة، فسمارها الباذخ ولغتها يقلقان روحه الطائشة آنذاك.

هام بجمال فاضلة، جمال «يكسر الظهر» لذات العينين الملونتين، فواحدة زرقاء وأخرى خضراء، والقامة البحرية الممشوقة بفتنة وخفة دم وطول فارع باذخ. رأى فاضلة وتعرّف عليها في استنبول في لقاء عائلي، ومن تلك اللحظة قرر الاقتران بها، وسوف تأتي معه للعيش في قصر الرحاب لتكون أميرته الآمرة الناهية في رحاب قصرها الجديد.

سيتخلف الأمير «عبد الإله» ليمكث في بغداد لإدارة شؤون المملكة وشجون العرش من داخل القصر ومراقبة الوضع الأمني المقلق، لكن زوجته الأميرة «هيام» سترافقهم في السفر بعد إلحاح الملك الصغير في اصطحابها لتنتقي له الهدايا وبالأخص شراء العقد الماسي ليقدمه لخطيبته. وافق الأمير عبد الإله على سفر زوجته على أن تعود بعد أسبوعين فقط. فهو بحاجة ماسة لها لترتيب حياته الداخلية المشوّشة داخل القصر.

كل تلك التجهيزات للسفر بقيت في مكانها بانتظار سفر الملك في اليوم الرابع عشر من تموز. هل سيسافر الملك؟

ذلك ما لا تخبره به العرافة زوجة مزمز التي انشغلت في «نبوءة سوداء الطالع» عن زواج الملك المرتقب. كل هذا جعل منه سعيداً كفرحة طفل يترقّب يوم العيد في الغد، فقد كان يوم الثالث العشر هو من الأيام السعيدة في حياته.

بينما كان السيد قدوري يجري بعض الاتصالات مع الآنسة فاضلة، فقد ذهب إلى مكان إقامتها، ليحدثها عن شخصية الملك وأسرار ما يحبه ويكرهه في زوجة المستقبل، كما وقد نقل لها تحياته المرسلة في برقية سرية وصلته صباح أحد الأيام. قال لها:

ـ الملك، آنستي فاضلة، مغرم بك جداً، يتطلع إلى الاقتران بك في الأيام القادمة. هو هادئ الطباع، يحب الحياة البسيطة، ويروي الطرائف والقفشات عن الحياة داخل وخارج القصر، كما يهوى السفر النهري وركوب الخيل. اعتاد النهوض مبكراً في الصباح لقضاء أعماله. كذلك يحب السهرات العائلية التي يعقدها في حديقة وشرفات القصر. يتجول كل يوم قبل دوامه الرسمي في أرجاء القصر، يتفقد الشخصيات العاملة من طباخين وخدم ومرافقين وحدائقيي القصر الزنكي. رجل بسيط يتحدث مع الحدائقي والطباخ والمرافق والسكرتير الشخصي بشؤون حياتهم الشخصية.

كانت فاضلة تستمع إلى شروحات السيد قدوري وهي تقلّم أظافرها واضعة ساقاً على ساق وقدوري يهز مسبحته الطويلة أثناء الكلام.

* * *

2

راجحة

ملاحظاتي عن نساء الرواية:

((هذا المقطع عن راجحة، قد وضع عليه المغمور أكثر من خط أحمر تحته. لم أدرك ما عناه في خطوطه هذه، فهي لم يشملها الحذف الكلي بعلامة إكس كما فعل مع أكثر من مقطع من المقاطع المحذوفة، ولم يضعها في نسق تاريخ العائلة المالكة قبل المجزرة. وتلك حيرتي في رفعه أو الإبقاء عليه. لقد وضعني في حرج كبير في شطبه وخيانة الأمانة، رغم أنه تحدث في مقطع راجحة على لسان الأنا. بعد تفكير طويل وجدت من الأمانة التاريخية إدراجه ضمن النسق لما فيه من قراءة وافية لما يدور داخل القصر، والتعرف عن قرب على نساء القصر. أدركت أن هذا المقطع لم ينتهِ العمل والتشطيب به، لكن موته المفاجئ يدفع بي لتضمينه في فصل نساء القصر من الرواية. التقطت أذني الجملة الغامضة عن الموضوعة الطريفة لعبد الجبار محمود من زوجته. منْ هذا؟ أية طرافة في قضيته؟ وما هي علاقته بالعائلة المالكة؟

عدتُ إلى البيت وعملت بحثاً موسعاً في محرك البحث، وبعد استجابة من الخادم المطيع وتلبية النداء في تقديم موسوعة كاملة عن جذور وتاريخ عائلة عبد الجبار محمود، وجدت العجب في هذا الشخصية الإشكالية على مر تاريخها،

كذلك عرفت أيضاً أن المغمور كتب روايته هذه بدافع من حبه للنظام الملكي ولم يكن مجرداً أو حيادياً من العاطفة والأهواء، وربما يكون الأمر يحمل لغزاً أشد غموضاً من قصدية الكتابة في تاريخ لحظة المجزرة لانحياز المغمور باتجاه طمس الحقائق أو القفز فوقها أو طمرها)).

بدأ المغمور مقطعه بالشكل التالي:

كان المراهق الصغير عبد الجبار محمود ولداً شقياً متطلّعاً دوماً لتنفيذ سقف مطالبه العالي وطموحاته الكبيرة غير المحدودة. لم يكن مراهقاً حالماً أو شاباً رومانسياً خيالياً.

هو من عائلة معروفة بمهنة الخياطة التي يتقنها جميع أفراد العائلة، الخيوط والإبر وقطع القماش في كل أرجاء البيت. العائلة كلها تجيد وتبدع في فصالات القماش على الأجسام برشاقة وخفة ومواكبة لموضة العصر، يتطلعون بشغف إلى أحدث موديلات الموضة العالمية غبر مجلة البردة الشهيرة.

كان الولد الشاب عبد الجبار، جميلاً أبيض البشرة، مائلاً للحمرة بجسم رياضي مفتول. الأب هو «الأسطه محمود» من أشهر خياطي بغداد قاطبة، يقصده كبار موظفي المملكة والبلاطات والحاشية والأفندية الجدد بما فيهم الباشا السعيد وقدوري أفندي وصالح عطوان وكبار ضباط الجيش، كذلك كان الأب ماهراً بخياطة أزياء شيوخ القوم والسادة الذين حرصوا على التمسك بالأزياء العثمانية التقليدية الشعبية منها والرسمية. هؤلاء لم يكن تعجبهم البدلة الإفرنجية مطلقاً ويعتبرونها واحدة من أكبر البدع والفتن وإشارة واضحة لمحاباة الإنكليز. يتصورون أن الأفندية بدعة ضد الدين واستهتار بالقيم الأصيلة كما يدَّعون، لذلك كانوا يقصدون خياط الفضل الشهير (أسطه محمود)، ليعيد إليهم مجدهم في التمسك بأزياء الماضي.

أمه «بدرية البرصة» كانت أيضاً من أمهر الخياطات الشهيرات في بغداد للخياطة النسوية، خاصة في البدلات النسوية وموديلاتها الإفرنجية وبدلات الزفاف والأزياء العثمانية الشائعة، مع آخر التقليعات للطبقات الراقية والمخملية والأرستقراطية الناعمة من المجتمع البغدادي آنذاك.

يذهب عبد الجبار الفتى الطموح مع أمه وأختيه «صبيحة ومديحة» إلى قصر الرحاب لخياطة بدلات الأميرات المحصنات داخل القصر «عزة ورفيعة وراجحة» لعمل البروفات وضبط المقاسات قبل الخياطة. يبقى الفتى عبد الجبار يلهو في الحديقة مع فتيان آخرين قدموا مع أمهاتهم لقضاء بعض أعمال الأميرات المحصنات في حفافة الوجوه الناعمة والمترعة حتى تحمر، وتشذيب الحواجب وقص الشعور وعمل المكياج وجلب آخر صيحات الأقمشة الجديدة في العالم. كما تحضر نسوة بغداديات أخريات يكون عملهن محصوراً في جلب الحكايات، يتفنن في تداول آخر الحكايات عن أزقة بغداد ومحلاتها.

الفتى عبد الجبار يتوغل في مرّات كثيرة إلى داخل القصر مع أخته الكبرى، وعقد صداقة مع الفتى وحيد بن الزنكي.

وعندما مرّت الأميرة الجميلة راجحة ابنة الملك فيصل الأول والأخت الصغرى للملك غازي وهي تقطف الزهور، أو تمارس هوايتها في الهرولة قريباً من السياج الخارجي للقصر، سأل عبد الجبار صديقه وحيد عن هذه البنت الحورية. قال له: «اسكت، هذه راجحة عندما تمر أخفض نظرك عن رؤيتها».

راجحة واحدة من فاتنات بغداد من دون منازع في تلك الأيام. مفرطة الطول كغزال ممشوق القوام ببشرة خمرية وعيون جارحة في نظراتها، جمالها الساحر جعلها مغرورة لكثرة المتغزلين بها شعراً وحكاياتٍ وأمثالاً من سكان بغداد، مكانتها كونها أميرة ومحظية القصر وهي أيضاً الأخت المدلَّلة والمقرَّبة للملك

غازي، جعلها تتعالى في التعامل مع العامة وتلك ضريبة الجمال الخارق، رغم أنها أحسّت أن جمالها وفتنتها ومكانتها ستمنع الرجال من التقدم للزواج منها، أدركت ذلك الأمر عندما روت لها أحداهن عن حكاية الأميرة الجميلة البائرة في بغداد قديماً.

جميلة بغداد كانت من الذكاء تفكّر كثيراً بمستقبلها، منْ يجرؤ على التقدم أو حتى التفكير في راجحة سليلة الحسب والنسب والملوك؟ لقد قرأت يوماً عن الأميرات الجميلات اللواتي أصبن بالعنوسة، فراحت تفكر قبل النوم في مصيرها ومستقبلها. لم يتقدم أحدهم أو يطرق الباب للزواج، لإيمانه المبكر برفضه من قبل العائلة. الرقة والأنوثة والرشاقة وخفة الدم كانت أسباب كفيلة بقلقها من المستقبل. ورثت من فيصل الأول الطول الفارع، فهي باسقة كنخلة عالية ورشيقة كخيط اللولو، بعينين واسعتين وبياض طاغٍ يجعل المتقدم لها صريعاً من النظرة الأولى فيوَلّي هارباً خارج بغداد كلها. فكّرت أن تنزل من برجها العاجي ولو قليلاً لتستكشف حياة الناس في بغداد، فكانت من الذكاء بحيث استقبلت ابتسامة عبد الجبار بابتسامة خجولة جعلته يسقط في الضربة القاضية منذ الابتسامة الأولى.

كان يحرص في كل مرة على الذهاب للقصر ويتحيَّن الفرصة للوصول إلى شباك الأميرة ليقذف ورقة ملفوفة فيها كلمات مرتعشة تعبر عن مشاعره الخائفة والمتردِّدة تجاه ملكة الجمال الساحر. وحتى يستطيع أن يشبع خياله الجامح من جمال الأميرة الناعسة كان ينتظر مقابلتها وجهاً لوجه في حديقة القصر الخلفية. هناك تشجَّع على الكلام معها لأول مرة:

ـ أميرتي راجحة، أنتِ أجمل بكثير مما يقوله عنك أهل بغداد. ذلك ما قاله لها في أول لقاء في الحديقة الخلفية لقصر الرحاب. أنا عبد الجبار ابن الخياطة بدرية.

ـ نعم أعرفك عبد الجبار. ثم استدارت وذهبت إلى مخدعها يحيطها الخجل بعدما احمرَّت وجنتاها ورفَّ قلبها له.

تطوَّرت حالة الإعجاب والغزل المتقطع، ووصل الأمر به أنه ظل يتابعها خارج القصر أيضاً، يقف متلصصاً في طريق مدرستها، ومن مدرسته في منطقة «البقجة» المطلّة على منطقة الميدان حيث تقع خلفها مدرسة الأميرة، حتى أثمرت تلك المتابعات عن تفاهم وعلاقة من نمط الحكايات التاريخية عن الشاب الذي يغرم بأميرة القصر المحصّنة.

لم يكن محض خيال أبداً، بل اتفق مع فرَّاش المدرسة ليقفز فوق السياج ويصل لأميرته ويتغزل بها قليلاً. بدأت جمرة العشق تلسع لبَّ قلبه، الحب تبرعم في تصرفاته وهوسه بها، رغم أنه كان يعلم تلك الفوارق التي تحول دون الاقتران بها، إنما ذهب عبد الجبار بالتقدم في حياته الدراسية حتى توصل لنيل شهادته. كافح بقوة حتى أنهى تعليمه، ثم حانت ساعة توظيفه كمعلم لمادة الرسم للأميرات في داخل القصر بمساعدة خاله «الحاج سليم» معلّم الرسم الخاص بالملك غازي، والأخير هو والد الرسام الشهير جواد سليم، حتى أصبح قريباً منها في الدروس الخاصة التي يقدمها لتعلم فنون الرسم داخل مخدع الأميرة.

أثمرت نظرات الإعجاب وتبلورت إلى كلمات مغمّسة بابتسامات متبادلة وقصائد شعر رومانسية. كان يكتبها له شاعر مغمور وزميل له في المدرسة، رغم أن قصائد الغزل كانت بسيطة لكنها جعلت الأميرة تقع في حبه فعلاً.

تقدم عبد الجبار للكلية الجوية الملكية ليزيد من فرصة قبوله المجتمعي كضابط طيار في القوة الجوية الوليدة. ثم يتخرج منها برتبة ملازم طيار بقدر الدنيا، لكن هل يستطيع إقناع آمره الشخصي العقيد الركن «محمد علي جواد» برغبته في الزواج من راجحة؟

نعم اقتنع العقيد فعلاً بصدق نوايا الملازم أول عبد الجبار، وأخبره أنه سيتبنّى الموضوع الخيري شخصياً. أخذه إلى رئيس أركان الجيش «بكر صدقي» ليتدخل شخصياً في إقناع الملك غازي بهذه الزيجة رغم عدم التكافؤ، لكنه طمع في كرم الملوك. لا أحد في بغداد وحتى بكر صدقي يدرك أن الملك غازي سيوافق على الزواج من الملازم أول ابن منطقة الفضل الفقيرة في طلبه يد أميرة القصر وفاتنة بغداد ومنذ المرة الأولى.

* * *

تقع منطقة الفضل وسط بغداد في جانب الرصافة منها، منطقة شعبية تراثية كانت تبدو في تلك الأيام كمدينة عباسية عتيدة ومحافظة على أجوائها التراثية بقوة، بفقرها وشعبيتها ووسطيتها في التديّن والعبادات، بمجونها وعفَّتها، بكل مدنيَّتها الجامحة وحيويَّتها وتطلُّعها وشغفها في الحياة. كانت بالفعل مدينة لا تنام حتى الصباح الباكر آنذاك. فيها أحياء صغيرة كعباس أفندي التي كان منها المثقف التنويري فهمي عبد الرحمن المدرس و«فضوة عرب» أنجبت مثقفاً آخر هو عبد الكريم العلاف، وفيها جامع سراج الدين الشهير وإلى جواره محلات الموسيقى الشعبية من دون أي تناشز، وعلى الجانب الأيسر جامع الفضل الكبير وجامع الغرابي الشهير وبقربه حانة صغيرة للمجارية أصحاب عربات الخيل. أما المقاهي الشهيرة في الفضل فهي مصدر الحكايات وتعطي دروس التحضر والثقافة. فيها أيضاً دزينة من الشقاوات العتاة والطيبين.

كان يتردد عبد الجبار على مقاهيها ويعتبرها المكان الملائم للتخت الشرقي عندما تصدح بأصوات قرّاء المقام والذكر فيها. توارت الحياة في الفترة العباسية وبقيت رائحتها في منطقة الفضل، للحياة فيها طعم بغداد القديمة بكل غنجها وعنفها بعَيَّاريها ومغفَّليها، بمجونها وتقواها.

تركت بعض آثارها باقية لغاية اليوم، حيث كانت تنتشر في درابينها وأسواقها المراهنات بلعبة الزور خانة (نادي القوة للمصارعة) ومراهنات أخرى في حلبة صراع الديكة. تلك المدينة الشعبية ولد فيها عبد الجبار ابن الخياط الشهير أسطه محمود الذي استطاع الزواج من أميرة القصر، ولتصبح قصص التراث في زواج الفقير من الأميرة قصة حقيقية.

«هذا هو المقطع شبه المحذوف من الرواية، لم أدرك لغاية الساعة لِمَ وضع الخطوط الحمر تحت أسطره؟».

* * *

3

هيام ثالثة الجميلات

اسم جميل لامرأة أجمل من اسمها، خلابة كمنظر الطبيعة، برية لم يصلها بشر. للاسم سحره. تطرب له الأذن أحياناً والهيام بها حين سماع إيقاعه. هيام هام في سحرها ورِقَّتها الكثير من الرجال، سليلة عائلة عربية أصيلة من شيوخ الأعراب الذين تركوا المضارب للصحراء وسكنوا المدن، بعد أن أغوتهم هذه المدينة ونعومة العيش فيها، حتى فضّل أبوها شيخ عموم بني ربيعة العيش في بغداد المسوَّرة بالأمان والخضرة الوارفة والنعومة.

جاء الشيخ الأعرابي الطويل من برية الموصل مع عائلته، قاصداً نحو التحضر والمدينة الناعمة، للتأقلم نزولاً عند رغبة بناته الخمس. هيام ابنة شيخ العرب تمتلك كنزاً عظيماً من مقومات الجمال البري الذي لا يحتاج سوى إلى لمسة سحرية ليطفح فيضه وتعمَّ رائحته على سائر مدينة بغداد التي زادتها جمالاً وهي تتكيف مع هذه المدينة الشاسعة. هذا الجمال البري الذي أجبر الوصي عبد الإله على التنازل والرضوخ، خارقاً تقاليد العائلة المالكة والوقوف عند مطالب الشيخ وابنته، طالباً الزواج من هيامه.

كان اللقاء الأول مع الشيخ وابنته بحفل عائلي اجتماعي في النادي الملكي على ضفاف نهر دجلة.

جمع الشيخ الأعرابي من ثروة طائلة بعد أن باع كل حلاله من الإبل والماشية

واشترى بيتاً كبيراً في بارك السعدون في الجانب المسيحي منها. إنه التحول المريب من الصحراء الخشنة بملمسها والاستقرار حيث النعومة الباذخة، ورغم طباع الوصي الصعبة في اختياراته للزوجة، بعد أن أضرب عن موضوعة الزواج لفترة طويلة من الزمن. لكنه أذعن لمتطلبات البنت والشيخ في صفقة واحدة.

مسّ الجن رأس الوصي حين تكلم معها وهي تتكلم اللّهجة البدوية الأصيلة مختلطة بلهجة بغدادية، حتى أصبح ليّناً في طلب الزوجة منحنياً لتلبية طلباتها.

حدث هذا بمصادفة عجيبة، عندما بادر بتكليف خياطة العائلة بدرية البرصة أم عبد الجبار بالبحث له عن أجمل امرأة في بغداد لخطبتها له. لم تتأخر خياطة العائلة العارفة بشؤون الأسر البغدادية وأصولها في البحث كثيراً في مناطق بغداد، بعد أن استعانت بـ«أم السوس» خبيرة في شؤون بنات بغداد وأصولهن. حضرت البرصة أمام الوصي في مقابلة خاصة في قصر الزهور، أجابته على الفور ومن دون مقدمات: «هيام سعادة الأمير المفدّى».

ـ من هذه؟ اسمها حلو أخاف أن أهيم بجمالها بعد اسمها؟

ـ هي ابنة صديقك شيخ مشايخ ربيعة يسكن في منطقة بارك السعدون، عنده حورية يخاف عليها من الهواء ويستحي من طلّتها القمر، وإذا مشت تنحني لها الأشجار وتذبل الزهور غيرة منها.

ـ ها... تذكرتها لقد شاهدتها في الحفل الملكي. فعلاً اختيار مناسب بدرية هانم. كنت قبل أن تتحدثي معي وددت أن أخبرك عنها. إذن على بركة اللّه. أنا موافق.

تزوج الأمير من هيام بسرعة فائقة. ورغم الطباع القاسية والعصبية وتوتر الأمير في إدارة شؤون المملكة وصخبه وهرجه وانفلات أعصابه وعربدته، لكنه في الليل كان طوعَ بنانها. تجلس على سريرها كملكة بتاجها الذهبي الذي صنعه

لها، لتأمر الأمير وهو صاغر لها وتحت قدميها. تذوَّقَ فاكهةَ البرية فذاب تدريجياً في طعمها، وغادرته الطباع العصبية، لانَ كثيراً حتى كاد يتغيَّر كلياً. الأميرات داخل القصر يتابعن عن كثب كل ما طرأ على سحنة الوصي.

اعتادت هيام بسرعة على حياة الملوكية بكل ترفها وأبّهتها وتقاليدها البدوية. عرفت كيف تمتص توتره وتوفر له ليال سحرية حمراء ليجدد نشاطه في اليوم التالي.

تعتبر هيام ثاني امرأة ناجية من مجزرة الرحاب. فبعد أن تجمَّعت العائلة المالكة في منتصف الحديقة، وقرب النافورة التي كانت تعمل في تلك الساعة وبعد أن نفّذ العباسي جريمته أصابتها إطلاقة غدارته في ساقها.

وقعت ضمن كوم الأجساد الممددة على أرض الحديقة غارقة بدمائها. توقف الرمي على العائلة المالكة بعد أن سقطوا جميعاً على الأرض، تقدم أحد أصدقاء أبيها ومحاميه الشخصي لمتابعة العقارات التي اشتراها الشيخ في بغداد، المحامي المعروف ويدعى «عباس توفيق» من سكنة منطقة المنصور، وصل مع الجماهير المحتشدة في ذلك الصباح العاشورائي إلى قصر الرحاب.

استطاع الدخول إلى باحة القصر ليتفحص الجثث وتفاصيل المجزرة وما زال الدخان الأسود في تلك اللحظة يتصاعد من شبابيك غرف القصر. تعرَّفَ على هيام المصابة، سحبها بسرعة خارج القصر مدَّعياً أنها خادمة من أقاربه، لم يعترض عليه رماة العسكر المهاجمين، ولم يدركوا أنها مصابة على قيد الحياة، كانت تتنفس بصعوبة بالغة.

استطاع الرجل في باب القصر أن يقنع أحد العرفاء، وكان الرجل كردياً صلباً بمعيته سائق سيارة نوع فان عسكرية. قرَّرَ المحامي والعريف أن ينقلوها إلى المشفى الملكي في باب المعظم. وافق العريف منتخياً للمحامي الجريء. كما

استطاعا بذكاء وجرأة أن يتخلَّصا من فضول الجماهير المحتشدة الذين حاولوا الإجهاز على هيام كونها مِن بقاياً العائلة المالكة. لكن التصرف السليم والهدوء الذين امتاز بهما المحامي والعريف أقنعا الحشد الجماهيري بفتح الطريق لهما، وأوصلاها إلى المشفى.

بعد ثلاثة ساعات أفاقت هيام وهي ملقاة على سرير في المشفى الملكي، لكن الطبيب بادرها بسؤال خبيث عن اسمها، وبسرعة دون تردد أعطت اسم صديقتها وأخت المحامي «ساهرة توفيق» كونها مصابة بطلق ناري في بيت قريب من قصر الرحاب وهي تنام على السطح.

ذهب المحامي على الفور إلى منطقة بارك السعدون بسيارته. أخبره أباها بما جرى لهيام المصابة جراء المجزرة، وعن مكانها في المشفى. وتحت جنح الظلام ذهب الشيخ وابنه مع المحامي لإخراجها من المشفى كونها «ساهرة توفيق» وتكفلوا بإكمال علاجها في بيتها، بعد أن وقَّع الشيخ على خروجها من المشفى على مسؤوليته، حيث سيزورها طبيب خاص في بيت أبيها.

نقلت هيام تفاصيل قصة المجزرة لصحفي أجنبي بعد مرور سنة من الحادثة:

ـ كنا نسير في تلك الساعة النحسة بطابور طويل من الرجال والنساء والأطفال، يتقدمنا ضابط منهم وخلفنا آخر، بعد خروجنا من باب المطبخ متجهين نحو الحديقة الأمامية قرب النافورة. دار حوار سريع بين الضابط المُكلَّف بحراسة الملك وأحد ضباط الانقلاب. كان العباسي واقفاً على بعد خمسة أمتار متكئاً على دعامة القصر، بفمه سيجارة وبيده بندقيته، وعندما توتَّر الحديث بين الضابطين انتهى بقتل حارس الملك، في تلك اللحظة أطلق النار ولم ينطق كلمة «اللّه أكبر» كما تذكر بعض الصحف.

قصة هيام لم تنته بعد ما جرى لها في فجر يوم الرحاب. تمر الأيام والسنين

وتندمل الجراح، وما زال الجمال الآسر لم تذبل زهرته بعد، يحوم كفراشة ملونة على وجه الأميرة الثكلى بزوجها الذي تفنّن بقتله الجمهور الغاضب.

بعد سنين تذكر إذاعة البي بي سي في واحد من برامجها، أنها تزوجت من ابن عمها وذهبا للعيش في أمريكا، وللأسف يموت الزوج من جديد في مرض عضال. ينقل الشيخ أغراضه وبناته وابنه ويعود من حيث أتى مودعاً بل لاعناً بغداد وزيفها، وكأن الأميرة الجميلة هيام مكتوب عليها موت الأزواج على يديها. تحاول بعد رحيله من جديد العودة في عام 1994 إلى بغداد، لكنها جوبهت بقرار المنع من دخول العراق بقرار مجحف، يجعلها تختنق حسرة لزيارة بقايا الأهل ومنطقتها الأثيرة بارك السعدون. وهي لا تعلم أن بيتها قد تركه الشيخ وعاد إلى جزيرة الموصل.

تموت في نهاية ذلك العام المذكور في عمان. ووجدتْ من يدفنها على النفقة العامة لبلدية عمان. هكذا يدفن الجمال ويذوب تحت قسوة التراب، هكذا أيضاً تترك الأميرات الجميلات قصصاً يرويها من يبحث في خبايا البلاطات والقصور، عمّا تخلفه الأحداث من شواهد شاخصة داخل الوقائع.

في عمان أيضاً يأتي صحفي مصري موفداً من مجلة «روز اليوسف» ليعمل معها لقاءً شهيراً عن علاقتها الزوجية، تنفي فيه مطلقاً العجز الجنسي للأمير عبد الإله وتعتبر هذا الكلام من إشاعات العراقيين الكثيرة عنه. يعود الصحفي ويحرف الكلام ويكرس قضية العجز الجنسي التي أصرَّ على ذكرها من باب الإثارة الصحفية.

جلال كوداك يهز رأسه لمرات عدة حين يتطلع إلى صورة هيام وهي تجلس في الحديقة مع زوجها الأمير القتيل، تطعمه كما يذكر ـ ملعقة العسل الملكي الذي تربّى عليه.

* * *

الباب العاشر

الفصل السادس من روايته

1

قبل الواقعة

في هذا اليوم العادي جداً قبل الواقعة بيومين، لم تحصل إشارات غير عادية لحركة الناس في أسواقهم أو أزقتهم أو حتى مقهى سلمان بغدادي.

ففي ضباح ذلك اليوم افتتح الملك مدرسة جديدة في منطقة جسر ديالى، وقد استقبلته جماهير المنطقة أحسن استقبال، ولم يلحظ أي تذمر في حياتهم. تذكر إذاعة المملكة في نشرة أخبارها، أن المفدى زار مشفى الأمراض العقلية المشيد حديثاً وأوعز جلالته لتوفير العلاجات اللازمة لمرضاه وتعيين الكوادر الصحية التي أنهت دورتها في خارج البلاد.

في ذلك الوقت، واصل النحات «ديار البازي» الذي تطوّع لعمل تمثال نصفي للملك، كان يعمل من الصباح حتى المساء وبهمة عالية وهو يرتدي صدرية زرقاء، كان مشغولاً في «الفينشنك» لملاحظات أخيرة عن رأس الملك، لم يتبقَّ له سواها، جاءت الملاحظات من صديقه النحَّات السوري عن أبعاد الرأس والنسب الفنية لضبط توازن النسب وتقريب الشبه، فبروز الأنف المستدق للملك بهذا الشكل بحاجة إلى تحجيمه قليلاً. لا توجد إشارة فعلية عن قرب الإطاحة برأس الملك قريباً من فوق مائدة النصب إلى أرض المشغل، قبل أن يهشم رأس الملك في الليلة القادمة.

في قاعة المملكة للحفلات الموسيقية كانت الاستعدادات على قدم وساق

لبيع ما تبقى من بطاقات الحفل للفرقة الأذرية التراثية التي ستقدم وصلاتها عن التراث القوقازي يوم الخامس عشر من تموز، وأيضاً لا من إشارات تذكر عن إلغاء أو تأجيل الحفل الموسيقي هذا، فقد وصلت الفرقة بكامل عدتها إلى بغداد منذ يومين.

كذلك عند طواف العين الطائرة في سوق الصفارين لم يُكشف عن توقف في عمل الدِّلال النحاسية الخمس مع الفناجين لتقديمها كهدية لزواج الملك، وقد تبرَّع بعملها «سالم بيك الأطرقجي» ليس تملّقاً أو تزلّفاً للعائلة كما شاع في السوق، بل لاحترامه العظيم للعائلة المالكة وصداقته الشخصية مع رجالها. لم ترصد العين ولم تتلقَّف الأذن في يوم الثاني عشر هذا، أية إشارة تُذكر لمؤامرة تحاك في ظلام بغداد مطلقاً سوى نذير الشؤم في تهشُّم رأس التمثال وعزوف السيد ديار لإعادة العمل به من جديد بعد إتلاف أجزاء منه. مما جعل الحياة العامة تسير كالمعتاد بالطريقة المعتادة ذاتها.

حتى القَوَّادة السورية الشهيرة «فاطمة الحمصاني» والمعروفة بـ«خالة فطم»، عندما استلمت مكالمة هاتفية من موظف أقدم في ديوان البلاط الملكي يدعى «فؤاد بيك الرواي» لترتيب سهرة ليلية له ولزميلين آخرين من البلاط، لم تضع فطم في بالها حسابات المستقبل، أو لم تصلها إشارة بنيّة الانقلاب المبيّتة لانهيار النظام الملكي. كانت تملك أكبر بيت عامر على طرف كرادة مريم، يزوره كبار ساسة البلد وموظفوه الحكوميون وتجار الشورجة وأصحاب الونجات للتجارة النهرية. وهي الوحيدة من بين مائتي قَوَّادة مسجَّلة في مراكز شرطة بغداد تعمل بالآجل والتقسيط مع إضافة فائدة نقدية تصاعدية لا تتجاوز حاجز الـ(5 %) شهرياً في حالة تأخير تسديد الحساب، كان لديها موظفٌ يسجل الديون بسجل ضخم ويوضع السجل مع المبالغ المستحصلة في القصعة العملاقة.

طلب فؤاد بيك ترتيب سهرة مع أجمل ثلاث بنات يونانيات، بعد شيوع

وصولهن إلى بغداد، ليفتتحوا الطريق ويسجلوا سبق الافتتاح، ويشهد لهم سجل فطم القوَّادة بأنهم أول من ضاجع اليونانيات الثلاث. مثلما تشهد لهم «مرمس» الأرمنية ولبنى اللبنانية وسوري البغدادية التي كانت تجيد الغناء الريفي والرقص الجوبي بذلك.

سجلت «فطم» فاتورة الطلب في سجلها، والحساب في دفترها السري على أن يدفع موظفو القصر الملكي الحساب دفعة واحدة في نهاية الشهر كالمعتاد. لم يدر بخلدها الخوف على انهيار باب رزقها في يوم الرابع عشر القادم. رغم أن البنات الثلاث قد أتعبتهن تلك السهرة وهي باكورة عملهن المهني في بغداد، بالرغم من أن أحد الموظفين أصر على التوقيع بقلم «قوبيا» على مؤخرة صغيرتهن، كونه الأول في بغداد كلها من مارس الحب مع هذه اليونانية الفاتنة، ولم يستلمن سوى الإكرامية من التفاليس البسيطة.

العين الطائرة لم تكشف حركة العسكر واجتماعاتهم السرية المتلاحقة في ترتيب خطة الهجوم. لقد أصاب هذه العين العمى. بالرغم من أن الاجتماعات والتوقيتات كانت تدور في حلقة سرية محصورة بين خمسة فقط من كبار الضباط الأحرار.

قبل أيام قليلة فقط عاد الأمير عبد الإله من استنبول ليحل محل الملك أثناء سفره إلى لندن، هذا من جهة الملك والمملكة، أما من جهة الضباط الأحرار، فقد أتمَّ الزعيم عبد الكريم مع العقيد عبد السلام بقية التفاصيل الدقيقة لحركة اللواء العشرين للانقضاض على القصر حين وصول اللواء العشرين بالقرب من جسر الخر. تركا توقيت ساعة الصفر للأيام أو الساعات اللاحقة. لكن الخلية المصغرة قد دخلت في الإنذار منذ ذلك اليوم، بعد عودة الزعيم إلى وحدته خارج بغداد للتمويه والمباغتة. فيما لم تدخل الخلايا الأخرى من التنظيم درجة الإنذار والحذر.

في يوم السبت في الثاني عشر من تموز، أُعدّت الخطة من قبل الخلية هذه، بانتهاز فرصة تحرك اللواء العشرين من جلولاء حتى الأردن، كان العقيد عبد السلام هو الذي خطط لانتهاز فرصة وصول هذا اللواء إلى جسر الخر القريب جداً من قصر الرحاب، لكن هذا اللواء غير محسوم الولاء من قبل قادته في هذه اللحظات الحرجة. كان العقيد عبد السلام هو أحد قادة أفواجه وعلى دراية كاملة بالولاءات وقد تمّ تنسيبه في وزارة الدفاع لحركة قطعات القوات البرية.

لم ينم ليلته نهائياً، فقد عمل جاهداً على إبعاد قادة الأفواج الملكيين أو من الموالين للمملكة وإبقاء الموالين للعقيدة العسكرية وشرفها المزعوم، فقد أبرق مجموعة برقيات أثناء تحرك اللواء والاقتراب من بغداد، لكن الوقت يمضي سريعاً ولا يوجد متسع من الوقت للمناورة، والحكمة والقرار لم يعودا بطريقة الشورى ضمن قيادة حركة الضباط الأحرار بعد هذه اللحظة، حلم الفرصة الذهبية سيكون في متناول اليد قريباً.

لا يوجد جسر سوى الخر لعبور قوة اللواء نحو طريق الشام، علماً أن هذا الجسر يبعد فقط مائة متر تقريباً عن القصر، تلك الظروف المواتية هي التي دعت العقيد للتحرك الفوري في تغيير آمري الأفواج الثلاثة واستبدالهم من الضباط الموالين له في يوم الثالث عشر.

بتلك الطريقة يضمن دخول اللواء إلى بغداد تحت جنح الظلام ليحتلها من دون أي سؤال أو مقاومة، وينتقل العقيد إلى مقره البديل في دار الإذاعة ليقود المعركة الفاصلة من هناك وفق مخطط الاجتماع العاجل والأخير.

توقفت القطعات في محطة «كاسل بوست» محطة واسعة ترابية تعد مركزاً لتواجد ثكنات الجيش البريطاني في عهد الاحتلال. تبعد ما يقارب 25 كيلو متراً عن حدود بغداد الإدارية، وكان اختيار هذه المحطة لدراسة التدابير

العسكرية وانتشار القوات وتوزيع التعليمات العسكرية التقليدية ومهام الوثبة الأولى للضباط الصغار ونوابهم وضباط الصف والعرفاء وكأن هؤلاء يعتقدون أنهم ماضون إلى الأردن.

* * *

2

الرحاب من الداخل

تقع حجرات النوم كلها في الطابق الثاني من قصر الرحاب، بينما خصص الطابق الأسفل للإدارة الملكية وغرف الحاشية وغرفة ملحقة إلى آمر الحرس الملكي العقيد طه البامرني المسؤول عن فوج حماية الملك وأسرته. هذا القصر الذي كان اسمه أكبر بكثير من عمارته وهيكله المتواضع البسيط.

تقع غرفة نوم الملك في الجناح الأيمن من القصر في الطابق الثاني، يقابلها غرفة خالته الأميرة عابدية وأمها، أما غرفة الأمير عبد الإله وزوجته هيام فهي في الرواق المقابل بجوار غرفة والدته الملكة نفيسة أرملة الملك علي ملك الحجاز.

انتقلت العائلة كلها من قصر الزهور الأوسع وجاءت إلى قصر الرحاب الأصغر، فيما الزهور هو الأكثر منعة وحصانة. بينما كان الملك فيصل الأول يسكن في قصر شعشوع على كورنيش الأعظمية ويدفع بدل الإيجار لمالكه اليهودي.

لا يبعد قصر الزهور عن الرحاب سوى بضعة مئات من الأمتار عندما كان مقراً للملك الراحل غازي، لكن الوصي عمد على نقل إدارة ملكه إلى الرحاب الأقرب من طريق الشام، ولا يفصله عنه سوى حاجز ترابي، يستطيع أي مخلوق أن يتجاوزه بسهولة للوصول إلى حديقة القصر الغنّاء مثلما فعل عباس الزنكي في يوم الواقعة.

يستلم الملك الصغير مرتباً قدره (48) ألف دينار في السنة تضاف لها

مخصصات ديوانية مقدارها (12) ألف دينار سنوياً، فيما تقل مخصصات ولي العهد لتصل إلى تسعة آلاف دينار في السنة الواحدة. بتلك الرواتب المتوسطة كان يعيش الملك عيشة طبيعية ليس فيها من الإسراف الكثير.

باشرت حكومة الباشا السعيد ببناء القصر الثالث المخصص للملك الصغير، حيث سيكتمل البناء في السنة اللاحقة، بحيث يحق للملك الانتقال إليه مع زوجته فاضلة في الخريف القادم.

في الساعة الثانية عشر ليلاً ينتهي سقف يوم الثالث عشر من دون أية إشارات لما سيحصل في الغد سوى رسائل التحذير والتي تتكرر كثيراً هذه الأيام.

ففي الساعة الواحدة ليلاً أطفئت كل مصابيح القصر المعلّقة على الأعمدة، وخلد للنوم كل ساكني القصر بانتظار يوم الغد، موعد سفر الملك وحاشيته، وما زالت الكلاب السلوقية تزخرف في هدوء الليل بنواح متقطع كموسيقى تشاؤمية. إنه نباح كالنواح، عووووواااااييييييييي، تخفت الأصوات، ثم ما تلبث أن تتصاعد من جديد بين فترة وأخرى. إلا الملكة نفيسة فقد أرّقها التفكير وشعرت بنبوءة الكلاب السلوقية.

نزلت من سريرها وجلست على سجادة الصلاة لتقرأ القرآن وتنشغل بالدعاء حتى بداية خيوط الفجر الأولى، كل ما في القصر نام إلا القدر المحتوم لم ينم ليلتها وبقي يحوك تفاصيل الغد. الكلاب السلوقية بقدرتها الفائقة على الشم أدركت رائحة الخيانة والغدر، فراحت تعوي بطريقتها المعروفة، وكأن ذلك العواء هو إشارتها الوحيدة.

في تلك الليلة ثمل جميل قره تبي كعادته ثم رقص على المنصة حتى وقع، ثم ضربه أحد السكارى بكعب قنينة فارغة، سقط بالقرب من الساق البيضاء العارية لمعشوقته رحلو. تناوب عليه مجموعة العاملين وقذفوه خارج الملهى.

نهض ينفض غبار الأتربة ووضع سدارته على رأسه، وراح يترنح في الدرابين الضيقة في الحيدرخانة باحثاً مثل كل ليلة عن بيته في العاقولية، بعد أن تخلّى عنه خلّه موسى الشمّاع. بزغ الفجر وهو ما زال يبحث عن بيته.

* * *

3

موسيس مالاكيان
حلاّق الملك

بزغ فجر يوم الثالث عشر من تموز، اليوم الرسمي الأخير للملك الصغير في محيط المملكة المترامية الأطراف والتي تئن من جغرافيتها المهلهلة، ففي ساعات العمل الأولى للصباح تدبُّ الحركة على قدم وساق داخل أروقة القصر، أو في الحديقتين الأمامية والخلفية. كانت حركة التدريب الصباحية المعتادة لفوج الحراسة الملكي هي المحفّز للاستيقاظ الصباحي والنشاط الكلي للجميع.

كالمعتاد ذهب الملك في الساعة التاسعة صباحاً لمكتبه بعد تناوله لفطوره المتواضع في القيمر والعسل الأبيض، فثمة وفد من فلاحي المشخاب كان ينتظر فخامته لبحث الحصص المائية المخصصة لموسم زراعة «الشلب والتمّن العنبر» فهم بحاجة إلى كمية مياه أكثر مع شحة الأمطار في السنتين الأخيرتين، لذلك أوعز الملك بحل تلك المشكلة مع الباشا ووزارته حال عودته من لندن في أول عمل له في هذا الصباح.

باشر بتوقيع البريد اليومي وختم الفرمانات الملكية والقاضية بالتنفيذ، ممهورة بكتب رسمية موجهة لرئاسة الوزراء، أو تلك التي يتم فيها التوجيه الملكي لألوية المملكة، ختمُ التاج الدائري الأحمر ذيّل كافة الكتب المكدّسة على مكتبه، بانتظار حلول الساعة الأخيرة من الدوام.

ثمة رجل «أحمراني» بدين طال انتظاره في غرفة السكرتير. إنه حلّاق الملك الخاص ينتظر وفق جدول الموعد الشهري المخصص له. حلّت الساعة الثانية بعد الظهر فدخل السكرتير الخاص على الملك، ليخبره بحضور الحلّاق الأرمني «موسيس مالاكيان» ينتظر، جاء حسب الموعد لحلاقة شعر الملك. أمره بالدخول والمباشرة فوراً بعد أن جهّز له الكرسي الخيزران وارتدى الصدرية البيضاء. طقطق مالاكيان بمقصه بابتسامة بلهاء وحرك ماكنته الألمانية «سولونجين solingen» لتباشر بفتح فكيها مع ثرثرة اعتاد عليها الملك منه في كل نوبة حلاقة.

قطع الملك الصغير عليه الطريق لرغبته الملحة بالحديث عن أحوال الرعية بما فيهم أسطوات وأفندية شارع الرشيد والحيدر خانة والأعظمية.

«هل يشكون من شيء» قال له الملك. «نعم حزرات مليك... يشكون من هرارة صيف وكثير بق» قال موسيس بعربية متكسرة بلسانه الغليظ.

كانت هذه المرة الأولى التي يجرب فيها الحلاقة بقصة الشعر القيصرية (قيصر وان) التي طلبها الملك من بين الصور التي مرّت عليه، تلك القَصة التي ارتعشت اليد المترفة للأرمني البدين وهو يباشر بقصقصة شعر الملك بتلك التقليعة الوافدة للشرق حديثاً. سأله الملك:

ـ شنو موسيس ما راح تتزوج؟

ـ نوو... جيلالة مليك راحت على موسيس خادمكم، «المزيّنجية» أخذت حياتي. بركة بيك مولانا، سمعت إنوو أنت راح يتزوج... تبريكات جيلالة مليك تبريكات.

ـ تشكرات عزيزي موسيس.

يعلن جرس البلاط انتهاء الدوام الرسمي، يستعد الحرس في الرواق للاصطفاف وتأدية التحية، يخرج الملك من مكتبه، يذهب الملك بعد الحلاقة حسب الجدول

اليومي لتناول الغداء مع أسرته، وبعدها يستوجب عليه الخلود لقيلولة مقدسة وفق منهجه الصيفي، وفي ذلك المنهج المقرر أيضاً ليوم الثالث عشر سيتم فحص حقائب السفر الصندوقية قبل إغلاقها وتتمة النواقص، وآخر التتمات هي تكليف الخادم الهندي بِكَيّ البدلة البيضاء وتلميع الحذاء الأبيض للملك.

في الساعة السادسة مساء ذلك اليوم أطلّ حضرة الملك من جديد من شرفة القصر على الحديقة، فوجد «لمة الحبائب» مجتمعة. الأسرة والمقربين من العائلة المالكة، حضروا لتناول الشاي فنزل نحوهم، مع خاله عبد الإله وخالته الأميرة عابدية والتي كانت بمثابة الأم بالنسبة له في العناية به، والحرص على شرب شاي العصر في شرفة قصر الرحاب العتيد كطقس اعتادته العائلة والعوائل البغدادية مع الكعك أو «البخصم».

كانت هذه الجلسة الدائرية تتسع كلما حضر أحد ما، توافد على هذه الجلسة الشريف حسين وتبعته الأميرة هيام، وكذلك حضرت عائلة بغدادية من بيت غازي الداغستاني، زوجته الجميلة وأختها وابنتهم تمارا وابنهم تيمور لمراقبة خفة الساحر الهندي الذي بدأها أمام صندوقه السحري والكرات الملونة والحمامة البيضاء وورق اللعب بين يديه، آخر الحاضرين كانت صديقة العائلة، سارة الجميلة، فارعة الطول الثرية وهي من بيت السربادي جلبتها سيارة من نوع سكودا للسهر مع العائلة المالكة.

همس الملك بأذن حاجبه، فعواء الكلاب كان يعكّر مزاجه. ذهب مربي الكلاب السلوقية لإسكاتها، فقد كانت تنوح بطريقة عجائبية هذا المساء كالنساء الثكالى، مما أزعج الجالسين في الشرفة بهذا النواح المريب. لم يفلح المربي في لجم السلوقيات إلا بإخراجهن جميعاً نحو أرض منخفضة قريباً من نقاط حراسة اللواء الملكي خارج السور.

معظم الأحاديث التي دارت حول مراسم زواج الملك الصغير والرحلة المقررة في الغد. لذلك كانت الأجواء مرحة والقهقهة عالية يسمعها أفراد الحرس الخفراء على حدود القصر، ربما استغرب بعض الحضور من الانطلاقة السعيدة غير المعتادة للأمير عبدالإله المعروف بانكماشه وكآبته وعصابه. الأميرة عابدية كانت تذكر مع كل جملة يقولها أحد أفراد السهرة أثناء الضحك المتواصل بقولها، «قلْ إن شاء اللّه. اللّه الساتر من الضحك يجعله خيراً على الجميع يا ربي». حتى أن الملك الصغير خاطبها:

ـ أبله جيجي متشائمة أنت كتير، طبعاً إن شاء اللّه.

كانت الجلسة المسائية مكتملة الحفاوة والاسترخاء التام، يتطلع فيها الجميع بين حين وآخر إلى قصة شعر الملك ويتهامسون ثم يضحكون في جو عائلي أليف، قال الملك:

ـ زين على شنو تضحكون؟ أريد أضحك معكم.

كان الملك كعادته يخلط بين لهجة عراقية بغدادية مع شامية مغمّسة بكلمات عثمانية. كان الملك قبل هذه الحلاقة يعاني من تجعّد نهايات خصلات شعره خاصة من الخلف. كانت تتقوس خصلاته بشكل يزعجه كثيراً عندما يطول، لكن هذه المرة عمد الأرمني إلى تخفيف شعر الملك بشكل متدرِّج من القفا إلى الهام:

ـ هذا الأرمني فنان حقيقي، جلالة الملك، ما قالته بنت الداغستاني له. فضحك كثيراً وقال:

ـ إن عجبتك قصة الشعر هذه، ذلك يعني أن موسيس قد أجادها تماشياً مع المودة، ويتناسب مع الأجواء الإنكليزية فأنا كما تعرفين غداً مسافر عزيزتي تمارا.

* * *

4

أحلام صيفية للزنكي

كانت مؤخرة الزنكي مكشوفة، عندما كان يحلم بالوصول إلى القمة. وعندما تكون مكشوفة فقد يفسد ما يتحقق من الحلم. كان عليه الذهاب فوراً إلى المرحاض لتفسير وقائع حلمه، والذي حدث في مطلع الفجر ما قبل الواقعة.

أول الهاربين من جحيم قصر الرحاب هو «عباس الزنكي» وعائلته، خرج من كوة صغيرة من زاوية قصيَّة لحديقة القصر تحت جنح الظلام الذي ما زال مهيمنا قبل حلول مشهد الفجيعة عند انكشاف النهار الأخير، ذلك الظلام الذي ينذر بالمجهول مع أصوات مبهمة تأتي من نباح الكلاب السلوقية. «اذهباً إلى مواقعكما المعتادة، أنتما في الإنذار»، ما قاله العقيد للزنكي وقره تبي قبل أن يخرجهما من بيته.

لكن الزنكي استطاع أن يفتح الأسلاك الشائكة قبل الهجوم بيومين، ثم أزال بضعة طابوقات من السياج وغطَّى الفتحة بعذوق النخل اليابسة. حمل «فرود» صعود النخل وكيساً من القماش لأدوات الزراعة، كهوية يشهرها أمام المعترضين على هروبه المبكر من القصر.

أدرك الزنكي نهاية الحياة في القصر وإعلان النهاية الحتمية لحياة الأميرات الحالمات، عندما ربط سلك البرقيات تحت شجرة الصنوبر، كان يراوده شعور الانتقام من الأميرة التي ضربته ذات يوم. أما وحيد فقد تسلّح بالحرز الذي

شده على زنده وقد جمع كل الذكريات مع حبيبته رازقية التي تركها لتلقى مصيرها في القصر.

ستنقلب الدنيا عما قريب، بتلك الطريقة يفكر الزنكي الأب بحس فطري بسيط. حتى لو مُسخ العراقيون وتحولوا إلى قرود بهجومهم المرتقب على قصر المملكة. حتى لو أنهى خدمته الطويلة في القصر على طريقته، عليه أولاً الهروب بجلده وعائلته الصغيرة، متخلصاً من هاجس المسخ وتحوله إلى قرد أسود، وإذا ما اعترضه الجنود خارج القصر سيشهر منجله: «عمي أنا فلاح فقير. على باب اللّه». تلك الجملة الجاهزة التي كانت على طرف لسانه حين يباغته سؤال العسكر عن وجهته. الفضيلة الوحيدة للرجل الهامشي هو بقاءه على قيد الحياة للنهاية. فيما الروايات غير المسندة ذكرت أنه خيط الارتباط الوحيد الذي استمالته خلية الضباط الأحرار، عباس الزنكي ولا غيره أحد. كان الرجل طموحاً وعلى ثقة في غير محلها بوعود العسكر. لقد تمادى في أحلامه كثيراً. تكريماً له بعد نجاح الحركة في القضاء على كامل العائلة المالكة وقلب النظام، لكنه لا يعلم أنه حلم إبليس في الجنة.

يحلم بإعادته كرئيس فلاحي القصر الجمهوري الجديد، يحلم أن يرتدي البدلة الخاكية ويضع المسدس في حزامه ويوزع أوامره على فصيل فلاحي القصر بكل عنجهية وصلف. بالضبط كما وعده العقيد عبد السلام. يحلم ببقاء الأميرة على قيد الحياة، ثم تأتي وتركع تحت قدميه طالبة منه المغفرة، لكنه حلم المجانين والقرود الممسوخة يا زنكي. يضمر حقداً نحو الأميرة هيام، ويتذكر اليوم الذي قذفته بفردة الحذاء، عندما ماتت زهرة الليلك التي تعتبرها زينة زهور القصر. قضية الثأر تتعاظم في ذات الزنكي وحانت الفرصة للأخذ بثأره، وطموحه بالوصول إلى مكان آمن أصبح سالكاً. هناك في المكان الآمن يستبدل ثيابه البالية والهرولة مع الجماهير الحاشدة التي ستحمل الجثث وتستعرضها في

شوارع بغداد. وعندما تنجح الثورة سيخرج من المظاهرة الصاخبة ويذهب إلى دار الإذاعة لمقابلة العقيد عبد السلام ويتم تكريمه كأحد الثوار. وما زال الحلم قائماً ويتعاظم في رأسه. لم يدر في خلده ما حصل في الأمس من إدانته بالسجن المؤبد. استطاع العقيد عبد السلام كتم الأمر عليه وعلى القره تبي وظلت أوراق الإدانة في درج دائرة القاضي بانتظار التصديق والختم، لكن الأمور لم تصل إلى نهايتها، بل انقلبت رأساً على قدم.

إن واحدة من الصور التي التقطها أحد المصورين الأجانب كانت صورة لرجل أسود نحيف، يقف على ظهر سيارة مكشوفة وهو يضرب جثة إحدى الأميرات بفردة الحذاء. الصورة التي يؤكد خبرها جلال كوداك بحماس منقطع ويؤكد أنها للزنكي، وفي صورة أخرى يبرزها كوداك أيضاً للزنجي واقفاً في باب دار الإذاعة في يوم الرابع عشر، تظهره الصورة كأنه في حوار ذلك ما تدل عليه حركة يده، يلح على حرس باب الإذاعة كثيراً لمقابلة العقيد: «قولوا له عباس الزنكي بس، وهو يعرفني». عندما وصل خبره للعقيد عبد السلام المشغول بقراءة البيانات وتوجيه الجماهير الغاضبة، أمر بطرده فوراً، وإذا لم يستجب، فقد أمر أفراد الحماية بحمله وقذفه في نهر دجلة. «اذهب إلى قاع النهر يا زنكي، ينتظرك القره تبي هناك».

* * *

الباب الحادي عشر

نادي الزواج

1

ياسر عبد اللّه

اشترطت الست سعاد في جلسة المصالحة الأخيرة مع المخرج ورئيس قسم التمثيل عدة شروط قسرية وواجبة للموافقة على العرض، كان أحدها حجب المشهد الوحيد الذي تدرّب عليه كثيراً الطالب المؤدي والمجتهد ياسر عبد اللّه. كان قد أهلك نفسه في الاجتهاد في كواليس المسرح التجريبي. تمرين متواصل كل يوم تقريباً، في تبنّي شخصية جميل القره تبي. بل واصل البحث التاريخي يفتش عن مشاهد الشنق في فيديوات اليوتيوب والبحث عن مواصفاته الجسمانية وطريقة كلامه ورقصه في الملاهي عندما يضع الكأس على رأسه، كيف كان يرتدي سدارته المائلة.

لقد أصيب ياسر بصدمة مهولة حين سماعه بخبر حجب المشهد الوحيد والخاص به من سيرة العرض. فشلت محاولات رئيس القسم لإقناعه بأنه سيحصل على درجة التمثيل كاملة، حتى وإن لم يتم عرضه على الجمهور.

اقترحت الست سعاد رفع هذا المشهد بصورة نهائية ليستقيم العرض شريطة الموافقة النهائية على إجازة العرض، ليتوافق مع خط السلامة الفكرية للبلد والتحول الديمقراطي. حتى مقترح رئيس القسم بتغيير أزياء المعدوم، يخلع معطفه ويتخلى عن المصحف، لكنها أيضاً رفضت المقترح جملة وتفصيلاً. وبعد أخذ وجذب دام لأكثر من ساعتين وافق المخرج نورس الحبيب على شطب مشهد الإعدام من العرض.

ظلّ ياسر كئيباً حزيناً لا يدخل المحاضرات، صامتاً، يدخن بشراهة في كافتريا المعهد. قطع علاقته بصديقه براق، وقد باءت محاولات المصالحة من الأصدقاء معه. ينظر بعين الغضب للمتصابية سعاد بديوي، التي شطبت على حلمه الوحيد للوقوف أمام الجمهور كمؤدٍ لتراجيديا التاريخ، والمنافس الخطير لبراق الكوني الذي استأثر بدور الجزار.

كان له القدرة الكافية لاستعادة اللحظة التاريخية بشكل رشيق. حتى جاءت اللحظة التي انبثقت فكرة جنونية في رأسه، سيقوم بعرض المشهد مقطوعاً من سياق الفرجة. في ساحة المعهد على جمهور الطلبة، سيتم عرض المشهد في يوم ما. حدث هذا قبل موعد عرض الفرجة بأكثر من أسبوع. وراح يستعد مع مجموعة زملاء داعمين له للعمل المتواصل.

كان ترتيب المشهد هو السابع من سيرة فرجة العرض. يتلخص هذا المشهد في تمثيل اللحظات الأخيرة من حياة المعدوم جميل القره تبي الذي حكمت عليه محكمة الشعب بالإعدام شنقاً حتى الموت بعد إدانته بالخيانة العظمى.

ياسر الذي تبنّى تأدية دور القره تبي بطريقة مذهلة، حتى أنه فكر باصطياد كلبٍ سائب ووضع الحبل في رقبته، حتى يلتقط ما يجري على الكلب أثناء الهبوط، لكنه لم يكمل شنقه بعدما شاهد دموع الكلب وتوسلاته به.

راح يتماهى مع كل تفاصيل شخصية المعدوم الحقيقي وما يطرأ عليها من صعوده إلى المنصة، حاول إلغاء الحوار مع الملقِّن ومطالبته بتلاوة الشهادتين، بل راح ينغمس حد العظم في شخصية الأفندي جميل. حتى أنه كان يذاكر مع زميل له الطريقة المثلى لتنفيذ نظرية الاستعادة التاريخية للحظات شنق القره تبي. تطبيقاً لنظرية السيد المنذري، وهو الأكثر حرصاً على تبعيته للمنذري ويعد من تلامذته ومريديه.

اشترى حبلاً غليظاً من الليف الخشن وعمل دائرة بعقدة متحركة تنزل عند الشد، وراح يعمل مع شعبة الديكور لعمل سلَّم الارتقاء وتحديد مكان الوقوف فوق المربع الخشبي المنزلق تحت قدميه بالضبط. ارتدى سدارة سوداء ومعطفاً أسود ومسك المصحف الشريف بيده ممتنعاً عن ارتداء القناع الذي يخفي وجه.

يردد حوارات وحركات جميل القره تبي التي تدرَّب عليها كثيراً، استعاد حوارات المحكمة عندما قال القره تبي. «يحيا الشعب... يحيا الرقص... تحيا رحلو العظيمة».

حدث ذلك في مساء أحد الأيام، عندما وقف في ساحة المعهد، ليؤدي المشهد أمام تجمع من الطلبة احتجاجاً على شطب مشهده من الفرجة. لم تحضر إلى الساحة الست سعاد بديوي، بل قدَّمَت طلباً لمدير المعهد لمنعه بالقوة. لكن المدير رفض طلبها متحججاً بحق الطلبة بممارسة التمارين في الساحة وخارج الوقت الرسمي للمحاضرات.

في اللحظة التاريخية التي طلب القره تبي سيجارة ليدخنها قبيل شد الحبل في رقبته، وقد تم تلبية الطلب له، مع إصراره على عدم ارتداء القناع الأسود في رأسه، طالباً الموت وهو مفتوح العينين. كانت الحوارات التي أدلى بها القره تبي على لسان ياسر هي ذاتها في سيناريو الفرجة، محذراً أهالي الرصافة من وباء الجرذان القادم.

لكن المصيبة الكبرى حدثت عندما حرك إبهام قدمه وفتح المزلاج وهبط بقوة إلى أسفل المنصة الخشبية. استطالت رقبته حتى غدت كرقبة زرافة. انفلت زر الرتاج تحت قدميه وتهاوى دفعة واحدة في فضاء الساحة، يعصره ألم الموت الزؤام، كالبندول مترافقاً مع انسياب الاغنية الحزينة التي ترافق تأرجحه.

جحظت عيناه ككرتين بيضاوين، ولم يتح له الوقت لسماع إعجاب

جمهور الطلبة المتجمهرين حوله بقمة الأداء المتدفق وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فطقطقة عظام العمود الفقري والرقبة، كان صوتها أعلى ضجة من كل كلمات الإعجاب.

عُلّقت على سياج المعهد لافتة نعي جاء فيها: «ينعى معهد الفنون الجميلة، الفقيد ياسر عبد اللّه الذي وافاه الأجل إثر حادث عرضي. إنّا للّه وإنّا إليه راجعون».

وصل الشعور بالذنب إلى أقصاه، فقد بكت الست بحرقة أمام جميع الطلبة، البكاء والصراخ على حياة هذا الشاب الذي فارق الحياة. بكت بطريقة صاخبة كانت أشبه بالعواء. بينما رئيس القسم وبراق الكوني وبقية الزملاء حملوا الولد المعدوم وطافوا به في أرجاء المعهد ثم أصعدوا الجثمان إلى قاعة المسرح التجريبي بجنون واضح ومشهد رهيب.

* * *

2

نادي الزواج

حادثتان مهمتان مرّتَا على حياة الست سعاد بديوي. الأولى هو ما خلفه موت الطالب ياسر عبد اللّه، وشعورها القاسي بكونها سبباً في مقتله. أما الحادثة الثانية في تقبيلها لنورس.

بعد القبلة القاتلة التي سرقتها سعاد بديوي من فم نورس، أدارت بوصلة السلوك نحو التفكير جدياً بكلام أمها، حتى أدركت معنى «غادرك القطار» وفهمت معنى إلحاحها المستمر حتى ملّت منها، ولم ينفع عتبها الدائم على ابنتها الخائبة، والتي دخلت برج العنوسة منذ سنين. تأملت وضعها والتفكير جدياً بأنوثتها المهدورة المبددة، والشيب رسم دروباً بيضاء كالمروج في شعرها كله. كونها امرأة خائبة فعلاً وقد ضيّعت عمرها خلف سراب الوهم والزيف في دهاليز السياسة وخستها والحكومات وطموحاتها الخبيثة.

راحت تختلي مع نفسها ما بعد يوم القبلة، عندما تخلد إلى النوم، تغطي رأسها في الظلام ليحلو لها التفكير في استعادة ما فاتها من حياة طبيعية لما تبقى من العمر. ثم تسأل نفسها «من سيتزوج امرأة تجاوزت حاجز الخمسين سنة»؟ لكنها أيضاً كانت تمنّي نفسها بشبح رجل ما، ربما ستعثر على فارس أحلامها حتى وإن كان خائباً قد فاته قطار العمر مثلها.

في اليوم الثاني قررت قرارها التاريخي والذي يشبه الثورة العارمة على

نفسها، بتغيير نمط معيشتها والاهتمام الجدي بشكلها وحرق الماضي بمراحله، إنها ثورة بيضاء على واقعها الشخصي. ذهبت في بداية المشوار إلى كوافير «ملتقى العرائس» للتجميل وتحدثت كثيراً مع الماكيرة لتقدم لها النصح الواجب في ثورتها الجديدة واستعادة ما فاتها.

قصّت لها في البداية شعرها قصة معاصرة، ثم صبغته بلون كستنائي لتغطي خطوط الشيب، ثم عملت لها «الميش» الذهبي له، وضعت لها المساحيق والكحل وقليلاً من أحمر الشفاه، ثم حفّت حاجبيها ورسمت لهما ظلاً من «التاتو»، لتزيد من مساحتهما، نزعت الجبة الإسلامية وارتدت الجينز الضيق مع قميص طويل يخفي مؤخرتها المترهلة، ثم وضعت الإيشارب بشكل يكشف عن مقدمة شعرها. وفي كل خطوة كانت تسأل نفسها أمام المرآة: «وماذا بعد»؟ ضحكت المرآة من هذه الثورة المتأخرة ومسحت عن وجهها البصقة التي خرت إلى الأرض.

بعد موت الطالب ياسر عبد اللّه بحادثة التمثيل في ساحة المعهد، تعرضت الست سعاد بديوي إلى وضع نفسي متأزم وحالة نكوص كبرى. اللجنة التحقيقية التي عقدتها الوزارة لم تسجل إدانة واضحة للست، لكن أهل الطالب ياسر عبد اللّه قد هددوا أكثر من مرة عمادة المعهد والست سعاد. كما تناقل الطلبة خبراً مفاده، أن الست ذهبت إلى عزاء الطالب وقد بررت مقتله بحادث عرضي، بل أنها أبرزت طلبها في منعه من التمثيل في الساحة.

عادت من جديد لتتصل بعد انقطاع لسنين طويلة بصديقة عمرها «جنان البيرقدار»، لتعيد ترميم العلاقة المقطوعة معها، فقد كانت الأخيرة خير حافظة لأسرارها وكتمها وتقدم لها النصائح الشخصية. جنان هذه زميلة من أيام المراهقة والدراسة الثانوية. تزوَّجت ثم طلَّقها زوجها، وتزوجت مرة أخرى من شاب يصغرها بخمس سنين، أيضاً حدث الطلاق مرة أخرى. ثم زيجة أخرى وبسرعة

فائقة. حتى أصبحت خبيرة في استقطاب الأزواج بعدة طرائق لا يعرفها إلا هي. وبعد عدة اتصالات قالت لها.

لازم أتزوج جنان، فعلاً مثل ما قالت أمي، نسيت نفسي كل هذه السنين.

ضروري جداً سعاد حبيبتي.

لكن كيف؟ هل أمشي وأصيح في الشوارع أريد ظلَّ رجلٍ. يا ناس يا عالم؟ هل أعلن في معهد الفنون مثلاً في محاضرة للطلبة عن حاجتي لزوج لي؟ أخجل من هذه الطرق التقليدية. ماذا أعمل؟

ـ لا طبعاً. هناك أكثر من طريقة بهذا الخصوص. بفضل المواقع والإنترنيت حبيبتي. تستطيعين أن تعثري على رجل الأحلام، وبالحلال طبعاً. هذه طريقة مجربة.

ـ أريد رجلاً على سنة اللّه ورسوله، وليس للدردشة جنان عزيزتي. أنا أتعذب مع الوحدة القاتلة. أريد رجلاً يأكل بنهم ما تبقى من فاكهتي. أما الطالب نورس الذي حدثتك عنه، هرب مني بعد تخرجه، استبدل رقم هاتفه وأدار وجهه عني. كانت علاقته بي علاقة مصلحة فقط. للأسف. معظم الطلبة يضمرون لي الكره، وخاصة معظم الطلبة المتمردين من قسم المسرح، وعلى رأسهم نورس.

ـ تصوري كم من رجل نسي نفسه مثلك عزيزتي. يوجد موقع إليكتروني يدعى «نادي الزواج العراقي للتعارف»، ادخلي عليه بعد أن تعملي لك اسما مستعاراً، الزنبقة السمراء أو نجمة الصباح أو كبرياء امرأة أو غيرها من الأسماء. ستجدين دكاكين كثيرة تنتظرك. لكن كوني حذرة جداً.

ـ حذرة ممَ؟

ـ بعضهم ينصب فخاخاً للنساء ويحاول صيدهن.

عملت بنصيحة صديقتها البيرقدار، اختلت بنفسها لساعات طويلة تبحث كل

يوم عن الرجل المناسب. «نسمة الأمل» هو الاسم الذي اختارته لها وتركت حقل الصورة فارغاً.

في أحد الأيام وجدت أن هذا الرجل المدعو «فارس الليل» هو الأقرب لها رغم اسمه المستعار، الأنسب لها من كل رجل عرض عليها الزواج في النادي الافتراضي. حاولت أن تختبر صدقه وأخلاقه وجدّيته في الزواج، فنجح في الاختبار الأولي. معلوماته تشير إلى أنه يعيش في بغداد ولديه الاستعداد للعيش معها وفي بيتها، وعمره يقارب عمرها أو يزيد قليلاً، لكن عيبه الوحيد أنه ليس لديه عمل في الوقت الحالي. قبلت به كونه الأفضل والأصدق من كل من وجدتهم في سوق نادي الزواج.

في البداية استغربت لكثرة العانسات من أمثالها، لكثرة المطلقات، لكثرة اللواتي تأخرن في الزواج، لكثرة الرجال الذين تذكروا الزواج في خريف العمر. نادي الزواج هذا يقدم خدماته للعانسات والأرامل والمطلقات وبالمجان.

في يوم ما تمّ اللقاء المرتقب، عندما اتفقا على الموعد الأول وجهاً لوجه بمكان آمن يدعى «كافييه البنفسج» في ساحة الواثق. وفي الساعة الرابعة عصراً كان الموعد القدر.

كان عليها منذ الساعة العاشرة صباحاً العمل بجد لترتيب شكلها الجديد عند الكوافيرة، وكأنه يوم زفافها المتأخر، اختارت بدقة الأزياء المناسبة وألوانها وأشياء أخرى تدعم صورتها. أما الزوج المرتقب فقد استعد للّقاء أيضاً ببدلة بنية وقميص شذري بعد أن حلق شعره وغطّى شيبه بالصبغ الأسود الفحمي. ثم راح يقلب جريدة جلبها معه لتزجية الوقت.

وصلت إلى الكافييه في الموعد، فوجدت «فارس الليل» رجلاً مقبولاً رغم ملامحه القاسية ورأسه الضخم وأخاديد التجاعيد الحادة، تدل على كبره

وشيخوخته. لكنه يبدو أنه شخصية قوية. هذا انطباعها المبكر وهي تحاول أن تلتهم مظهره بنظرة خاطفة سريعة قبل الجلوس والتعارف الأولي المرتبك. قالت مع نفسها: «هذا الرجل أعتقد شاهدته كثيراً، اين لا أعرف؟ ربما في الحلم».

وحسب الإشارة المتفق عليها كان الفنجان المقلوب هو دليلها إليه في الكافييه. الست سعاد بعد خيبتها غدت امرأة أخرى، بطلة أنثوية مقبولة، تعاملت مع مادة الدكسن والسليلوزيات لترسم لها معلِّمة التجميل امرأة أخرى. انتفخت خدودها وتضخمت مؤخرتها بظرف شهر تقريباً. عملت من حجابها الكحلي عمّة مرتبة بشكل جميل، ثم وضعت حقيبة اليد الصغيرة تحت إبطها. كانت أمها تهز يدها غير مقتنعة ببنتها المخبولة.

انتظرت أن يزيح لها فارس الإنترنيت كرسيها لتجلس رغبة في إبراز التقاليد الأرستقراطية على سلوكها، لكنه لم يفعل، فقد كان مرتبكاً هو الآخر أيضاً.

ـ أهلاً، أنا فارس الليل في النادي، وهنا أحمد الربيعي.

ـ أهلا أستاذ أحمد. أنا سعاد بديوي ماجستير أزياء إسلامية وأستاذة في معهد الفنون الجميلة.

ـ أهلاً وسهلاً بست الحسن. بالحقيقة أنتِ أجمل مما تصورتك أثناء الدردشة.

ـ مرسييه.

ـ سأكون واضحاً معك منذ البداية ست سعاد. أنا جاهز للزواج. علينا أن نكون صادقين منذ البداية. وليس لنا المجال الكافي من الحب والسهر في الليل بالحديث في الهاتف. أنا رجل عملي. من المؤكد أن إيماني مطلق بأن الحب يأتي مع الزواج.

راح الرجل يتحدث عن نفسه كثيراً ذاكراً محطات كثيرة منها. وهي ترتشف

النسكافييه بالحليب بطريقة أنثوية جديدة عليها. وقد طبعت بقايا أحمر الشفاه على حافة الفنجان بشكل متعمّد.

ـ لكن القضية التي لم أخبرك عنها. أني مطارد هنا في بغداد ومطلوب لجهات لا أعرفها. بصراحة كنت بعثياً ومن الكوادر المتقدمة، عضو شعبة في الحزب، كنت موظفاً في دائرة كمرك المنطقة الوسطى، متفرغاً للعمل الحزبي قبل عام 2003، ثم سجنت لسنتين، وبعد السجن هربت خارج البلد لسنين طويلة. عدت قبل فترة للبلد، أحاول ترميم حياتي المهدورة من المتبقي من عمري. لكن وللأسف غدر بي الجميع، والأسباب يطول شرحها. لم أتزوج طوال حياتي، لقد نسيت نفسي عندما كنت مشغولاً في العمل الحزبي والكفاح والنضال وما شابه ذلك من الترهات الكثيرة.

ـ هههه، أنت تشبه قصة حياتي أستاذ أحمد. أنا كذلك نسيت نفسي.

كانت تهمس بكلامها لتزيد من أنوثتها.

ـ بالنسبة لي، نسيت أن أتزوج، غدر الزمن بي. أصبحت وحيداً. أعيش مؤقتاً في بيت ابن أختي. هذا ملخص بسيط لحياتي عزيزتي ست سعاد.

ـ أووووووه صدمة كبيرة.

ـ لماذا خير إن شاء اللّه؟

ـ لا بالعكس، أنا أعرف الكثير عن البعثية، ما أعرف بصراحة... ماذا أقول؟

ـ هل كنت...؟

ـ نعم، لكني تبت. الآن انا منضوية تحت جناح حزب إسلامي، يقدم لي الحماية والمنصب والوجاهة الاجتماعية. تخلصت من ثقل الماضي ومتاعبه. ماذا أقول بعد؟ أنا خجلانة بالحقيقة.

ـ لا تقولي شيئاً. مازلنا على الضفاف.

ـ أنا خجلانة منك أستاذ. هذه المرة الوحيدة التي اختلي برجل وفي مكان عام.

ـ هل أنت موافقة ست سعاد

ـ ...

ـ أفهم أن السكوت علامة من علامات الرضا.

ـ دعني أفكر... وسأرد عليك حتماً. الآن اسمح لي بالمغادرة.

* * *

3

المشنوق

في يوم الثالث عشر من تموز 1958 انعقدت جلسة القضائية الأولى والأخيرة للنظر في قضية المتهمين القره تبي وعباس الزنكي. كانت بحق جلسة قضائية محتدمة، طالت لمدة ثلاث ساعات، صدر الحكم فيها غيابياً على جميل قره تبي بـ«الإعدام شنقاً» ولم يذكر قرار المحكمة الملكية المبجلة جملة «حتى الموت». استغل محامي الدفاع تلك الثغرة من قرار الحكم فطعن في تمييزه هذا القرار، وهو المكلّف من قبل المحكمة في الطعن والاستئناف لتجزئة قرار المحكمة.

قدم الأفندي صالح عطوان شكوى ضد العابثين بأمن المملكة وهما كل من: السيد الأفندي جميل القره تبي رئيس الملاحظين وفني أقدم في دائرة البريد والبرق، والحدائقي المعتمد في قصر الرحاب المعروف بـ«عباس الزنكي» اللذين خانا الأمانة والعبث المتعمّد بأمن البلاد ومحاولتهم في المشاركة لقلب نظام الحكم.

كشف في ورقة الدعوة أفندي صالح عطوان عن خيانته المملكة في سرقة البرقيات السرية وإيصالها لأعداء الشعب، بحضوره شخصياً للإدلاء بإفادته مع وثائق تدين المتهمين معاً. كان صوت الأفندي عالياً وهو يصرخ في قاعة المحكمة لناكري النعمة من الأشخاص الذين لا يهمهم سوى قلب نظام الحكم على ملائكة الرحمة في قيادة المملكة. ثم بكى الرجل وهو يخرج على نص الدعوة المقدمة، منذراً بأيام مريرة تنتظر الجميع إذا ما تركت الأمور للعابثين بأمن البلاد.

كما استمعت المحكمة إلى المدعي العام في توصيته بالحبس المشدد ضد الزنكي الذي خان الزاد والملح، لإنزال أقصى العقوبات ضد المتهمين قره تبي عقير الخمرة وزير النساء والراقصات ولص الشبابيك في آخر الليل.

صدر الحكم المخفف على المدان عباس الزنكي بالسجن المؤبد ولم يذكر القرار فقرة «مع الأشغال الشاقة» لعمله السري مع زمرة خائنة تحاول تقويض سلطة المملكة، مما تقرر طرده من الخدمة فوراً وحبسه، والحكم بالإعدام بالشنق على قره تبي.

حدث هذا في اليوم الثالث عشر من تموز، أي قبل المجزرة بيوم واحد وقبل اكتساب قرارات المحكمة الملكية العليا الصفة الشرعية. تلك المفارقة العجيبة التي حدثت في حياة القره تبي. بالرغم من أن الحكم كان غيابياً على قره تبي والزنكي، عندما استطاع العقيد عبد السلام إخفاء القره تبي ومعه الزنكي في بيته قبل استدعاء المحكمة بيوم واحد.

تحصل المفارقة المريرة، عندما يدان قره تبي مرتين بالشنق من حكومتين الأولى ملكية والثانية جمهورية اتفقتا على جريمته من زاويتي نظر مختلفتين في واحدة من أغرب المحاكم في العالم. ضحك قره تبي كثيراً على إدانته، وبكى الزنكي على قرار إدانته بالحبس الشديد. لكن قرار المحكمة ظلَّ حبيس أدراج المكاتب، بل تبخَّر في اليوم التالي عندما تعرَّضت بناية المحكمة في باب المعظم للحرق وتلفت كل الأوراق والقرارات وتحولت إلى دخان رمادي يطوف في سماء بغداد.

* * *

الباب الثاني عشر

الفصل السابع من روايته

1

الرسالة الأولى

المظروف الأخير في الليلة الأخيرة:

استمرت سهرة العائلية المالكة مع هبوب نسمات باردة طعنت خاصرة الحر التموزي، بعد مرورها على نهر دجلة الخدران في جريانه، وفيما هم مندمجون في أجواء القهقهة والأنس واللهو، زمجر منبّه سيارة «فولكسواكن» قدمت من جهة طريق الشام المحاذي للقصر، سمح لها الحرس الملكي بالدخول لتتوقف بالقرب من مُدرَّجات المدخل الرئيس للقصر، ترجّل منها ضابط بلباس رسمي يحمل بيده مظروفاً. يبدو أنه تحدَّث بكلام هامس مع الضابط المرافق الأقدم للأمير عبد الإله، لكنه أصرّ على تسليم الرسالة بيد الملك شخصياً.

قام الملك الصغير بعد أن همس بأذنه المرافق لاستلام المظروف السري من الضابط، استلمه وشكره وفضّه مباشرة ليخرج منه بطاقة بيضاء كُتب عليها بحروف إنكليزية (احذر هذه الليلة)، رغم أن هذه الرسائل التحذيرية تكرَّرت كثيراً في الأشهر الأخيرة.

تأمل الملك الصغير البطاقة لدقيقة أو أكثر بأعصاب حديدية، كان مشهوداً له التروِّي والحكمة رغم حداثة سنه وخبرته البسيطة في الحياة، لكن رباطة جأشه وحلمه وحكمته في الإدارة كانت السمات الغالبة في تلك الأمور.

تلاشت أصوات العائلة بانتظار عودة الملك، وعندما استدعى خاله عبدالإله سلَّمَه ورقة التحذير هذه بعيداً عن أعين العائلة، وعلى الفور شرع الأمير الخال بقراءة كلمات التحذير في الرسالة، لكن وجهه اصفرّ كثيراً وارتجفت يده وراح يمسح شعره بعصبية، ثم استأذن الملك والعائلة وغادر مسرعاً:

ـ آسف يا جماعة، لا أستطيع البقاء معكم، سوف أنشغل بأمر يخص المملكة.

ارتدى الزي المدني على عجل وكرع كأساً من «الدنبل الأسكتلندي المعتّق»، نزل الأمير مسرعاً وصعد السيارة الفولكسفاكن» مع الضابط المرسل ليغادر القصر باتجاه طريق المطار. سادت لحظة صمت رهيبة ولا أحد يستطيع أن يسأل الملك عمَّا يدور في الخفاء. لكنه كسر حدة هذا الجمود:

ـ ياللّه جماعة هيا بنا نشاهد فيلما جديداً هذه الليلة في سينما قصر الزهور.

الشريف حسين والأميرة بديعة والملك وبعض الخدم والضيوف ذهبوا جميعاً مشياً على الأقدام حيث قصر الزهور القريب بمسافة تقلّ عن كيلو متر من قصر الرِّحاب، هناك حيث سينما القصر، ليشاهدوا على شاشة بيضاء أعدّت لمشاهدة فيلم «لعبة البيجامة The Pajama Gam» تمثيل «دوريس داي وجون رايت» وإخراج مشترك بين «ستانلي دورين جورج آبوت» بإنتاج حديث لعام 1957، وبترجمة من شركة أنيس وعبيد.

سارت الأمور بشكل طبيعي لتلك السهرة المعتادة، ثم عاد الجميع يتقدمهم الملك بعد مشاهدة الفيلم بحوالي الساعة العاشرة ليلاً.

أثناء طريق العودة همس الخادم الشخصي بأذن الملك للتوجه إلى العشاء في الحديقة الخلفية حيث العشاء في الهواء الطلق، حضر الأمير عبد الإله إلى مائدة العشاء بعد عودته، لكنه لم يفتح فمه طيلة فترة العشاء، وانشغل الجميع بالحديث عن تفاصيل أحداث الفيلم ومواقف بطل الفيلم، ظل الأمير صامتاً قلقاً لم ينل من الزاد إلا المجاملة.

بعد فترة العشاء نهضت الأميرة بديعة وزوجها إلى جناح إقامتهم للنوم، لكنها انحنت على الملك وقبّلته بحرارة وهي تشمُّ عنقه بشغف حيث بلّلت دموعها عنقه، قالت لها ابنة السربادي:

ـ شنو هاي الدموع، أنت مسافرة معه غداً إلى إنكلترا؟ ما أفهم اللي دي يصير هذا.

ـ صحيح خانم بس بكرا الجو حار وأجواء توديع الملك رسمية جداً، وما أقدر عيني أقبّله.

* * *

2

الرسالة المشفرة

ثمة رسائل وصلت في الأشهر الأخيرة لقادة المملكة، كانت بمثابة شفرات ورموز، لم تعر لها الحكومة أو قادة المملكة أي اهتمام لتفكيكها أو معالجتها، ومن ضمن هذه الرسائل تفاصيل أخرى من الرسالة الأخيرة. فالبراءة والعفَّة لا تنفع في إدارة حكم المملكة وسط ليل المؤامرات.

انطلقت سيارة (الفولكسفاكن) مخلّفة سحابة من دخان أبيض يرسم لوحة رمزية في فضاء كراج القصر، وهي تحمل الأمير عبد الإله، في ذلك اللَّيل البهيم نحو جهة ما، لكن السؤال يبقى منتصباً كرمح فوق الرؤوس، أين ذهب الأمير؟ لماذا فقد كلَّ ذلك البريق حتى حامت غمامة القلق على وجهه؟

تبيَّن أن وجهة الأمير إلى داره، الذي كان قيد الإنشاء قريباً من نهر دجلة في جانب الكرخ، حيث التقى بمدير الأمن صالح عطوان.

كانت الرسالة تحذيرية بجملة مقتضبة لكنها مهدَّدة ومقلقة. مثلما حذَّر العرَّاف في مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير: «احذر يوم الثالث عشر». هكذا صرخ العراف في السوق وسمعه القيصر من دون أن يستفهم عن هذا التحذير. وكانت هذه الرسالة مكتوبة باللغة التحذيرية ذاتها باختلاف التوقيت: «احذر هذه الليلة».

رغم أن كل من عاش في بغداد تلك الفترة يلاحظ بين فترة وأخرى تلك

الأجواء المشوبة بالخوف والتذمُّر والقلق. لغط الزبائن في مقهى سلمان بغدادي وهو معروف بـ«مقهى الإشاعات» في الحيدر خانة، حيث يجلس على تخوتها شرائح مختلفة من البغداديين للحديث عن الانقلاب القادم على أيدي العسكر، لكن البعض شكك بجدية التغيير لكثرة المواعيد والتوقيتات التي تكررت في المقهى أو في شوارع بغداد. ومن جانبه كذّب الباشا نوري سعيد تلك الأخبار معتقداً أنه يمسك بقبضة حديدية على وحدات الجيش ووفاء قادتها، وفي أحد الأيام من آذار الماضي استدعى لمكتبه الزعيم عبد الكريم قاسم وقال له:

ـ حضرة كرومي تريد اتسوّي انقلاب علينه، مو؟

ـ كذب.

ـ هكذا يتكلمون في مقهى سلمان بغدادي حضرة كرومي.

ـ فما كان من الزعيم إلا أن عمل بشدة على تبديد شكوك الباشا مرة بالحلفان والقسم بحياة الملك والإخلاص له وبشرف العسكرية، ومرة أخرى، ظل يهتف بحياة الملك والباشا.

ـ أريد قلبك وراسك معانا كرومي. نعرف كلشي عن تحركاتك، كلها مرصودة بشكل دقيق آغاتي. سلملي على سلومي العقيد صاحبك عندما تلتقون.

* * *

3

صالح عطوان

كالناظور تدخل الكاميرا الفضائية لشخصية أخرى غابت عن المشهد المحتدم بعد يوم المجزرة، الشخصية التي اكتفت بتحليل رسائل التحذير المبهمة، والتي لا يعرف مرسلها. لكنه يعطي احتمالات مرسليها وقد أفلح في رصد المرسلين.

هل يمكن أن يكون مدير الأمن طيب القلب؟؟؟ مستحيل وإن حدث فمحض مصادفة ليس إلا، بل على المملكة السلام. وهذا ما حدث بالفعل.

صالح عطوان الأفندي بحد ذاته يعتبر هو رسالة تحذير دائمة للمملكة والقصر، شخصية قلقة يؤول ذرق العصفور على بدلته السوداء ويعتبره مؤامرة ضد المملكة.

يأتي هذا لكثرة مخاوفه من العسكر وما يخططون له في الخفاء. كان عطوان يأتي إلى القصر كلما استجدت لديه معلومات استخبارية عن محتوى الرسائل المترادفة، يعمل بدقة على تفكيك شفرتها، ثم يقدِّمها جاهزة على مائدة الملك، ومعها التقرير الذي يذكر به التوصيات، لكنه كان يجد صدوداً واضحاً من الأمير والملك والباشا، حيث يصفونه غالباً بأنه يبالغ في خوفه من العسكر.

كان الرجل الأفندي الأنيق عطوان يدافع عن نفسه ومكانته وإخلاصه لبلاده حتى قبل ساعة مماته، وعندما حضر عزرائيل إلى غرفته وبدأ بمحاصرته، ظلّ

يحوم كالبعوضة الضخمة. ثم جلس عزرائيل بكل هدوء يدخِّن بسيجارة غليظة، يستمع كتلميذ شاطر لصالح عطوان ويعطيه الفرصة الأخيرة، ليزيح من قلبه هذا الهمَّ الثقيل. مما جعل صالح يكشف للمرة الأولى المستور من الرسائل التحذيرية السرية دفعة واحدة والتي وصلت إلى البلاط قبل المجزرة.

جاءت زوجة صالح عطوان المرأة البغدادية الطويلة، بكوب شاي وخبز وقيمر وعسل، وقدَّمته بصينية الفضة إلى زائر الفجر السيد عزرائيل ليفطر، ليس كواجب الضيافة الثقيلة بل قدَّمته كرشوة له، كان يرتدي كالعادة بدلة عمل زرقاء كالتي يرتديها عمَّال النظافة، توسلت به الزوجة أن يمهله ساعة واحدة، ويفسح المجال لزوجها بكشف الأسرار. فوافق السيد عزرائيل على مضض.

على فراش الموت كان يتحدث لزوجته عما حصل بالضبط في اليوم (الوطني) للمجزرة، بعدما بُحَّ صوته من تدفُّق سيل التحذيرات والرسائل التي كانت تأتي تباعاً ولا من أحد يسمع صياحه. كان يعمل بجد مع فريقه المهني من تحليل محتوى جميع الرسائل. تكلَّم في البدء عن تاريخ سيل الرسائل منذ الرسالة الشعرية التي وصلت في البداية، كانت عبارة عن بيتين ركيكين من الشعر يحملان تحذيراً للملك من مصيرٍ رسَمَهُ له القدر في بداية شهر شباط مطلع عام 1957:

أيـــهـــا الـــخـــائـــف الـــحـــذر بـــمـــاذا ســيـــنـــفـــعـــك الـــخـــدر

يـــــوم يـــأتـــيـــك الـــقـــدر لا يـــنـــجـــو مـــن الـــمـــقـــدّر الـــحـــذر

فعلَّق عليها الملك بخط يده بالآية الكريمة:

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ ثمَّ أمر بخط هذه الآية على قطعة من الرخام بطول ثلاثة أمتار لتوضع على واجهة قصره ـ تحت الإنشاء ـ والذي لم يكتمل بناؤه بعد.

ثم توالت الرسائل وظل يتردد صالح عطوان مع كل رسالة تأتي أو يصطادها جميل قره تبي بطريقة شيطانية. أيضاً تلقى الأمير عبد الإله عدة تقارير رسمية على شكل رسائل بخط اليد وبرقيات استلمها جميل قره تبي من الحكومتين الأردنية والإيرانية تحذرانه من وجود تحركات مريبة ضد حكومة الملك فيصل الثاني من قوة منظمة في الجيش العراقي، تعمل في السر منذ فترة ليست قليلة. لكنه في كل مرة يرد عليها الملك دائماً بمقولته المعهودة: «نحن أهل البيت مكتوب لنا الشهادة ولا نموت إلاّ قتلاً».

راح صالح يدلي باعترافاته لزوجته الجالسة على حافة السرير. أسرار الرسائل وما خُفي منها، كانت من جانبها تراقب ارتفاع درجة حرارة جسده، فتضع له الكمادات الباردة لتخف السخونة المتصاعدة منه كلما استمر في بوح الأسرار التي كتمها في داخله. وهو ما زال بين الحياة والموت مستمراً يكشف عن رسائل التحذير والموت وقد أغوت عزرائيل بعد أن أنهى فطوره لسماع زوجها:

ـ شوفي عزيزتي، سأكشف لك ما حصل واللّه شاهد على كل كلمة أقولها لك الآن، وربما سأكون بين يدي اللّه بعد ساعة من الآن.

ـ تفضل بس لا تجهد نفسك أفندي، أنت مريض والسخونة عالية في جسمك ولا تتحمل الشد العصبي. اللّه يرحم الملك وعائلته.

ـ كل مجموعة من الإشارات التي وصلتني تؤكد نيّة الضباط الأحرار المسبقة في المضي بمخططهم الإنقلابي، جميل أفندي قره تبي كان يأتي مسرعاً إلى مكتبي ويسلّمني إياها في الحال. لكن المشكلة تقع على الأمير الذي زهد بالحكم بكل صوره، وما فعله يوم المجزرة من عدم الرد على المهاجمين، فلم يكن بِنيَّته أو بِنيّة أفراد أسرته المقاومة في ذلك اليوم. ولم تنفع كل توسُّلاتي للأمير باتخاذ التدابير اللازمة.

كان السيد عزرائيل ينظر في ساعته، يبدو أن الوقت بدأ ينصرم. مما أشار بيده لصالح بأن يختصر من حكايته، فعزرائيل كما يبدو كان مرتبطاً بمواعيد أخرى.

ـ كذلك يا عزيزتي، هناك أمر ملفت للنظر في عدم معاقبة القاتل رقم واحد، كان الأجدر بمحاكمته. ففي عام 1947 وفي منطقة الحيدر خانة أمام بناية وقف الطبقجلي تحديداً، وفي مقهى «خليل الخشالي» الشخصية البغدادية المعروفة، لابد وأنك سمعت به، وقعت حادثة اعتداء على موكب الوصي أثناء مرور مظاهرة طلابية عرضية. كان الأمير جالساً بعربة المراسم الملوكية وبكامل لباسه الرسمي الأبيض ونياشينه. العربة تسير تجرُّها خيول عربية أصيلة، بينما كوكبة الحرس الملكي خلفه على صهوات خيولهم يلوِّحون للمتظاهرين بفسح المجال ليمرّ الموكب الملكي لافتتاح بناية مجلس الأمة الجديدة.

تقدَّم أحد الطلبة المشاغبين ليَرمي نفسه على الأمير عبد الإله محاولاً قتله خنقاً، غير أن ضُبَّاط ومراتب الحرس حالوا بينه وبين الأمير، ثم استطاع الهرب عبر دربونة الخشالات ليختفي في بيوتها، حتى ابتعد الموكب وتفرَّقت التظاهرة، لكن هذا المهاجم أقسم في المقهى وبحضور كبير من رواد المقهى بأنه لو كان يحمل سلاحاً لذبح عبد الإله، سيكررها أينما تسنح له الفرصة مستقبلاً.

هذا الشخص أصبح ضابطاً وقدمت أنا فيه شخصياً تقريراً مفصَّلاً للأمير عن محاكمته، لكن الغريب أنه أصدر بحقه عفواً ملكياً، كان هذا الرجل هو الريس ذاته حمدان العباسي تعرفينه جيداً.

ففي يوم الجمعة الحادي عشر من تموز 1958 عُقِد اجتماع بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف وعبد اللطيف الدراجي وحضره أيضاً رشيد مطلك وتقرر فيه نسف المثلث، أي قتل ثلاثي الحكم، الملك وعبد الإله والباشا نوري سعيد لضمان نجاح الثورة، وحتى لا تتكرر مأساة عام 1941 عندما تم إعدام ضباط

الجيش الذين قاموا بـ«حركة مايس». هنالك من يقول يا عزيزتي بأن مصير الملك فيصل ظلّ مرهوناً بإعادة قتل الخوارج للأمام علي ومعاوية وعمر بن العاص في ساعة واحدة.

استعادة السيناريو القديم ذاته. أقسمت الخلية المصغرة القَسَمَ السري بالمصحف الشريف بقتل الثلاثة، نوري سعيد والملك وعبد الإله، بذات الطريقة التاريخية، بمعنى أن التنفيذ في الساعة ذاتها.

كذلك كلف الزعيم عبد الكريم قاسم شخصاً يدعى حسين جميل بالاتصال بعبد الناصر وإبلاغه بأن الثورة المقبلة في العراق ستتم بتصفية مثلث الحكم. الثلاثة بصفقة موت وسلة واحدة. حتى العقيد عبد السلام عارف أيضاً وافق وخطط من جانبه لقتل ثلاثي المملكة لكنه أعلن تنصله من هذا المخطط بعد نجاح الثورة. حيث ذكرت الوثائق في هذا الصدد الشعار المرفوع « نقطع راس ونموّت خبر»، ومما يؤكد ذلك قصة الحوار الذي جرى بين عبد السلام وزوجته عند عودته الى داره في اليوم الرابع للانقلاب حيث استقبلته قائلة «لماذا قتلتم الملك؟ أما تخافون اللّه؟» فأجابها عبد السلام «إذا لم تقطع الأفعى من رأسها فلن تموت».

ناجي طالب عضو حركة الضباط الأحرار علّق على مقتل العائلة المالكة بالقول: «حسناً فعلوا بأن قتلهم كان محموداً، بدل أن يعودوا ثانية كما في 1941».

هذه دلائل تشير بأن نيّة القتل مبيّتة لكامل العائلة المالكة، وقد كان مخططاً لها، أما قرار قتلهم سيوفر لهم النجاح واستمرار ثورتهم.

إن الأوامر صدرت من قبل قيادة الحركة لبعض الضباط المندفعين ـ ولم يكن من ضمنهم العباسي جزار العائلة المالكة ـ بإبادتها عن بكرة أبيها وعدم السماح بخروج أي فرد منها حياً يرزق. وبالتالي فمحاولة إظهارهم كحمامات سلام وطيور

جنة وما يُشاع عن عدم نيتهم بقتل العائلة المالكة كلام عارٍ عن الصحة. الحدث العابر يحدث غالباً في الثورات العظمى، وقد كان غير مُدبَّر وغير مقصود. هذا كلام عارٍ عن الصحة وباطل أُلبس ثوب الحق المهلهل.

أيضاً في الشتاء الماضي وقع حادث للملك لم تُدرس تفاصيله بشكل جيد، ليتخذ منه عبرة لضبط أمن أرض المملكة. ففي أحد الأيام الباردة والممطرة ذهب الملك الصغير ومعه الأمير إلى معسكر الحبانية لحضور مناورات عسكرية كان يقيمها الجيش بين فترة وأخرى في المكان ذاته. حدث ذلك في كانون الأول، وبرفقتهما مجموعة من رجالات القيادات العسكرية الكبرى الموالية للملك وبمعيتهم رجال آخرين من السلك الدبلوماسي. فيما كانت المدافع تطلق قنابلها بعيداً عن مكان حضور الساسة ومنصة تجمعهم، وإذا بواحدة من القنابل تقع على بعد عدة أمتار خلف منصة المشاهدة، لكنها لم تصب أحداً بأذى. هل كان هذا الحادث نتيجة خطأ عابر أم فعل مدبر ومقصود؟

من المؤكد وحسب الدلائل المتوفرة عندي أنّ الحادث كان مدبراً بفعل فاعل، لكن الباشا نوري سعيد رئيس الوزراء والملك لم يهتما بالقضية، حيث ساد الاعتقاد أنه سوء تقدير أو تقصير. حتى نتائج التحقيق التي عمل عليها محمد رفيق عارف رئيس أركان الجيش، وهو بالأساس من الموالين لحركة الضباط الأحرار، أكد في تقريره أن القنبلة وبسبب عطب آلي في أنبوب القذف قصّرت في مداها لذلك عوقب رئيس العرفاء المسؤول عن المدفع وتمت تسوية القضية وأغلق التحقيق من دون احتياطات مستقبلية، أو حتى التشكيك في نوايا الضباط الأحرار. كل هذه الإشارات رفعتها للملك شخصياً بتقرير مفصل وسري ونسخة منه للباشا وفي موعده، لأبرِّئ ذمتي على الأقل مما حدث. وما يغضبني قبل الموت يا عزيزتي ما فعله العباسي من مجزرة من دون أن يكلف شخصياً بما فعل.

كذلك أيضاً حصل في يوم من أيام شهر نيسان الفائت؛ حضرت كوني مدير

الأمن العام إلى القصر لمقابلة الأمير عبد الإله، بشأن رسالة كنت أحملها بيدي ومفادها أن تقرير الدائرة الأمنية العليا بشأن تهديدات جديدة هذه المرة، وفي مثل كل مرة اعتاد الأمير أن ينقل هذه الرسائل والتحذيرات إلى الفريق عارف، لكن الأخير يقوم بتكذيبها ويعتبرها سخيفة ومملة. يكذبها ويتّهمني بالتضليل والتجسس على الجيش.

لكني لم أنقطع مع كل الإهمال واللامبالاة التي أبداها الأمير تجاه سيل طلبات المقابلات والاجتماعات مع الأمير.

عدت من جديد في الشهر الخامس من السنة الأخيرة من حياة المملكة والملك إلى البلاط، لكن هذه المرة أحمل بيدي وثيقة ومعلومات مؤكدة، عن مؤامرة تحاك في الظلام أبطالها الضباط الأحرار أيضاً، الوثيقة عبارة عن ورقة مستلّة من اجتماع قادة الحركة مكتوبة بقلم الحبر تتحدث عن حسمهم الأمر ليبقى فقط التوقيت المناسب.هذه المرة ذهبت قبلها إلى وزير الداخلية سعيد القزاز وسلمته الوثيقة وأسماء الموقعين طالباً منه تبني الأمر مع البلاط. حمل الأخير الوثيقة مرفقة بتقرير منه حول جدية المحاولة، لكنه تفاجأ بغضب الأمير وهياجه ثم قال للقزاز: «هذه التقارير كلها باطلة، وخلفها الأفندي صالح عطوان، وعليه منذ الآن فصاعداً أن يتجنب التدخل في الجيش والداخلية وإلاّ...». صمت الأمير وراح يبحث عن علبة السجائر من مجرات مكتبه، ثم نهض القزاز مؤدياً التحية وينسحب أمام فورة الغضب غير الطبيعية للأمير.

ـ صالح عطوان يا عزيزي أنت متهم بالتقصير أمام الناس، في كل محفل أحضره يقولون إن زوجك كان سبباً في تخاذله وغفلته عما يفعله الضباط الأحرار وسقوط المملكة بيد هؤلاء الحفنة من العسكر المتعطشين للدم.

ـ متهم نعم، لكني ويشهد اللّه وحق الموت الذي يحوم عليّ الآن، عملت

بكل إخلاص لإنقاذ المملكة، لكن الجميع غير مبالٍ بما سيحدث. ففي اليوم الثاني من حزيران الماضي وجد الملك فيصل الصغير على مكتبه رسالة مجهولة المصدر، تضمنت الرسالة أسماء الضباط الذين سيقومون بالانقلاب. الرسالة كانت مكتوبة بالقلم الباركر وبالحبر الأزرق وبخط أنيق، لذلك طار جنون الملك وتشكلت لجنة تحقيقية في البلاط يديرها خاله عبد الإله، الذي اجتمع مع رئيس الوزراء نوري سعيد والفريق عارف مستعرضين أسماء الضباط المتهمين، لكنهم وجدوا معظمهم من الموالين للمملكة. الزعيم عبد الكريم هو ربيب نوري سعيد والزعيم ناجي طالب مقرب من البلاط والعقيد عبد السلام عارف صديق مقرب من الفريق رفيق عارف أما العقيد رفعت الحاج سري فهو دائماً في كنف وحماية بيت المرحوم جميل المدفعي.

ـ من أين جاءت هذه الرسالة؟

ـ هل تعرفين من كتبها ومن وضعها على مكتب الملك؟

ـ أنا من كتبتها، كوسيلة لأخذ الحيطة والحذر، وضعتها بيدي على المكتب في زيارتي ذات مساء لمكتبه من دون أن يعلم أحد.

ـ كل هذا يحدث والملك وعبد الإله لا يفعلان شيئاً؟

ـ أبداً ولا شيء تماماً. وصلت رسالة تحذيرية أخيرة أيضاً. فقد كانت تأكيداً على ذلك النهج الذي اختطّه الضباط الأحرار. هذه الرسالة تعد الإنذار الأخير للعرش والمملكة. جاءت في مطلع تموز من ملك الأردن، طلب جلالة الملك حسين موافقة الحكومة العراقية لإرسال قوة عراقية ترابط على الحدود تحت حجة حماية الاتحاد الجديد المعقود بين البلدين، لكن الحكومة بدلاً من الموافقة أرسلت الفريق رفيق عارف إلى عمان لمناقشة الأمر برمته والتريث في إرسال القوة.

عاد الفريق عارف يوم الحادي عشر من تموز ليحضر وداع الملك في يوم

الرابع عشر من تموز، لكنه حمل مقترحاً بإرسال اللواء التاسع عشر بقيادة عبد الكريم إلى مشارف عمان. اعترض الملك حسين على إرسال عبد الكريم، وحمّل الملك رسالة خطية فيها تفاصيل المؤامرة يقودها عبد الكريم وعبد السلام.

كل هذه الرسائل والإيحاءات لم تحرك ساكناً سوى بعض اللجان التحقيقية التي لم تنته إلى نتائج فعلية في القبض على رؤوس حركة الضباط، والسبب يعود للباشا نوري سعيد في تصوراتها الخيالية لأنه يتصور نفسه يحكم البلاد بقبضة حديدية وعلى قادة الجيش وموالاتهم له، حتى تسرّب الخدر إلى القيادات العسكرية التي تعتقد أن كل حركة ستقمع كما حصل من قبل. صدقيني يا عزيزتي أني كنت مخلصاً للملك. قبل يوم المجزرة، اكتشفت أمراً خطيراً، لقد استطاع العقيد عبد السلام استمالة الحدائقي ويدعى عباس الزنكي للعمل في حديقة بيته في حي العميان في الأعظمية لأحياء حديقة البيت. ثم استطاع العقيد أن يوظّف الزنكي لمعرفة خبايا ممرات القصر وأمور أخرى منه بطريقة ذئبية. رفعت تقريراً محكماً بالوقائع عن هذا الزنكي إلى الملك شخصياً وقد تجاوزت الأمير، لكن الأمور بقيت على حالها في القصر. باللّه عليك أين القصور في عملي؟ واللّه على ما قلته شهيد. نهض السيد عزرائيل وتمطّى قليلاً وقال: «يا اللّه أريد أشوف شغلي. انتهت المهمة. وداعاً عزيزتي». عضّ صالح لسانه، ثم غادر الحياة غاضباً مما فعله العسكر في البلاد الآمنة.

* * *

الباب الثالث عشـر

الفصل الثامن من الرواية

1

الحياة في الطابق العلوي

من الجانب العملي لسير الوقائع في صباح اليوم الرابع عشر، فقد تم احتلال جسر الخر والسيطرة عليه في الظلام قبيل حلول الفجر. حيث انتشر الجند فوق جانبيه، الأوامر العسكرية لقادة الحركة العسكرية قد صدرت في الساعة الثالثة من صباح هذا اليوم بالتقدم على قصر الرحاب وإلقاء القبض على الملك وعبد الإله والباشا نوري سعيد، ثم الإتيان بهم مخفورين إلى مقر العقيد عبد السلام في دار الإذاعة.

أطلق العقيد سراح جميل قره تبي وعباس الزنكي في أول الليل، وأوصاهما بأن يذهبا لمزاولة أعمالهما بشكل طبيعي. الزنكي إلى القصر وقره تبي إلى غرفة البرقيات، لكنه ذهب إلى المرقص. وصل جميل إلى بيته، استحم ثم ارتدى بدلة جديدة مهداة من العقيد وتوجَّه إلى المرقص. لكنه أفرط في كرع الخمرة حتى دخل مرحلة الثمالة. وعاد مع أولى الرصاصات التي أطلقت على القصر، انتظر طلوع الفجر ليستدل على مكان بيته في الزقاق. لم يكن مبالياً بما أوصى به العقيد لقطع البرقيات الواردة والصادرة من المملكة.

عند ذلك تحرَّكَت القوات رويداً رويداً لتتقرب أكثر من بوابة القصر، تركوا سيَّارات الشحن العسكرية قبل حلول الساعة الخامسة وترجَّلوا زحفاً نحو الهدف، حتى وصلت طلائعهم إلى مشارف القصر وطوَّقته من جميع الجهات. توزَّعت

فصائل القوة المهاجمة في أماكنها المخصصة، قبيل ساعة الصفر المحددة لاقتحام القصر، وتشتبك مع قوة حماية القصر المدافعة، التي كانت من جانبها لم تدرك ما يجري بالفعل.

عادت العلاقة إلى سابق عهدها بين قره تبي وموسى الشعّار بعد أن تخلى عن تلك الزيجة البائسة، عاد بقوة هذه المرة إلى صديق العمر جميل أفندي. في هذه الأثناء كانا في ملهى «ساسون أفندي» في منطقة جديد حسن باشا، وفي يوم افتتاحه الأول، حيث أعلمتهما رحلو بانتقالها إلى هذا الملهى الجديد. كانت السهرة على حساب الأفندي المحمّل بالدنانير الملكية، العائد تواً من احتجازه في بيت العقيد. كان عليه الالتزام بوصية العقيد للعودة إلى متابعة البرقيات الصادرة والمستلمة وإرسالها فوراً بعد الترجمة إلى العقيد. لكن مغريات السهرة وإلحاح الشعّار للسهر على حس الإيقاع الراقص جعل الأفندي ينسى الوصية. مع هز مؤخرة رحلو وارتجافها مع الإيقاع، نسي الدنيا كلها.

في البدء وعند لحظة الزحف، صدرت الأوامر الميدانية بالتقدم الفعلي نحو بوابة القصر مصحوبة بإطلاق نار كثيف لترهيب أو زحزحة قوة حماية القصر عن أبراجها ومواقعها الفوقية، لكن الأمر تغيَّر بسرعة بعد أن أدركوا أن نقاط المراقبة لم ترد على القوة الزاحفة ففضّل قائد الجند تغيير الخطة ووقف إطلاق النار.

بانت في الأفق خيوط الفجر الأولى، الخيوط البرتقالية التي لطّخت وجه لوحة السماء بضربات لون فطرية نزقة، وحتى تكتمل تلك اللوحة تداخلت فيها بقايا من غيوم رمادية في طريقها إلى الهرب من ثنايا المشهد.

إنه فجر يوم الإثنين، الرابع عشر، والأجواء المعتادة في تموز تكون خانقة ولزجة لكثرة الرطوبة مع هجوم موجات من البق الرمادي المتلاحقة، مثلما عبّر عنها الحلّاق موسيس لجلالة الملك الصغير أثناء الحلاقة. حتى نسيم الفجر البارد

والمعتاد بترطيبه الأجواء، فقد ذاب في تلك اللحظات الصباحية. مما جعل الناس أكثر انفعالاً وقسوة في هذا الشهر بالذات. إذ يكشف تاريخ هذا الشهر المزيد من الهرج والمرج الذي يصيب الناس في كل تموز قادم.

في أسواق بغداد كانت الحركة غير عادية، ثمة كلام يتناقله الناس عن حركة انقلابية جديدة، لكن المطاعم والمقاهي فتّحت أبوابها كالمعتاد، حتى الأفران أشعلت نيرانها، والنسوة الخبازات افترشن أرض السوق غير مباليات بالأقاويل مع أصوات الرصاص التي بدأت ترتفع.

أعلن في ملهى ساسون عن نهاية برنامج السهرة، وأغلقت الستارة القطيفية الحمراء وتم إخراج الزبائن من المكان. خرج الأفندي جميل والشعّار كل منهما متكئاً على كتف صاحبه يغنيان بأغنية «واكف على المسعودي يمشي ويدك بالعود... أمان أمان».

نهض خدم القصر من رقادهم وبقايا سكرة النوم تحوم حول عيونهم. لم يدر في خلدهم أن الزحف العسكري للواء العشرين بات يقترب مع أول تباشير الصبح من محيط القصر في تلك الساعة حتى أصبح على التخوم.

كان الخدم مبكّرين في الاستيقاظ عن الوقت المعتاد، استعداداً لسفر الملك في هذا الصباح، وقد اعتاد سكان القصر على أن يكون أول الناهضين من النوم هو الخادم الأسود شاكر، الذي جاء مع أسرة الملك علي من الحجاز.

يذهب شاكر كل فجر ليطرق الباب على الخادمة رازقية، ثم يطرق باب غرفة سائق الملك، ثم الآنسة فيغمان السويسرية الشقراء، ثم ينزل إلى الحديقة ليقدم الفطور إلى «باتي» كلب الملك المحبوب من الجميع والمعروف بفطنته ومرحه.

لكن هذا اليوم لم ينهض شاكر الأسود من فراشه مطلقاً، فقد تشابكت عليه خيوط الحلم الذي زاره متأخراً، تخيّل أنه يحتضن جسد امرأة أربعينية مثقلة

باللحم الأبيض. راح يلف ذراعيه ليحتضنها، ولم يدر في خلده أنه يحتضن المخدة، أربعينية بنفنوف مشجّر، تنصاع تحت قوته الجسمانية الهائلة، يلفها في السرير وتحت الأغطية، يمددها ثم يفترسها بكل ما أُوتي من قوة. أجلس الأربعينية على قضيبه، عندما جاءت السيدة نفيسة لتوقظه من نومه، ارتبك من وقوف مثير لقضيبه الأسود العملاق متحفزاً تحت الغطاء كعمود خيمة. استحت الأميرة من هذا المشهد وبصقت في زيقها: «تف تف اللّه يلعنك شاكر على هذه الفعلة». ثم ذهبت في طريقها لتوقظ بقية الخدم من الرقاد.

بينما هي لم تنم الليل كله، قضته في الدعاء للملك وتلاوة صامتة للقرآن، وما إن لاحت خيوط الفجر ذهبت في طريقها إلى غرفة الأميرة عابدية، ثم إلى غرفة الأميرة هيام متذرّعة بأن السفر حانت ساعته، وعلى الجميع التهيؤ لرص الحقائب ورزمها وتذكّر مستلزمات السفر الضرورية. سحبت هيام جسدها من حضن الأمير بغنج، ثم نهضت لتغتسل وتتوضأ استعداداً لصلاة الصبح.

كانت عقارب الساعة تبتعد عن ميقات الخامسة، عندما بدأت نوبة أخرى من عويل الكلاب السلوقية، نواح مبحوح ومفزع، يصيب الأجساد بصعقة من رعشات ترتجف لها القلوب، يذكّرهم بنواح الأمهات.

الساعة هي الخامسة وعشر دقائق، سُمعت أولى رشقات قريبة جداً، كانت متقطعة، ففز من كان نائماً داخل الغرف. في تلك اللحظة حدثت جلبة لرجال الحرس قرب السياج الخارجي وكذلك قرب الحديقة الأمامية، ثم نزل الخفراء من نقاط المرابطة العلوية لإيقاظ الضباط من نومهم.

دخلا الاثنان يترنّحان إلى زقاق العاقولية، وقد فعلت الخمرة بهما فعلتها لكثرة الترنح والسقوط المتكرر على الأرض، لكنهما ما زالا يغنّيان. لم يدرك قره تبي أن السدارة السوداء لم تعد فوق رأسه، تركها على المائدة وخرج من الملهى.

لكنه انتبه إلى موعد الصعود فوق أكتاف الشعّار للتطلع إلى شباك جديد، قد انتهى مع خروج يوم الرابع عشر.

أُعيدَ على عجل وبهمّة توزيع نقاط الحراسة على إثر الإطلاقات، لتدخل جميع قوة الحراسة في الحذر واليقظة التامة والإنذار التام. عندما صعد الضابط الخفير إلى نقطة الحراسة المطلة على الشارع الرئيس من جهة جسر الخر، لم يسجل شيئاً في ملاحظته، كان يظن أنها قادمة من جهة معسكر الوشاش لتدريبهم الصباحي المعتاد في ميدان الرماية. انتهت الإطلاقات الأولى وعاد الهدوء إلى القصر من جديد.

في القصر، كان الأمر مختلفاً هذه المرة تماماً، يعتقد ضابط المرابطة أن هذه الإطلاقات قادمة من جهة بعيدة، صادرة من مكان قريب من بيت الباشا نوري سعيد، لكنها بالفعل أولى إشارات الهجوم على بيته. حسب الخطة المُعدَّة من قبل الضباط الأحرار الخمسة. في تلك الأثناء دبَّت الحركة في إيوان القصر العلوي بين غرف النوم، كان السؤال عما يجري في هذا الصباح. لم يدر في بال الطبَّاخ الهندي أن يقلي البيض، أن يعمل الشاي ويجهز القيمر والعسل. كل شيء سيؤجل بعد انجلاء الغبرة.

بعد مرور عشر دقائق أخرى، أي في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة تجدّد صوت الإطلاقات بكثافة أكثر من السابق، وهذه المرة كان الصوت جدّ قريب ورائحة البارود زكمت الأنوف. نهض شاكر الأسود مرعوباً على صوت الرمي، عندما وصل حلمه إلى حافة الشعور باللذة الحلمية. تراجع قضيبه الحديدي المبالغ في ضخامته من الانتصاب وعاد ليتداخل ويضمر، نسي أن يرتدي لباسه، لكنه خرج إلى الرواق يسأل القادم والمغادر عما يجري خارج القصر.

في تلك اللحظة نهض الملك، فوجد الأميرة عابدية والملكة نفيسة والأميرة

هيام أمامه بوجوه صفر، وشفائف يابسة، وأنوف محمرة. وقفن في الممر العلوي الفاصل مع اثنتين من الوصيفات لمحاولة إدراك ما يحدث في جوار القصر. صاح الملك على حارس الباب الداخلي:

ـ شو هذا؟؟ شو صار؟؟

في الأثناء انضمَّ إلى الحارس ضابط بنجمة واحدة وجندين آخرين من كادر الحماية، فأجاب الضابط بعد التحية المرتبكة:

ـ جناب حضرة الملك، حرس المدخل الخارجي ما زالوا يبحثون عن مصدر الإطلاقات وسنوافيكم حين ورود المعلومات جناب الملك المُفدَّى.

خرج الأمير عبد الإله أيضاً على صوت الجلبة إلى رواق الكلدور بالبيجامة الكحلية المقلمة من غرفته، بشعر منفوش على غير عادته وأثرُ النوم في عينيه، ثم صاح على الضابط والجنديين الذين يقفون مقابل غرفة الملك، بالخروج الفوري للبحث عما يحدث على الفور:

ـ تفضَّلوا شوفوا شغلكم؟

بينما صعد الجميع نحو الشرفة المطلّة على وجه العاصمة حيث ما زال ناسها البسطاء ينامون فوق سطوح بيوتهم في الناموسيات البيض، وبقايا صواني قشور الرقي على الستر الواطئة وجِرار الماء تنث قطيرات الماء البارد من جنباتها باستحياء. فيما طيور الفواخت بدت عملها في النشيد المعتاد «يا كوكتي وين أختي» على أشجار الصنوبر العالية لجهة شارع أبي نؤاس، يُسمع نشيدها ممزوجاً مع أصوات رشقات في المدى.

عند الوقوف على الشرفة شاهد الأمير عبد الإله جندياً يهرول على طريق الشام بكامل عدته وسلاحه بيده، يحاول الانحدار من الطريق إلى جنباته قفزاً ليجري نحو المدخل الرئيس لحديقة القصر، ثم يعانق أحد حرس القصر. ثَمَّ

رهطٌ من الجند يتبعه وما زال بعضهم يتجمع على طريق الشام المحاذي للقصر. ولأول مرة يصعد رئيس العرفاء إلى الشرفة متجاوزاً التقاليد الملكية، ثم أدّى التحية للأمير:

ـ سيدي. الجندي الذي وصل للتو، يطلب شربة ماء من نسيبه، أحد جنود حماية القصر. ماذا نفعل؟

ـ أعطه الماء، وحاول أن تستفسر منه ماذا يريدون هنا في هذا الطريق، وما سرّ هذه الإطلاقات؟

ـ سألناه سيدي، لكنه لا يعرف، قال إنه مكلف بتطويق القصر مع بقية الجنود والقسم الآخر منهم في المرابطة أمام جسر الخر وبوابة القصر.

ـ تطويق شنو يعني!؟ مؤامرة جديدة يعني؟ أنت متأكد من هذا الكلام؟ اذهب وأخبر طه البامرلي بالحضور فوراً هنا أمامي.

تصاعدت أصوات النسوة، عندما سمعن هذا الحوار، يحاولن إدراك ما معنى التطويق من الأميرة نفيسة.

ـ حاضر سيدي. قال الضابط ثم أدى التحية وانصرف لاستجلاء الموقف كاملاً من البامرلي.

ارتبك الأمير وأصفرَّ وجهه، بينما الملك ينظر مرتاباً مما يحدث في تلك الساعة. عيناه تحملان سؤالاً يتيماً، ما هي الخطوة اللاحقة لتفادي تلك التصرفات المشبوهة؟ كان يقول في نفسه: «يعني تحذيرات صالح عطية كانت صحيحة».

من فوره ذهب الأمير نحو الهاتف وحاول الاتصال لأكثر من مرة برئاسة أركان الجيش، ثم برئيس الوزراء، ولا أحد يرد على اتصالاته.

أولى الإطلاقات الموجهة بشكل مباشر نحو القصر بدأت تنهمر في الساعة

الخامسة والثلاثين دقيقة، مع تعالي صوت الكلاب السلوقية التي قفزت إلى أسوار بيوتها الملاصقة لكوخ الزنكي في طريقها للنجاة.

دخل الجميع في باحة البهو العليا؛ النساء والرجال والحاشية والخدم معاً.كانت الآمال معقودة كلها على حنكة الأمير في التصرف الصارم، وهو المعروف بخبرته وحنكته العالية في الأمور المعقدة التي تعترض المملكة طيلة السنين التي مضت.

يبعد معسكر الوشاش عن قصر الرحاب ما يقرب من (700) متر فقط، وهو معسكر في منتصف مدينة بغداد، ومدرسة عسكرية للتدريب. ثمة علاقة وصل بين صغار ضباطها وقادة حركة الضباط الأحرار. كان شبه اتفاق سري على المشاركة في الثورة إن حصلت في تلك الأيام.

وبعد سماع أصوات الرصاص، أُوفد ضابط صغير برتبة نقيب من مدرسة الرماية لاستطلاع الأمر، كان هذا هو النقيب ويسمى الريس «حمدان العباسي» لمعرفة ماذا يحدث قرب محيط القصر. عند عودة العباسي ذهب فوراً لفتح مشاجب السلاح وتزويد القوة الصغيرة بإمرته للمشاركة بالهجوم على القصر، ومن دون أمر من العقيد عبد السلام أو غيره. هكذا هو متحمّس طوال حياته. الحماسة غدت سلوكاً يومياً له.

المصادفات وحدها تختط طريق الحياة السياسية في العراق، العباسي بسلوكه هذا قد كان انقلابياً أكثر من الضباط الأحرار أنفسهم، وثورياً حالما أكثر من مطلقي الثورات العالمية كلها. هذا الضابط الصغير هو الذي حاول عندما كان طالباً في ثانوية الرصافة أن يخنق الوصي عندما مرّ في شارع الرشيد بسيارة مكشوفة، حيث صادف أنه كان يشارك كعادته بمظاهرة صاخبة من أجل الخلاص من البق. العباسي كان مشاركاً طبيعياً في أية مظاهرة تنطلق في شارع الرشيد. حتى وإن كانت على البق والجرذان التي غزت الرصافة في بغداد.

* * *

2

ورقة بيضاء بيد الأمير

في الطابق العلوي الذي تجمعت فيه الأرواح اللائبة من خوف وارتباك يتعاظم كلما مرت الدقائق الثقيلة، وقف الأمير والملك قرب النافذة المطلة على الحديقة التي تكشف بعضاً من الشارع المؤدي إلى بوابة القصر، راحا يتبادلان الرأي وماذا عليهما في تلك الساعة أن يفعلا. اقتربت الملكة نفيسة منهما، ثم تبعتها الأميرة عابدية، كانتا ترتجفان من الخوف، تبعتهما الأميرة هيام تبسمل بآيات من المصحف بصوت مسموع، قال الأمير بانزعاج واضح:

ـ هذه حركة من الجيش ضدنا جلالة الملك، تلمّست خيوطها، لكني لم أتوقعها في هذا اليوم، آخ منك نوري... مع كل الأسف واللّه.

صفق بيديه ولطم جبهته، ثم انتبه إلى حضور الخدم وهم يصغون إلى كلامه، فراح يتكلم باللغة التركية. ثم خرج من البهو ذاهباً إلى غرفته ساحباً الملك معه، عاد للكلام بالعربية:

ـ إذا حضرات عسكر من ضباط مشاغبين يريدون الحكم، احنه ما نريده.

يصل قره تبي إلى بيته، ولم يخلع ملابس السهرة، حاول التمدد على فراشه في أرض الغرفة التي ما زال بعض ظلام يخيم عليها. وقبل أن يغمض عينيه حاول أن يتذكر ثمة التزام عليه، لكنه لم يتذكر الوصية مطلقاً، فغطَّ في بحر النوم مستسلماً لحلمه اللذيذ مع رحلو.

ما هي إلا لحظات أخرى ويخرج من غرفته وبيده ورقة بيضاء وما زال يرتدي البيجامة الكحلي، أعطى الملك الورقة وتشاورا ثم همّا بالنزول نحو الطابق الأرضي.

وعند آخر السلم النازل وجدا النقيب «ثابت يونس» مرافق الملك والأكثر إخلاصاً من غيره من الضباط وكان في انتظارهما، فهو ليس مسموحاً له بالصعود إلى الطابق الأعلى. قال له الملك:

ـ ثابت شنو هذا اللي ديصير؟ ثم تدخل الأمير بدوره ليسأله:

ـ من هم هؤلاء ريس ثابت؟

ـ سيدي شاهدت مركبات عسكرية واقفة على آخر الطريق وحولها الجند بكامل عدتهم وبنادقهم موجّهة نحو القصر بانتظار الأوامر. أقدّر عددهم خمسين نفراً. نحن قادرون على إبادتهم وسحقهم فوراً، والآن بانتظار الأوامر منكم.

ـ أين العقيد فالح حنظل؟

ـ لا أعرف. ننتظر أمركم سيدي.

لكن الأمير أشار بكف يده ليقطع كلامه:

ـ ما نريد دم ولا سحق ولا إبادة، أما إذا أرادوا العسكر القبض علينا بشخوصنا، نحن حاضرون. حاول التفاهم معهم وعد إلينا. هذه أوامر ريس.

* * *

لم تمر تلك اللحظات سريعة كما في القصص التاريخية، بل كانت الدقائق أثقل من الجبال الصامتة المهيبة، لحظات قاسية فعلاً، فيها يتخلى المرء عن وقاره ويفقد البديهية وسرعة التصرف الحسن، بين رعب الأميرات ووجوه الوصيفات الخائفات والخدم الذين لا يحق لهم السؤال عما يحدث. الملك والأمير يتفكران

بما يؤول إليه مصير الجميع هنا. وكان عليهما حسم التفكير المناسب والتصرف اللائق بهما للحفاظ على أرواحهما والعائلة.

ومع كل رشقة من الرمي يفزّ المحاصرون يلوذون إلى الجدران، مرعوبين مما يحدث أمامهم وأصوات العسكر وصراخهم يحدث مزيداً من صخب وفوضى مع رائحة البارود والدخان بدأتا تنتشران في الرواقات.

في تلك اللحظة طوقت الملكة عابدية الملك الصغير بكلتا يديها، توسّلت إليه لعدم النزول إلى الطابق الأسفل، فالعسكر مجانين في فنون القتل السافر، أما الملكة نفيسة فقد حملت المصحف ووضعته على صدرها بعدما مررته على رأس الملك والأمير وبقية أفراد العائلة، وهي تقرأ منه ما حفظته من آيات قصار. ذهبت رازقية البنت الصغيرة المشغولة بحبيبها طوال الوقت إلى غرفتها الصغيرة، لتجمع كل حاجياتها وذكرياتها الصغيرة مع وحيد بن الزنكي وجمعتها في صرّة صغيرة لتحملها معها في رحلة مجهولة لم تحدث بعد.

كان الأمير متسمّراً أمام الهاتف العاجي ينتظر رداً من رئاسة الوزراء أو رئاسة أركان الجيش، وبعد أن طال الانتظار، راح وبيد مرتعشة يزول قرص الهاتف بعصبية واضحة وهو يصرخ: ألوو... ألوو... لكن الطرف الآخر من الخط ظل صامتاً كالحجر. في تلك اللحظات أشعل السيجارة تلو الأخرى، كانت أعين الجميع تتجه نحوه بمن فيهم الملك الصغير. اتصل في مكتب البرق ليملي على موظفها برقية إلى المملكة الأردنية الهاشمية، ثم تلاها ببرقية أخرى إلى لندن.

كذلك وصل موسى الشعار سالماً إلى بيته الملاصق لبيت قره تبي، لكنه لم ينم، اغتسل بالماء ومشَط شعره، ثم ارتدى بدلة المراسيم العسكرية ذات الأشرطة والنياشين وخرج حاملاً آلته الموسيقية ذاهباً إلى فرقته العسكرية.

لم يشغل شاكر الأسود الخادم المطيع هذا الوضع، وكل ما يحدث أمامه،

ذهب إلى المطبخ خلسة، وجد البيض المسلوق على المائدة متروكاً لم يمسّه أحد، تناول قطعة خبز وكسر بيضتين وراح يفطر على صوت الرصاص. كان يفكر في تلك اللحظات العصيبة أن يموت وهو شبعان، لهو أفضل عنده من الموت جائعاً.

* * *

في الجانب الآخر من العالم، وفي لندن التي تستعد لاستقبال الملك، رغم أن السيد قدوري أصيب البارحة بوعكة صحية نقل على أثرها إلى المشفى، حيث كان يعاني من مغص معوي مهلك، لقد أفرط بالتهامه نصف رأس خروف مسلوق بالثريد، بعد أن تناول قبله قنينة ويسكي اسكتلندي كاملة في سهرة خاصة مع رجال السلك الدبلوماسي الإنكليزي والهولندي ومعهما الكثير من الجنس اللطيف الذي أضفى على السهرة نوعاً من المرح والشبق الجنوني.

السيد قدوري أفندي لم يطلع على البرقية السرية العاجلة من الباشا نوري سعيد، التي تحثّه على استكمال الإجراءات الروتينية اللازمة لحفل استقبال الملك. ولم يطّلع بعد على البرقية السرية اللاحقة من الأمير، فقد كان في شبه غيبوبة في المشفى، والإسهال قد أخذ منه كل حيويته متنقلاً بين سريره والمرحاض كل بضع دقائق.

* * *

3

نزول الملك

استمرت المناوشات حتى السابعة صباحاً، تخللتها بعض المفاوضات بين الطرفين. مناوشات ورمي متواصل بإطلاقات من بنادق الغدَّارات وبعض قذائف هاون 106 ملم، بعضها قد وقعت على سطح القصر أو في الحديقة الخلفية بالقرب من كوخ الزنكي الهارب. كانت المناوشات على أشدُّها بين حرس القصر والقوة المهاجمة، أصيب فيها الريِّس عبد الحميد السراج وأصيب مصطفى عبد اللّه من فريق المهاجمين، كما وأصيب عدد من أفراد الحرس الملكي وأصابت النيران شجرة الصنوبر العجوز وهروب الفاختة الأخيرة مفزوعة من عشها المعلّق بعدما تركت بيضتها الوحيدة على وشك التفقيس.

وعندما اقتحمت القوة المهاجمة باب القصر، استسلم أولاً العقيد طه البامرني مع ثلاثة من ضباطه، جردوهم من مسدساتهم الشخصية دون مقاومة منهم. أخبرهم البامرني بأن الأوامر التي بُلّغ فيها من الأمير عبد الإله تقضي بعدم الرد. رغم انتشار قوة حماية القصر في جيوب متباعدة في فناء القصر تتمترس قرب السياج الخارجي. لكن شيطنة الضباط المهاجمين كانت فائقة، حيث أجبروه في تلك اللحظة أن يصدر أمره بعدم اعتراض المهاجمين في مكبر الصوت، ليتسنى لهم الدخول من دون مقاومة.

في الأثناء نزل الملك الصغير إلى صالون الطابق الأرضي من القصر وهو في

حالة هلع وخوف شديدين، بعد سماعه صوت البامرني يطلب من بقية قوة الحرس القاء السلاح: «كل شيء راح واللعبة انتهت».

خرج الملك أولاً إلى البهو ملقياً نظراته على بقايا الأفراد النازلين من بروج المراقبة العليا، فأدرك النهاية بفطنته، لكنه اختنق عندما شاهد اصفرار وجوه الخدم والمرافقين الخائفين محصورين في زاوية من صالة البهو، عاد ليصعد السلالم الثلاثة الأولى ليتفقد الأميرات الخائفات في الطابق العلوي. دوّى صوت انفجار عنيف؛ إنها قنبلة أخرى أطلقها الريس العباسي من مدفع 106 ملم. أصابت القنبلة برج السلم في الأعلى تماماً فوق رأس الملك، ولكنه لم يصب ولله الحمد، فتجمَّع ضباط وجنود الحماية حوله مدافعين عنه، رغم أن الملك حاول متابعة الصعود، لكن الحارس الشخصي للملك منعه فاتحاً يديه ومعترضاً طريق السلَّم ليجبره على النزول فوراً للطابق الأرضي حرصاً على سلامته.

وصل الملك إلى حجرة أخرى منزوية في الجهة البعيدة شبه مظلمة من الجهة التي ظلت هادئة وبعيدة عن الغبار ورائحة البارود منذ ساعة بدء الهجوم. ينتظر نزول كامل أفراد العائلة. في الطابق الأعلى كانت الأمور ملتبسة والخوف والصراخ يختلط مع صوت الأدعية وتلاوة القرآن، الملكة نفيسة جالسة على كرسيها الخشبي العريض ممسكة بكتاب اللّه بيد مرتعشة وإلى جانبها الأمير عبد الإله، بينما الأميرة عابدية تقف بقربه تحاول إقناع الأميرة هيام بالنزول إلى الطابق الأرضي لكنها ظلّت ترفض كل المحاولات.

دوى انفجار آخر أصاب ركناً من الطابق الأعلى المواجه للغرفة التي يجتمعون بها، انتشر الدخان والغبار في تلك اللحظة بشكل كثيف. قبِلت الملكة نفيسة وهيام وبقية الأميرات بالنزول، لكن الأمير اعترض طريقها وأعادها لغرفته لتغيير ملابس النوم. احتضنها الأمير ونزل السلم. كان آخر من نزل من الطابق العلوي هما الأميرة عابدية ومعها مديرة شؤون القصر الآنسة الشهباء «فيغمان» السويسرية.

بينما كانت الخادمة غازية تحمل علبة الأوراق الرسمية، كانت ترتعش ولا تعرف أين تذهب عندما همّ الجميع بالنزول، حاولت الالتحاق برازقية، البنت اليتيمة التي تكفّلت برعايتها الأميرة عابدية، وهي تمسك ثوب أميرتها من الخلف.

أكملت بقية العائلة نزولها سالمة إلى الحجرة ـ شبه المظلمة ـ والبعيدة التي يحتمي بها الملك والأمير، والتي أوصى بها النقيب ثابت. جلس الجميع ينتظرون مصيرهم في تلك اللحظات القاتلة. تفوَّه الأمير بعد صمت طويل:

ـ بس أعرف لويش ما رجع ثابت؟ فين راح هذا الملعون؟

آه لو كان يعلم الأمير كم من الرصاصات قد اخترقت جسد هذا الرجل الشجاع. لن يعود بعد الآن ليلقي التحية على الأمير ويهمس بأذنه في قضية سرية للغاية.

بعد حلول الساعة السابعة بقليل زمجر جرس الهاتف الأرضي وسط الدخان والغبار، راح الهاتف يدق بقوة، بانتظار من يرفع سماعته العاجية البيضاء. وعندما تقدم الأمير لرفع السماعة جاء الصوت:

ـ سيدي اتخذنا مواقعنا كاملة، نحن على أهبة الاستعداد لرد القوة المهاجمة وطردهم بعيداً عن محيط القصر. سيدي إذا انتظرنا من دون اتخاذ القرار في هذه اللحظة، أخشى أن يحتلُّوا القصر بظرف دقائق لا أكثر. بانتظار أوامركم سيدي. كان هذا أحد ضباط الحرس الملكي المسؤول عن محيط القصر.

ـ اترك الموضوع. أبلغت البامرني بعدم الرد. هذه هي الأوامر تصرّف وفق الأمر الصادر. انتهى.

بعد خمس دقائق من المكالمة الهاتفية ومع اشتداد القصف على القصر، رن الهاتف العاجي مرة أخرى. اتصل الضابط نفسه معلناً البقاء في المواقع ذاتها، بل محذراً من أن جنوده تحمَّسوا للرد، والخوف من انفلات الأمور.

ـ أخي اسمع زين. إياكم والرد. هذه هي الأوامر والتصرف بغيرها يعتبر خيانة للمملكة. فكل حركة مناوئة منكم تعرضنا للخطر بحجة كثافة الرد من قبلكم.

كان جواب الأمير هذه المرة أكثر حزماً من المرة السابقة.

ـ سيدي أرجوك دعنا نحن العسكر نتصرف أرجوك...

ـ لا قتال في كل الأحوال. انتهى.

ضرب الأمير سماعة الهاتف بقوة عندما وضعها في مكانها على قاعدة الهاتف الأرضي. كان يرتعش وهو يبحث في جيبه عن علبة الثقاب ليشعل سيجارته، بينما كان الملك حائراً ولا يعرف ماذا يفعل تحت لعلعة الرصاص، سوى أنه حاول تهدئة النسوة من الأميرات.

* * *

اجتمعت الأسرة المالكة في حجرة واحدة تستمع إلى خطب متلاحقة وبيانات متسارعة من دار الإذاعة يلقيها العقيد عبد السلام بنفسه، حتى أن البيان الأخير يعلن فيه قرب السيطرة على قصر الرحاب والقبض على أفرادَ العائلة المالكة جميعهم.

وفي بيان لاحق كان يحرّض بصوته المبحوح الجماهير للزحف على قصر المملكة لمساندة أبنائهم الثوار والشد من أزرهم.

أما داخل القصر فقد وصل أزيز الرصاص إلى النوافذ والأبواب وقد دخلت أولى طلائع الجند المتقدمين، ووصلوا إلى حديقة القصر، بعد أن ضمنوا إصدار البامرني أمراً قاطعاً بعدم الرد والتوقف عن المقاومة وفق أوامر الأمير عبد الإله.

كان النقيب حمدان العباسي في طليعة المتقدمين من جهة الحديقة الأمامية، ثمَّةَ صورة فوتوغرافية مجهولة المصدر كما يصفها جلال كوداك يبرز فيها العباسي وهو يحمل رشاشاً وهو بحالة هستيرية لا مثيل لها:

وين الملك؟ وين الأمير؟

كان يصرخ في وجوه الجنود المستسلمين عن المكان المحتمل للملك والأمير وبقية العائلة. أرشده الجنود الخائفين على حياتهم إلى مكان أفراد العائلة المحشورين في غرفة خلفية بعد أن نزلوا من الطابق العلوي.

ما هي إلا دقيقة ويعثر العباسي على العائلة المالكة. عندما ذهب يفتش المكان، حتى عثر عليهم. لم يحن قلبه على الحالة المزرية التي وجدهم بها، وقد نزع الحس الإنساني ووضعه تحت بسطاله. استطاع أن يسحبهم إلى الحديقة الأمامية وأن يسيروا بالرهط أمامه. كانت لحظات عصيبة على النسوة والأطفال وعلى الأمير والملك، يسيرون بالنسق والذل والإهانة تلاحقهم من العباسي في حالة هستيرية.

يتقدم الرهط أحد ضباط الثورة يتبعه الملك ثم عبد الإله ثم الأميرة نفيسة تضع المصحف الكبير فوق رأسها، ثم تأتي البقية من الخدم والوصائف والأطفال. حتى وصلوا إلى الشجرة الجهنمية (بوغانفيليه) قرب حوض النافورة، وفي تلك الأثناء أصيبت البنت «غازية» بطلقة طائشة من أحد الجنود واحتضنتها رازقية بين يديها.

عندما وصل موسى الشعّار إلى فرقته الموسيقية وجد كتاب نقله موقعاً وجاهزاً، منقولاً إلى وحدة مشاة خارج بغداد، والسبب كالعادة تعثّر الشعّار في مواعيد الدوام الرسمي، وعدم حفظ النوتة الموسيقية للنشيد الوطني المصري.

ذهب الشعّار إلى العقيد طه البامرني إلى قصر الرحاب ليعيده إلى موقعه، وعندما وصل هناك وجد البنادق متوجهة نحوه، أمره النقيب حمدان العباسي بالتوجه فوراً مع الجنود المتقدمين نحو القصر وإلاّ... سلّمه بندقية مع العتاد، فما كان على الشعّار إلا الامتثال للأوامر العسكرية.

لم يجرِ أي تفاوض بين الملك أو الأمير والقوة المهاجمة، لكن الأم نفيسة كانت تتوسل بهم وهي تضع المصحف على صدر الملك مَرَّة وعلى رأس الأمير مَرَّة أخرى، توصيهم بعدم سفك الدم فهم من نسل رسول اللّه إن كانوا مسلمين.

في تلك الأثناء ابتعد العباسي ليقف على مقربة عشرين متراً من العائلة المالكة، ممسكاً برشاشه، يده المرتعشة تداعب الزناد. يقف بالضبط عند مدخل رواق القصر ويسند ظهره إلى أحد الأعمدة الرخامية. يُمرّن نفسه على إطلاق الصيحة العظيمة «اللّه أكبر» متمنياً وصول تلك الصيحة العظيمة إلى مبنى الإذاعة وتخترق أذني العقيد عبد السلام.

* * *

انتهى كل شيء بسرعة فائقة من رشاش العباسي الذي تدفق برشاقة، وبعض المتحمسين من أمثاله. و بحلول الظهيرة، حضر كوداك ليلتقط صوراً لجادة خليل باشا تظهر فيها جوقة المحتفلين في مشهد تمثيلي ليوم الجمهورية الأول، يظهر من ضمن جمهرة الهتّافين والملوِّحين بأيديهم بالحبال والهراوات التي تركها أفراد الشرطة، كان من بين هؤلاء موسى الشعّار ببدلته البيضاء وينفخ بآلته النحاسية. ينددون بالظلم من رجال المملكة والموالين. كان الشعّار يبث روح الثبات والقوة والإصرار لموقف الثورة الوليدة في عزفه، ولا يكتمل المشهد الكلي إلاّ بقتل الباشا الذي ما زال حتى ساعة الظهيرة غائباً عن الأنظار.

بعض المَحال تغلق أبوابها حزناً على رحيل العائلة المالكة والتمثيل بجثثها. فيما محال أخرى توزع الحلوى وعصير الزبيب مرحِّبين بالعهد الجديد. الإذاعة ستصدح ببيانات الثورة المتلاحقة، فيما العقيد عبد السلام لم يغادر باب الإذاعة ساعة واحدة.

كانت صورة كوداك تظهر أسطول السيارات من نوع (لاندروفر) مكشوفة

تحمل العديد من المتظاهرين المتعطشين لهذا المشهد الخرافي. بعضهم يلوِّح للجماهير بما غنمه من أعضاء جسدية تتحول فيما بعد لمادة دسمة لحديث مقهى سلمان بغدادي. هي أعضاء مختلفة كأصبع يد وأنف مجدوع وأكف نساء وجدائل من شعور نساء العائلة المالكة وأعضاء أخرى لا يمكن ذكرها بسهولة، يلوِّحون بها وهم في غاية الانتشاء والرغبة في المزيد من العنف والتقتيل، بانقضاء العصر الملكي البغيض وفق تعبيرهم. الرغبة في التغيير لا تضاهيها رغبة أخرى كي لا تستمر الحياة بالوتيرة ذاتها.

* * *

4

العميان

بعد ثلاثة أيام فقط يصف مذيع الـ«البي بي سي» من لندن مشاهد العنف، بأنها عودة جديدة للعنف والدم في بغداد، مشاهد مرعبة تنذر بالمزيد، حين قال:

«عاش البغداديون في أول يوم من تغيير نظام حكمهم في حالة من الغيبوبة الجمعية الطاغية، باتوا يسمعون في المقاهي النوادر من مشاهد السحل والحرق. رقصوا فوق برك الدماء التي أريقت من أجساد العائلة المالكة. يذكر المفكرون وأصحاب الرأي بهذا الصدد أنه يوم مشهود سيتكرر عبر تاريخ العراق الجديد».

بات مهندس الانقلاب/الثورة العقيد «عبد السلام عارف» ليلته في دار الإذاعة وبقي طوال الليل كله يعيد ويشطب في صياغة البيان الأول. فالثورة بيان واحتلال لإذاعة فقط، وما سواهما يمكن تسويته بالمسدس والمال عبر التخوين ثم السجن أو الشنق.

أبرق رسالة سرية للغاية كتبها جميل القره تبي بعد أن أصبح من المقربين منه، برقية ممهورة بتوقيعه. لا أحد يعرف ما مضمونها، ولكن التكهنات تذكر أن البرقية تُخبر الزعيم عن لحظة الهجوم وتوقيته. فيما يرجح بعض الشهود الأحياء أنها كشفت عن توقيت مغاير للحظة الهجوم الفعلية التي خطط لها العقيد مع خمسة ضباط آخرين.

اتفقوا على كتمان السر ووضع الخطة السرية وفي نهاية الاجتماع، تشابكت أكفهم على المصحف لخطة الصقور المباغتة في موعد الهجوم، ففي تلك اللحظة كان الزعيم في موقعه العسكري خارج بغداد يعدّ طعامه بيده ويذهب عصراً للصيد في بحيرة الحبانية.

من جانب آخر كانت الاتصالات بين حلقة الصقور المصغَّرة هذه تجري مع ضباط اللواء العشرين الذي بدأ فعلاً بالحركة نحو بغداد حسب برقية الحركات في طريقه إلى الأردن، ذلك هو الطريق الوحيد المؤدي إلى العاصمة الملكية، كانت العقدة المهمة في ضبط توقيت الوصول إلى تخوم بغداد.

يتابع المذيع وصفه لما حدث:

«الثورة بيان يحتاج إلى بث إذاعي في الصباح الباكر قبل الفطور الصباحي. يستهل مذيعه «العقيد عبد السلام محمد عارف» باسم الشعب. ولا شيء غير هذا. فالجماهير ستتكفل بنزع السلطة عن بقية مؤسسات المملكة».

انتهى كل شيء بسرعة، وانقضت أيام المحنة، وتغير نظام الحكم من ملكي إلى جمهوري بخفة ويسر، وعندما تستتب الأمور في يومها الثالث، يذهب العقيد إلى منطقة العميان في الأعظمية، إلى بيته، حيث تجمهر رهط عظيم من البغادة عند باب بيت العقيد، يحاولون لقاء العقيد ابن العميان ومهندس ثورتهم، للبت في شكواهم من البق الرمادي كهدف أولي، يطالبونه ببحث المشكلة والقضاء عليه ليتسنى لهم النوم بأمان.

عندما يستعرض العقيد صور جلال كوداك، يتوقف عند صورة تعجبه، ملتقطة لموسى الشعّار وهو يبث الأناشيد الوطنية بزيه الأبيض، يقف على ظهر سيارة لاندروفر مع حشد الراقصين ينفخ بآلته ويبث لهم أناشيد الحماسة.

يكرم الشعّار مباشرة من العقيد، ويصبح قائد الفرقة الموسيقية لفرقة

المراسيم العسكرية، مع ثلاثة رجال حماية وسيارة جيب عسكرية ومسدس. يستلم منصبه الجديد، وأول ما فعله الشعّار أنه عاقب مسؤول الفرقة، الضابط الكبير والموسيقي الشهير في الفرقة «داود بكي» وأحاله فوراً على التقاعد، كما وعاقب صديقه نافخ الترامبيت بالنقل الفوري إلى وحدة عسكرية في شمال العراق. وحجته في ذلك بأن النشيد الملكي انتهت صلاحيته، والنشيد الوطني الجمهوري لا يجيدان عزفه. هذا كل ما في الأمر.

تقف الست ناهدة «أم أحمد» زوجته معترضة طريقه عند الباب لتقول له:

ـ ها سلومي قتلت الملك والوصي، ليش هيجي ليش؟ ما خفت يشورون بيك؟

ـ اتركي الكلام الآن. جهزي لي الحمام أريد أن استحم. بعدها أريد أن أنام فقط.

ـ شلون تنام؟ قل لي كيف تنام، والدماء اللي برقبتك ما زالت آثارها في شوارع بغداد يا ظالم؟ ليش ما خفت من اللّه؟

ـ أنا لم أقتل بيدي. صدقيني الشعب هو من اختار هذه الطريقة. قمنا بثورة من أجل الشعب عزيزتي.

ـ يا ثورة!؟ هذا انقلاب دموي على العائلة المالكة سلومي أفندي.

* * *

الباب الرابع عشر

باب الفرجة الأخير

1

ظلام العرض... سواد التاريخ

وصلت معكم إلى يوم باب الفرجة بسلام. المكان نفسه، وما زالت الرائحة القديمة لطالبات معهد المعلمات باقية وتتمدد، في الممر الضيق ذاته، وما زالت رسوم القلوب المطعونة بالسهام لهن ترقص على الجدران وتشع بذكرياتهن. بعد أن أغلق معهدهن أبوابه، ليتحول إلى معهد الفنون الجميلة.

اتصل بي الكوني ليذكرني بموعد العرض لهذا اليوم، أخبرني أنه استكمل استعداداته لكافة مستلزمات العرض. إعلانات الترويج للفرجة انتشرت في كل شوارع بغداد. كذلك تم الإعلان عنها في الصحف المحلية بصورة سالبة للكوني ببندقية الخشب.

قبل التوجه إلى مكان المسرح التجريبي في الطابق الثاني، ذهبت نحو مراحيض الأساتذة كالعادة، لتفريغ مثانتي، حتى أشعر قليلاً بنشوة الإفراغ المحببة لنفسي.

وصلت إلى المعهد سالماً مسلَّماً. صعدت السلالم نحو المسرح التجريبي متكئاً على السياج الحديدي. في الممر الطويل قابلتني الست سعاد بشبه ابتسامة غامضة: «يا سبحان اللّه، سبحان مغير الأحوال. واللّه لم أعرفك لولا نبرة صوتك ست»، هذا ما قلته لسعاد التي بدت كعروس في صباحيتها الأولى، شيء من الجمال على ملامحها، حتى عطرها الذي يحوم في المكان خلفها كان يشي بامرأة أخرى.

ثم دخلت من باب المسرح، فوجدت مدير المسرح ينتظرني، أخذ بيدي نحو المقعد المخصص لي بكل احترام، ليشعرني بأهميتي مرة أخرى.

جلست على مقعد أحمر مريح، في الصف الأول من مقاعد قاعة العرض، والمخصصة للشخصيات المستعلمة بقطع مخطوطة للمدعوين من الوجهاء، حيث يتيح الجلوس هنا مشاهدة مريحة وسماعاً جيداً للفرجة. المقعد مكتوب عليه بشيء يدعو للفخر (الروائي الكبير خالد الشيخ)، يعكس هذا الاحتفاء شيئاً ما بنفسي.

لم تبدأ الفرجة بعد. ثمة عزف على العود، معزوفة الشلال ذاتها التي سمعتها في المرة السابقة في التمرين الأخير لجميل بشير. يبث العود أشجانه في فضاء القاعة بنقرات متلاحقة، بحيث لا يترك حيزاً للحوارات الجانبية الهامسة لجمهور العرض المرتقب. وثمة قهقهات لسعاد بديوي التي أثارت إعجاب الجميع بطلَّتها الملائكية.

في الحقيقة كنتُ خائفاً من التغيّرات الأخيرة التي طرأت على الولد المؤدي خلال اليومين الفائتين، حيث مارس نوعاً من الانغماسية المخيفة في تلبّس الدور، بكل الطرق التي ستؤدي لاستعادة اللحظة التاريخية، تلك طريقته الغريبة، التي لم يعلن عنها في استنباط قوة فعل الحدث من بطن التاريخ، الطريقة الغريبة في ابتكار الأداء العراقي.

لقد لمّح لي أنه سيفاجئ الجمهور والممثلين الآخرين على المسرح، بطريقة الانغماس المستحدثة بعيداً عن دروس التمارين في التدريب. ذكر لي ذلك في جلسة كحولية قبل يومين خلت: «إن الطقس التماثلي سيتجّسد بشكل حقيقي في ليلة العرض».

ـ ماذا تعني يا ولد؟

ـ ...بعدين تشوف.

استطاع الوصول إلى بنت «حمدان العباسي» الكبرى ليشرب من خلالها رحيق الشخصية الإشكالية، من خلال وصف عشوائي لذكرياتها عن أبيها. أمطرها بعدد مترادف من الأسئلة المثيرة عن كل شاردة وواردة في سلوكية الأب المحتملة. بعض الأسئلة لم تجب عنها البنت المتحفظة، فيما أجابت عن بعضها الآخر بطريقة مشوّشة لم تنفعه بعملية الانغماس الكامل. غادرها وهو غير نادم على اللقاء معها.

لم يحضر السيد المنذري كما كان مخططاً له لعرض الفرجة، فقد اختطفته يد الأقدار، ولم يُعرَف مصيره لغاية ساعة العرض. بقيت بطاقة دعوته للحضور محنَّطة على باب كوخه النهري تعبث بها نسائم نهر دجلة. أصرَّ الولد الكوني على تثبيت كلمة السيد المنذري على برنامج العرض وفاء لأفكاره وقيمه النبيلة، رغم اعتراض رئيس القسم خوفاً من تدخل أذناب الحكومة وست سعاد مما يتسبب في طرده من رئاسة القسم.

الأمر الذي جعل الكوني يعتذر للجمهور عن غياب السيد المنذري وانشغاله بفكرة الغنوصية الجديدة التي يعمل عليها. لم يذكر شيئاً عن اختطافه. كما أنه سيعمل على تسجيل فيديوي كامل لمتابعة الفرجة وتسليمها له.

في تلك الجلسة الكحولية قلت له: «ماذا ستفعل؟ لاستكشاف الطريقة المثلى لتطبيقات نظرية السيد المنذري. بصراحة أنا خائف كثيراً من تداخل غير محمود بين دروس التبنّي ودروس السيد المنذري» ونظرية صاحبك هذا أنطونين آرتو؟

ـ النظرية الحديثة لفن الأداء يفسدها الإعلان المبكر. لا يمكن الحديث عنها، لكن يمكن تطبيقها عملياً كما ستراها لاحقاً. سأكون أميناً لأنغمس في لحظة مجزرة الرحاب، بعد أن سلمتني ابنته البدلة العسكرية التي نفّذ بها أمره. وكما

تعرف أن لحظة استعادة التاريخ لا يعني تمثّله بقدر جعل المقاربة موازية في دفق الروحين معاً.

ـ لم أفهم ما تقصده.

ـ ليس علينا فهم كل شيء بقدر امتصاص متعة اللحظة. العرض سيكون كفيلاً بإدراك ما قصدته. مثلما هو عندكم في ثقافة قراءة الروايات، فبعضها لا يمكن الحديث عن ملخصها شفاهاً، بقدر ما نتعاطى معها حسيّاً.

ـ ما بك يا ولد، أراك مرتبكاً، حتى طريقتك في كرع الكأس بدت متوترة.

ـ أستاذ خالد من الطبيعي هذا الارتباك، وربما يتصاعد حتى لحظة العرض. رعشة الارتباك هذه فيها من اللذة العظمى لا توازيها نشوة أخرى. لا تخف عليّ، فأنا تلميذك، كل النصائح والدروس التي زرعت براعمها في روحي، سأعمل بحذر على تطبيقها وتمثيلها بما يرضيك. لا أعرف ما بي ولا أدرك ما يجول في نفسي. عليّ أن أنام نوما متواصلاً حتى حلول ساعة العرض. النوم وحده ما يعيد لي ترتيب ضجة الأفكار وتزاحمها. النوم بلسم وعلاج فعال لقسوة الواقع. هل تعرف أن آخر مكتشفاتي أن العباسي لم يمت لغاية 2003؟

ـ كيف. هذا ضرب من الجنون يا ولد. شبع الرجل موتاً، وعظامه أصبحت رميماً. في شباط 1971 ودّع الحياة، وهذا معلوم في كل الوثائق وما غرسه المغمور في مقطع معلوم من أحد أبواب روايته التي بصددها لم يختلف اثنان على موته. هذا ما اتفقنا عليه في مقهى المعتزلة كما مثبّت في فصل الرواية ما قبل الأخير للآغا. ثم ماذا أفادك موته من حياته؟ أنت تستعيد لحظته التاريخية فحسب.

ـ لا. سيفيدني كثيراً. هذا النمط من الرجال لا يموتون، ربما يتكررون بنسخ متعددة، أظنهم موجودين بيننا. قناة «الحرة عراق» عرضت في تقرير لها، أن

العباسي ظهر في مقابلة مع حارس المقبرة الملكية والتسجيل موجود في اليوتوب.

كشف الحارس أنه في عام 2003 جاء شخص مقعَد تدفعه بنت، ووضع الزهور على ضريح الملك، وعند سؤال حارس المقبرة الملكية في الأعظمية من البنت أعلمته السر. لا تتفاجئ أن يكون من ضمن الحاضرين في عرض الفرجة.

ـ هذا الإحساس بدأ يراودني منذ أيام. صديقك المغمور أيضاً بإشارة عابرة ألمح في النص إلى احتمالية وجوده حتى عام 2004. ثمة وثيقة أخرى تطرح رأياً بأنه لم ينتحر، بل غادر العراق وعاد بعد التغيير ليضع إكليل الزهور، ومن بعدها اختفى أو مات بأمان. ولكن هذه من الروايات الضعيفة غير مسندة يا ولد.

ـ هل تعلم أستاذ خالد أني من المؤيدين لفكرة هروبه.

إنه لم ينتحر مطلقاً، فتلك إشاعة لم تثبتها شهادة وفاة أو مراكز الشرطة في البصرة أثناء خدمته فيها. ولا يمكن أن ينتحر في حانة خمر في شارع الوطن، ولم يكن ملحقاً عسكرياً في روسيا أو انتحر هناك. هذا الصنف من الرجال لا يمكن أن ينهي حياته بتلك الطريقة. هو انغماسي بطريقة كلاسيكية، يَقتُل ولا يُقتَل.

ـ مستحيل، عمره في 2004 تجاوز حاجز الثمانين. العراقي ليس من السهولة أن يتجاوز خط الستين يا ولد. باستثناءات قليلة، أنا على عتبة السبعين، أحس بهدم مبرمج لمعظم خلاياي التي كانت فاعلة.

ـ أستاذ. هل تعرف أن ابنته أخبرتني، أنها كانت في التقرير تدفع العربة بيد وتمسح دموعها باليد الأخرى؟

ـ ...امممممم مستحيل.

* * *

تذوب المقطوعة الموسيقية تدريجياً. أُنصِتُ لأنفاس الجمهور في القاعة

وهي تعزف سمفونيتها في ترادف إيقاعات شهيقهم وزفيرهم. أصيخ السمع لهمهمات شاب خلفي يتحدث مع بنت شابة بدت خطيبته أو عشيقته يتفلسف معها عن معنى الظلام في فضاء المسرح بطريقة فجة ومبالغ بها.

جلس بقربي هذه المرة رجل بدين تفوح منه رائحة عطر أخّاذ، عرفته فيما بعد أنه مدير معهد الفنون الجميلة، كان قلقاً لتأخر ممثل وزارة التربية عن الحضور.

انشغلت كل المقاعد الشاغرة في قاعة المسرح التجريبي بوقت وجيز، وبقي كرسي المسؤول شاغراً بانتظار إطلالته، بل أن بعض الذين قدموا من الطلبة وأصدقاء الممثلين ومن أراد أن يشاهد لحظة اختراق التاريخ التي شاع خبرها ظل واقفاً في الممرات، ثمة رجل مقعد على عربة معاقين لم يفسح له المجال كثيراً بقي جالساً في عربته قرب باب الخروج. في الركن الأيسر علّق الطلبة لافتة نعي سوداء على روح شهيد الفرجة المرحوم ياسر عبد اللّه.

بعض الإشاعات وصلت إلى ذروتها عندما تناقل الطلبة عن طريقة براق الكوني في الأداء المبتكر الذي سيفجره على الخشبة، وهو في قمة الأداء المبتكر. ستكون طريقة تجريبية مبتكرة، تطبيقاً للأداء المسرحي الفاعل للسنين القادمة كنظرية مسرحية عراقية خالصة تحفظ في أرشيف قسم المسرح. حيث تناقل الطلبة أن المخرج أتاح للكوني حرية التصرف على الخشبة في إنضاج الأفكار وتطبيقها في نظرية القسوة، التي رام تطبيقها كدرس للنظرية الأدائية الجديدة، لينال بها المخرج نورس درجة الامتياز في درس الإخراج.

* * *

2

ذو الرائحة الكريهة أيضاً

كانت واحدة من الطرق المبتكرة التي تطلَّبت جهداً مضاعفاً، حينما أجبرت إدارة العرض جمهور الفرجة على ارتداء الأزياء المناسبة في تلك اللحظة التاريخية، والمشاركة المحتملة مع الجوقة في العرض، أما الذين حضروا بملابسهم العادية فأجبرهم مدير المسرح بأسلوب مقنع مستعيناً برئيس القسم وكوادر الإنتاج على ارتداء الأزياء التي جلبوها من باب الاحتياط لحقبة الخمسينات الغابرة. أما المسؤول ذو الرائحة الكريهة فقد أجبره رئيس القسم على ارتداء السدارة الفيصلية وبنطلون «سموكن» أسود مع قميص ضيق بنصف كم مع حمالتي البنطلون. بدا الرجل خجولاً من هذا الزي التاريخي الذي يرتديه، عندما علَّق أحد من الجمهور عليه بكلمة «قدوري بيك». بلعها على مضض وجلس في مقعده ينتظر العرض.

في هذه الأثناء أظلمّت القاعة من جديد وانسابت نغمات عود جميل بشير تداعب مخيلات الجُلَّاس وهم يطوحون برؤوسهم مع النغم الساحر.

تأخر ممثل وزارة التربية، كعادة المسؤولين المدعوين دائماً، في عدم الالتزام بدقة موعد الحضور، مما سبب إحراجاً عظيماً لمدير المعهد بعد إلحاح كوادر قسم المسرح في بدء الفرجة، قبل تململ جمهور العرض واللغط المتصاعد، بضرورة البدء وترك فكرة غياب المسؤول.

بانَ القلق على مدير المعهد، فراح يتصل به حتى أعلن في القاعة وبصوت عالٍ: «الحضور الكريم، سيصل السيد ممثل الوزارة بعد لحظات ليشرفنا برعايته».

ذو الرائحة الكريهة حاضر بقوة أيضاً، وقد أحكم وضع كمام على فمه. ذلك الكريه الذي جلس بقربي في «البروفا جنرال»، وقد اختار مقعداً هذه المرة بعيداً عن مقعدي، لمحني بنظرة ثاقبة وعرف مقدار مقتي لرائحته، رغم أنه وضع الكمام ببادرة حسن نيّة، لكتم سموم رائحته. من المؤكد أنه كان يعرف أن غازاته الكيمياوية قد تطرد الجمهور والأفكار كلها من قاعة العرض.

بعد حضور ممثل الوزارة وجلوسه في الصف الأول، ذهبت نحو كواليس المسرح للبحث عن براق، لأرى بنفسي استعداده النفسي للعرض، فأرشدني الشباب إلى غرفة صغيرة ملحقة للمكياج. وجدتُ الماكير يضع اللمسات الأخيرة وتكحيل عيني الولد الكوني، ليزيد من اتساعهما، عندما شاهدني نهض من كرسيه وقبّلني قبلة حارة، فأخذته إلى زاوية مهملة من غرفة الماكير قرب المرآة الطويلة:

ـ براق العزيز أنت أملي في نجاح تجربتي في نظرية التبنّي، أرجو ألا تخيّب ظنّي بك، فكل الوصايا التي عملنا عليك أن تستحضرها في هذه الساعة. تضعها نصب عينيك لحظة بدء العرض، بالنسبة لي هي آخر محاولة إبداعية مرتجاة، وقد تمنَّيتها في حياتي. بودّي العيش في كنفها ولو للحظة واحدة من عمري الشحيح المتبقي. قررت أن أدوّن تفاصيل هذا العرض كفصل أخير لرواية المغمور.

أنت لا تعرف مقدار انهمار دموعي المحبوسة والتي ستتدفق بنشوة النجاح في ذروة الأداء الذي أنتظره منك وفق دروس النظرية وتطبيقها. أرى شبابي المهدور فيك يا ولد، على ثقة أنك ستعوضني عمَّا فاتني، ستعوضني عن كل فصول الفشل التي لازمتني في حياتي لكتابة رواية ناجحة. أنت أملي الوحيد قبل

الموت يا كوني. آه كم تمنيت أن أسعد بالنجاح يا ولد؟ أنتظر هذه اللحظة منذ أكثر من خمسين سنة. لم أذق في حياتي طعم النجاح، دائماً ما كان الفشل غولاً مخيفاً يتجسد أمامي بالحلم أو في الواقع، وياما حاولت تسلق سلالم النجاح، لكن آفة الفشل تبلعني في كل مرة، تسحبني لقاع الخيبة والخذلان وتغلّفني برماد الفشل مثل لعبة الحيّة والدرج. حتى حاولت مرات عديدة لفلسفة الفشل والتعامل معه مكرهاً. عندما شاهد الدموع تسّاقط من عينيّ، لشدة احتباس الدمع وكتمان الحسرة في صدري محاولاً خنقها، في تلك اللحظة راح جسمي يهتز وبدأ بنطلوني يخرط حتى وصل نحو ركبتيّ. شاهدت في المرآة كيف أحمرّت عيناي واحتقن وجهي. تلك هي عقدة ضعفي التي جلبت لي الفشل، سريع الدموع في هذه المواقف، زوجتي تقول عني: «أنت رجل لكنك بقلب أمٍّ ثكلى». مرات كثيرة أتفادى هذه المواقف، دموعي تفضح ضعفي. وعندما انهمرت دموعي احتضنني الولد بقوة:

ـ مع الأسف أستاذ، دموعك غالية عليّ. في هذه اللحظة أعدُّ نفسي للتحرر مما علق برأسي من محظورات ومقدسات وقوانين وأعراف. أستحضر درساً من السيد المنذري «كيف تكون حراً في عبادة اللّه، من دون عقائد وديانات ومقدسات، وآخر درس في التوحّد التاريخي». أنا حر الآن وطليق ومتوحّد. قبل أن تصعد إلى هنا كنت أستحضر درساً لك. الإبداع هو أن تأتي بالجديد الخارق في الفن والأدب. الحرية ستحملني على جناح طائر ضخم لأحلق في السماء. لا خوف مع الحرية صدّقني، لكنها تحتاج إلى عنصرَي المجازفة والتضحية. تخلَّصت من غواية العبودية وشباكها التي جُبِلنا عليها بالفطرة. أذكر قولاً للمنذري: «أبحث عن مؤمن حر لا يتلذذ في العبودية». كنْ واثقاً بي أستاذ. لن أنظر إليك أثناء العرض، فالإنارة المركّزة تصيبني بالعمى من رؤية الجمهور، ستحجب عينيك الملهمتين عن عينيّ، لكن صدقني أنت موجود في قلبي وعقلي وأمام ناظريّ.

عند نهاية عرض الفرجة إذا ما تمّ بسلام سأحيي الجمهور، سوف أنزل للقاعة وأحضرك مجبراً إلى المسرح لأقبّل يديك أمام الجمهور، فأنت سيد النجاح. أنت والمنذري من زرعا في رأسي نبتة الحرية والتوحّد المنتج.

وعندما سألته عن تكملة متمِّمات الإنتاج في الإكسسوارات والديكور وأزياء العائلة المالكة وبندقية العبّاسي، قال: «نعم أستاذ جميع النواقص تمّ إحضارها بأفضل صورة». أشار إلى مكياجه الذي لم يكتمل، ثم عاد مسرعاً إلى كرسي الماكير معتذراً مني.

ـ اذهب قلبي معك يا ولد يا مجنون.

ـ كن على ثقة عالية بتلميذك أستاذ خالد. وداعاً.

رفعت بنطلوني المخروط وذهبت إلى مقعدي في قاعة العرض، محاولاً السيطرة على تلك الرجفة التي أصابت بدني. هل سأحقق ما حلمت به وأنتصر بنظرية التبني؟ لا أعلم، مرتبك الحواس مثله في تلك الدقائق الحرجة.

انطفأت كل أنوار القاعة دفعة واحدة وعمَّ الخوف والهدوء القاتل. عادت هواجس الظلمة وما تفيض به من وحشة الرعب هذه، حتى كدت أصغي لتناغم أنفاس الجالسين في الشهيق والزفير، كأن الجميع في يوم محاكمة الرب عن جملة الذنوب المتراكمة من الحياة.

كنت أحسب نفسي مدركاً للحواس المحبوسة التي بدت في تلك اللحظة بتدفقها رويداً رويداً، ثم تنطلق في فضاء هذه الظلمة المدوية. مع انفتاح تدريجي للستارة الحمراء، ذاب الخوف والقلق والوحشة في تدفق سيل من المشاعر المتصادمة في مشاهدة الولد براق يشرق كالقمر على الخشبة.

لم تتغير المشاهد كثيراً في النسق العام لسير الفرجة عن «البروفا جنرال»

سوى تدفق الحوارات الساخنة وصدق المشاعر من حركة الجوقة العرايا وضبط الحركات مع الموسيقى. تألقت الممثلة ميسون الكيلاني، حيث ظهرت كأنها الأميرة بديعة فعلاً، أميرة الأدعية المستجابة، وحين بدأت في مشهد الدعاء على العراقيين، تدفقت همهمات شتى من جمهور العرض بين رافض للفكرة من أساسها، وبين مؤيد لعنف الشخصية وسخطها.

لفت انتباهي دقة التحضيرات والانضباط لضبط فضاء القاعة والمحافظة على خلق علاقة بنيوية بين الجمهور والمؤدِّين. استطاع مدير المسرح أن يُصمِتَ كلَّ الموبايلات ويمنع التقاط الصور قبل لحظة العرض بأسلوب جميل وراقٍ. أقنع الجميع باحترام طريقة العرض التجريبية.

* * *

3

الرقصة الأخيرة

مرَّت المشاهد الأولى كشريط سينمائي مرعب، تلك التي تحدَّثت عنها في حضوري إلى تمرين «البروفا جنرال» مثلما نقلتها في الباب الأول. مشاهد يحيطها الرعب كنوع من التوجس والقلق على مصائر الشخصيات اللائبة هذا اليوم، فهي تحت رحمتهم. مؤلِّف الفرجة المغمور وتطلعات المخرج الشاب نورس بشعره المعقود إلى الخلف وطموحاته غير المحدودة في عوالم الإخراج الحديثة، والولد المؤدي الكوني المجنون في فكرة الاختلاف.

كنت أنظر إلى رقاب جمهور الفرجة المشرئبة تتطلع بشغف لما يحدث على الخشبة، أراقب سير المشاهد وقوة الأداء في يوم المجزرة المرعب، بصورة بدت مشوّقة للوصول إلى حتف النهاية الموجعة. استطاع المخرج أن يتخلَّص من السرد التاريخي بالانتقال إلى صدمة التعبير البصري، من استغلال ميكانيكية طاقة الجسد لخلق التعبير البلاغي في مدياته القصوى، فكانت المشاهد الأخيرة ملفتة للنظر بحق.

فبعد مشهد سيل أدعية الأميرة، الأدعية التي كانت مضبوطة الشكل والمختلفة عن يوم تمرين «الجنرال البروفا»، تخيَّلتُها بحق تصل بيسر إلى فم السماء، لتقشعرّ لها أبدان الجمهور حتى ساعةٍ يحين بها موعد تأنيب الضمائر. حتى حجارة سجِّيل الأدعية أصابت بشكل مباشر هذا اليوم جوقة الممثلين قبل أن تصل شظاياها إلى الجمهور، وتشعرهم بالذعر والريبة.

كان الولد الخارق متألقاً ببدلته الخاكية المهترئة. يحتضن غدَّارة ثقيلة من حديد مزرق. فيما كانت الجوقة تحاول البحث عن منفذ للهروب في الدقائق الفاصلة، لكنه يصرُّ على محاصرتهم من كل زاوية من زوايا خشبة المسرح، حتى وصل إلى لحظة فاصلة في تدفق الأداء وهو يصرخ بوجوههم:

ـ أنا لست قاتلاً مأجوراً. أين مليككم الصغير؟ أين أميركم عبد الإله؟ أيتها الأشباح اغربي عن وجهي. لا أستطيع النوم، لا أستطيع الموت، لا أستطيع الاستمرار في الحياة.

بينما تتدفق الرقصة الأخيرة التي صُمّمت بطريقة مذهلة للعين الناظرة لتصيبها بالدهشة. هي لم تكن رقصة إيقاعية تتمايل لها الأجساد للطرب، بقدر ما كانت لوحة تشكيلية تعبيرية من حيث التكوين الجسدي الجماعي. ضربات الطبل العملاق تأتي من خلف الكواليس، كانت تعبيراً عن قسوة حقيقية مدروسة بشكل دقيق ومأخوذة من نظرية مسرح القسوة لانطونين آرتو ـ الرجل العبقري، الذي كان زبوناً للمصحَّات العقلية في فرنسا. طبعاً تلك المعلومات باح لي بها الولد المجنون في واحدة من تأملاته الفلسفية لتطويع مسرح القسوة العراقية، أثناء جلسة خمرية قبيل العرض. حيث قال:

ـ أستاذ يقوم مسرح القسوة على الأداء المبني على الحركة ومحاولة استنفار الحواس وتقاطعها في صور معنّفة، مثلما هو الابتعاد عن التدوين النصي والاستعاضة عنه بالإيماءات والتراكم البصري الإشهاري، فتلك لها التأثير أكثر من الكلمة المنطوقة، حتى الأصوات الخارقة للصوت، فلها قدرة العصف المدوي بالجمهور، وخلخلة العواطف الزائدة عن الحاجة وتشذيبها، آرتو العظيم قد استطاع تحديث تجربة وضع الجمهور في حلقات من القسوة واستفزازه في أجواء من قوة اندفاع الصوت الهادر فوق المنطوق اللفظي في اللغة، وهي مخاطبة غير صريحة للعقل غير العقلاني.

ـ ألم تكفِنا قسوة الحياة يا ولد؟ حتى تنقلها إلى المسرح. دع المسرح للجمال والفن الخلّاق. الجمهور هنا يحاول البحث عن مكامن الجمال والتشويق والراحة النفسية.

ـ في القسوة ثمة جمال مخبوء. ثمة تطهير للنفس الإنسانية الملتاعة.

ـ كيف!؟

ـ انظر إلى امرأة فقدت ابنها في انفجار مفخَّخة مثلاً، تذهب إلى مكان القسوة البشرية لتلملم الأشلاء لأعضاء مبتورة وتحتضنها تحت العباءة كباقة ورد مثلاً. أب فقد رأسه في ذلك الانفجار، لكنه يعود إلى بيته، وبيده كيس الخضار وجسمه يهتز من الضحك بوجه زوجته المتجهِّمة التي ما تنفك من التقريع. جسد محروق بلا رأس والدخان يتصاعد من ثناياه، يده تحمل كيس الخضار. اللّه... هذه هي غاية الفن، والجمال في هذه القسوة. سترى حتماً ثمة قهقهة وضحك من خلال سيل البكاء، ثمة صورة ما فوق جمالية بليدة مستترة في عنف المشهد. إن قسوة المشاهد الواقعية، يجب تطبيعها في نظيرها المسرح كما يؤكد سلام اللّه عليه أنطونين آرتو، والسيد المنذري وحضرتك أستاذ خالد الكبير.

* * *

وجهان اثنان من الجوقة مصبوغان بلون أبيض طاغٍ، اثنان آخران يقابلهما بوجهين مصبوغين بلون أسود. يشكل الأربعة حلقة صغيرة يرفعون شخصين فوق الأكتاف، يدور الأربعة ويدور معهما الجزَّار للنفاد إلى داخل الحلقة. مجانين يضربون الطبل بقوة، يتمايل برقصته بعكس دوران الجوقة وتدور البندقية في يده المرفوعة إلى الأعلى. كانت الموسيقى تصاعدية ومصممة بشكل متقن مع حركات التعبير الجسدي يناغمها قرع الطبل العملاق. شيء يشبه إلى حد بعيد حالة دروشة الشيوخ العارفين في هذه الطقوس، تذكرتها تماماً تلك الحالة التي يمرُّ بها الولد الكوني في تلك اللحظات.

ما لبث أن اقتحم هذا التشكيل يرافقه الصخب هذه المرة من ضربات كمنجات أوركسترا عملاقة مع آلة جلو تتبع أنغام الكمنجات، فتنفتح دائرة الجوقة مجبرة بقوة السلاح ثم تتفرق ويسقط الشخصان المحمولان من فوق الأكتاف. أكثر من سؤال مرتبك في وجوه الجوقة عندما أيقنوا خروج الكوني الجزار عن الحركة والحوار معاً. رغم أنه كما عهدته كان خارقاً منغمساً في قمة الأداء. مذهلاً للجمهور الذي تهامس عن اسم هذا الممثل.

حتى وصلنا إلى مشهد الفرجة في تمثّلات ساعة المجزرة المروعة، حيث تقف الجوقة مباشرة أمامه. يحتمون ببعضهم متراصين بلوحة جسدية غاية في التعبير التراجيدي، مجسدين لفعل الخوف الأسطوري لرمزية الفناء. كان سؤال الجمهور واحداً، هل كان هذا الخوف تمثيلاً أم حقيقياً؟

كان الولد براق خارج العرض يحدثني في معظم الجلسات عن هذا المشهد كثيراً. كان يتخيل بلوغ الاستعادة التاريخية بطريقة تعبيرية قاسية وليست انطباعية هادئة.

سأحاول قراءة ما تبقى من مشهد الرقصة الأخيرة رغم حبس أنفاس الجمهور في تلك اللحظات. إذ كانت الموسيقى التصويرية التصاعدية صاخبة نوعاً ما، عبارة عن مقطوعة سيمفونية عالمية محتشدة الأداء المتصاعد، فيما كانت الجوقة تأخذ رمزية تكوين أفراد العائلة المالكة، حيث تتماهى الأجساد مع حركات السيمفونية صعوداً، وبعد تفريق التشكيل الأخير، تأخذ الأجساد أشكالاً تكوينية تعبيراً عن رعب الموت، وذلك ما عكسته وجوههم والفزع في عيونهم. الولد المؤدي يحاصرهم، يضيق نطاق الدائرة، كلما حاولوا الفرار من بين يديه.

عملت الإنارة التشكيلية في تصعيد دراما هذا المشهد على بث الفزع التاريخي بين جمهور الفرجة الذي وجد نفسه محاصراً أيضاً بعد إحكام باب

الخروج، تتصاعد معزوفة «صولو كمنجات» حادة مفزعة، تذكّر الجميع بالقسوة والعنف خارج القاعة. كانت تعمل على تأهيل الدخول إلى ذروة عنف هذا المشهد الصادم في حصار الجوقة مع صوت الكمنجات تتبعها آلة الجلو بصوتها الذي يخلع نياط القلب من مكانها.

كلما حاولت كتلة الأجساد أن تهرب باتجاه ما، يظهر أمامهم الجزار شاهراً بندقيته، بعد أن أفزعنا بسحب أقسام بندقيته بشكل واقعي. تتجه الجوقة مرة أخرى باندفاع إلى شمال المسرح ثم إلى يمينه، ومرة أخرى إلى عمقه، فيقفز الولد أمامهم بخفة وهو يرتعش، شاهراً بندقيته وماسورتها موجهة على أجسادهم المسلوبة العارية.

التفتُّ إلى الخلف محدِّقاً في هذا الصمت الرهيب في القاعة، كل العيون المفتوحة تتابع حركة الولد المؤدي في دروشته الجنونية أمام الجوقة التي أخذت شكل قوس وهم يجلسون القرفصاء أمامه في آخر تشكيل لهم.

سمعت صوت جلبة لصوت الست سعاد وهي تجبر مدير المسرح على فتح باب القاعة لها للخروج، كانت كما بدا من صوتها خائفة من شيء ما.

يحل ظلام دامس لدقيقة على الخشبة، ثم ننتقل إلى رحاب المشهد الأخير. تظهر الجوقة وهي ترتدي الملابس البيض الفضفاضة تعبيراً عن حالة الأشباح التي تحاصر الجزار. يظهر الولد الخارق من عمق المسرح منهاراً لكثافة بياض الجوقة التي يبدو أنها تذكره بحصار الأشباح في دراما التاريخ فيلوذ في الفراغ.

يستثمر المخرج تلك القضية فنياً، عندما جعل الجوقة هذه المرة بمحاصرة الجزار في حلقة تضيق كلما ازدادت قسوة التعبير الحركي في الرقص. وهو يصرخ:

ـ لست قاتلاً مأجوراً صدقوني.

لكن الأمور تخرج عن السيطرة تماماً في تلك اللحظة، فقد سجل الجزار خروجاً جديداً عن النص وراح يخترق عزلة حصاره، ليخترق الجوقة ويده على زناد بندقيته. ثم ينقلب عليهم خارج النص ويحاصرهم في زاوية قصية من المسرح. وهم بين مصدِّقين من تدفق الأداء وخيطه الفاصل عن الحقيقة. فقد تجاوز الولد الجزار خطوط الحركة المرسومة من قبل المخرج.

في هذه الأثناء انطلقت من فوهة بندقيته ومضة إطلاقة مرعبة هزّت أبدان الجمهور والجوقة معاً، إنه صوت رمي إطلاقة وحيدة وحقيقية، كانت البندقية موجهة نحو الستارة القطيفية السوداء في عمق المسرح، لكن الرعب تصاعد عندما سمعتُ «آآآآآخخخ»، وحركة أقدام خلف الكواليس وجلبة بدأت بالظهور فيما حصل، ثم سمعت أحدهم:

ـ المخرج مُصاب.

نعم في بداية هذه الصيحة ارتبك أداء الجوقة، لكن الولد ظل في رقصته الجنونية متناغماً مع صوت الكمنجات. تعالت صيحات مختلفة من الجمهور والممثلين في زوايا المسرح.

ـ بندقية الجزار حقيقية وإطلاقتها أصابت المخرج نورس. إنه ينزف. ينزف. صاح أحد الممثلين خلف الكواليس.

صعد رئيس القسم ومدير المسرح واخترقا المشهد من وسطه، اندفعا بقوة نحو كواليس المسرح، ثم عادا يحملان المخرج المُدمَّى، قميصه الأبيض اصطبغ بلون الدم. وما زال الجزار يحاصر الجوقة التي ازداد رعبها من شبح الموت الحقيقي في البندقية المحشوة بالرصاص. وفي عنف المشهد المتصاعد انطلقت رصاصة أخرى على ممثل الجوقة الرئيس فأصابه في الحال مع صيحة منه «آخخخخ»، ثم خرّ صريعاً بين أقدام الجوقة. توالت الإطلاقات الحقيقية مع استمرار العرض.

تداخلت أبواقٌ لسيارات الشرطة مع صوت الإسعاف مع موسيقى المشهد التي ما انقطعت تتواصل مع رقصته الجنونية والطبل المجنون ما زال يقرع نفسه، وكان على الجوقة أن تماشيه في الرقص التعبيري لتكملة المشهد حتى نهايته تحت التهديد، وهي تفقد كل لحظة أحد ممثليها، ولا سبيل لهم سوى الاستمرار في الرقص رغم الخوف الطافح على وجوههم، يرقصون في تشكيلة عشوائية غير مرسومة، تستمر الإطلاقات منه ليجهز على المتبقي منهم.

وقفت مع الجمهور ليس لمتابعة المتبقي من المشهد بقدر إيجاد منفذ الباب الخارجي الموصد، قبل أن يلتفت إلينا الكوني الذي جن جنونه.

الهروب أولى، والفشل حليفي الدائم، احتشد الجمهور في محاولة للفرار من تصاعد نشوة القسوة بالتطبيقات الميدانية لنظريتها.

ذو الرائحة الكريهة وممثل الوزارة كانا أول الهاربين من جحيم الموت داخل قاعة العرض وقد سبقتهم الست سعاد، فقد احتشدا قرب الباب الموصد وما زال الرمي متواصلاً حتى هذه اللحظة.

* * *

انتهت

الفهرس

ما يشبه الحكمة 4

الإهداء 5

ثلاثة تقارير فقط 7

ت1 7

ت2 13

ت3 21

الباب الأول: ذو الرائحة الكريهة 25

1 الحضور في الظلام 27

2 دعاء مُستجاب 35

3 مشهد الصعقة 40

الباب الثاني: الفصل الأول 45

1 رواية المغمور «الملك في رحابه» في مساء يومها الأول 13 تموز 47

2 تقشير الرقي 51

3 سطور محذوفة من حياة القره تبي 59

الباب الثالث: ناظور لحياة المغمور 63

1 يوم سوريالي تقاطع جامع النداء 65

2 الروائيون يشيِّعون المغمور 68

3 زوجة المغمور مغمورة 71

4 الروائي الكذّاب كان حاضراً أيضاً 75

5 ما بعد يوم الأربعين 80
6 العودة الميمونة لنجم العتابي 87
الباب الرابع: فصل الرواية الثاني 91
1 قيلولة صيف بغدادي 93
2 شَعر بنات أين أُوَلِّي؟ أين أبات؟ 100
الباب الخامس: التـبـنّي 103
1 الخروج عن النص 105
2 مصالحة 110
3 ظهور السيد المنذري ((مغمور بغدادي)) 113
4 السدارة الفيصلية 118
الباب السادس: الفصل الثالث لرواية المغمور 123
1 قدوري بيك 125
2 رأس غنم عراقي 128
الباب السـابع: المـــؤدي 131
1 إنفلونزا الفشل 133
2 عالم الست 138
3 اختفاء السيد المنذري ـ يوم جديد ـ 143
الباب الثامن: الفصل الرابع للرواية 149
1 المصور جلال كوداك 151
2 الملك في البيجامة 156
3 صورة جانبية للخال 160
البـاب التاسع: الفصل الخامس من الرواية ثلاث أميرات من قصر الرحاب 165
1 فاضلة 167
2 راجحة 171
3 هيام ثالثة الجميلات 178

الباب العاشر: الفصل السادس من روايته 183
1 قبل الواقعة 185
2 الرحاب من الداخل 190
3 موسيس مالاكيان حلاّق الملك 193
4 أحلام صيفية للزنكي 197
الباب الحادي عشر: نادي الزواج 201
1 ياسر عبد اللّه 203
2 نادي الزواج 207
3 المشنوق 214
الباب الثاني عشر: الفصل السابع من روايته 217
1 الرسالة الأولى 219
2 الرسالة المشفرة 222
3 صالح عطوان 224
الباب الثالث عشر: الفصل الثامن من الرواية 233
1 الحياة في الطابق العلوي 235
2 ورقة بيضاء بيد الأمير 243
3 نزول الملك 247
4 العميان 254
الباب الرابع عشر: باب الفرجة الأخير 257
1 ظلام العرض... سواد التاريخ 259
2 ذو الرائحة الكريهة أيضاً 265
3 الرقصة الأخيرة 270

THE KING IN HIS PYJAMA

الملك في بيجامته

مثلا هذه انثى رائعة الجمال، لكنها خائفة من شيء ما، وتلك أخرى تدمر جمالها بالصراخ وخشونة الطباع، فالعصبية تقتل رقّة الانوثة، وأخرى مهملة للغرائز، بل تتكتّم على تدفق الرائحة في ساعة مرورها.

تلك جميلة الملامح، لكن رائحة فمها تنبعث كغاز سام، حتى غدت رائحة الجسد الانثوي تعمل ضمن جهاز لقياس شبقها أو حاجتها الماسة لأمور لا يمكن البوح فيها هنا.